نصف ميت

حسن الجندي

نصف ميت / رواية

حسن الجندي

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

اكتب
OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

عبد الرحمن الصواف

تدقيق لغوي :

سارة سرحان

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٨٥٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٨١- ٠

نصف ميت

دُفن حياً

حسن الجندي

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى والدي رحمه الله، كنت أتمنى أن أراك ولو لمرة واحدة في حياتي.

إلى جدي رحمه الله، أتمنى أن أتحدث معك ولو لثانية واحدة.



(لطالما أنتظر اللحظة التي ستقبض فيها روحي، لذلك أهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي .. إلى ملك الموت)

الإهداء المكتوب في الرواية الأصلية



مقدمة

شكر خاص لكل من سمح لنا باستخدام تفاصيل أحداث حياته الواقعية في تلك الرواية، وكل من وافق على استخدامنا لمعلومات حقيقية عن أشخاص راحلين يمتون لهم بصلة قرابة، ونُهدي لهم هذه الرواية محققين وعدنا بعدم نشر الأسماء أو الأماكن أو التواريخ الحقيقية بقدر الإمكان للشخصيات الحقيقية حفاظًا على حريتهم الشخصية واحترامًا لحرمة الموت.

وعليَّ إعادة كتابة تلك الأحداث بتوجيهات من الأشخاص الحقيقيين أو من أقربائهم الأحياء.



الفصل الأول

البداية

٥ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة التاسعة

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الحافلة متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محـلات مأكولات كثيرة، ويعلن للركاب أنهم يمكنهم الـنزول لعـشر دقائق لشراء ما يحتاجونه، يعرف الركاب بالطبع أنه يتفق مـع تلك المحلات مسبقًا كي يأتي بالركاب إليها، ولكن ما باليـد حيلة.

فيجب عليهم أن يتحملوا بصبر حتى يصلوا إلى الإسكندرية بسلام، مرت ساعتان منذ تحركهم من موقـف الـسيارات في القاهرة وقد ساعد الظلام داخل الحافلة على انتشار النوم بـين الركاب، حتى إن الجميع لم يعترضوا على وقوف السائق أكثر من مرة على جانب الطريق ليدخن سيجارة ثم يعود ليكمل مرة أخرى السير..

هدوء تام داخل السيارة إلا من بعض الأشـخاص الـذين يستيقظون بين الحين والآخر ينظرون حولهم بنـصف عـين ثم يغيرون أوضاعهم ليكملوا النوم مرة أخرى، خذ عندك مثلًا هذا

الشاب الذي يجلس بجانب إحدى النوافذ وهو يرتكن برأسه للوراء ويبتسم ناظرًا إلى السقف، يبدو أنه يسرح في عالم من الخيالات السعيدة.

وخاصة وهو يقرب علبة صغيرة يقبض عليها بين يديه إليه ثم يفتحها لتظهر داخلها دبلة ذهبية صغيرة بجانب دبلة أخرى من الفضة وعلى الدبلتين نقشت حروف بارزة.. نظر الشاب حوله ليتأكد من أن أحدهم لا يراقبه ثم قرب الدبلة الذهبية من شفتيه وقبلها وهو يغمض عينيه متخيلًا حبيبته، أعادها مرة أخرى ليده ليطبق عليها وينظر لسقف السيارة ويعيش في تخيلاته مرة أخرى..

عندما كنت صغيرًا شاهدت أحد الأفلام القديمة وفي بداية الفيلم تظهر لقطة على الشارع والكثير من الناس يسيرون، ثم يقول الراوي إن لكل واحد من هؤلاء حكاية مختلفة، ويمكن للمشاهدين اختيار أحدهم كي يبدأ الراوي في سرد حكايته، وأنا أقول إن لكل شخص في تلك الحافلة حكاية وطموحات وأحلام وأفكار، والجميع اجتمع في تلك الحافلة متجهين إلى مكان واحد.

من المفترض أن يكون هذا المكان هو الإسكندرية، لكن من صدف القدر أنه في بعض الأحيان هو الذي يختار المحطة التي

نتجه إليها، هو الذي يحدد وجهتنا، إنه القدر، هـذا الـشاب الذي يمسك بالعلبة الصغيرة وينظر حالمًا لسقف السيارة وبجانبه هذا الشاب الذي يغمض عينيه، ولكنه يفكر بعمق وهو يقطب حاجبيه ويتذكر ذكريات يبدو أنها ليست مبهجة؛ لأن يديـه تقبض بقوة على مسند مقعده، هل عينيه تخرج منها ما يـشبه الدموع أم أنه خداع بصري؟ هناك ما يشبه الرغرغة في عينيـه ولكنه يحبسها بقوة..

ربما كان هذا السائق له قصة ما هو الآخر ولكننا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالًا لـشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لـصوم أيـام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيـه والتي يحبها أكثر من نفسه، يوفر لها كل ما تحتاجه كي تظهـر بمظهر لائق أمام زميلاتها في الجامعة.

وهي ليست تلك الفتاة التي تظهر في الأفلام القديمة والـتي تخجل من مهنة والدها .. بل تفتخر به أمام كل من تعـرفهم، وتفتخر بكفاحه في سبيل تربيتها، وهي أيضًا لم تبخـل علـى والدها وجعلته يفتخر بدخولها كلية الطب كما حلم هو لها.

فأصبح يناديه زملائه (أبو الدكتورة) وهو يبتسم لهم وتكاد الدموع تنفجر من عينيه من الفرحة في كل مرة يـسمع فيهـا

ذلك اللقب، من الصعب وصف تلك العلاقة بينه وبين ابنتـــه، والتي تكونت منذ أول لحظة ميلاد لها عندما أقسم داخلـه أن يلبي كل طلباتها حتى ولو مات في سبيل ذلك، ربما لذلك يقبل عم (محمد) ببعض التنازلات، ربما يقبل بأن يقـوم باسـتخدام بعض حافلات الشركة بعد أوقات عملها الرسمية في تشغيلها في خطوط القاهرة بدون علم الإدارة.. يحدث هـذا مـرة كـل أسبوع على الأكثر ويساعده في ذلك بعـض زملائـه؛ لأنـه يساعدهم هو الآخر في إخراج بعـض الحـافلات لخطـوط أخرى..

مصاعب الحياة هي ما تجعله يفعل هذا، من داخله أصبح لا يعرف هل ما يفعله حرام أم حلال.. لكن الراتب لا يكفي منذ القدم، و(سمية) كبرت وتحتاج لملابس كثيرة ومصروف يـومي يليق بسنها، وطعام .. وكل ملذات الحياة التي يجب توفيرها، ما يفعله خطر عليه، ولو حدث وكشف أمره سـتكون نهايتـه، ولكنه يخاطر بكل هذا في سبيل الابتسامة التي يراها على شفتي (سمية) وهو يعطيها ما تريد ويربت على كتفها بحنان، كل هذا يهون في سبيل أن يراها تقفز من على الأرض ثم تقبله وهـي فرحة بتلبية أحد مطالبها..

يتمنى من الله أن يسامحه على ما يفعله، ويقول إنه لا يــضر الشركة في شيء، في تلك المرة التي يستخدم فيها الحافلة في غير أوقات عملها الرسمية، حتى آخر مرة والتي استخدم فيها هــذا الحافلة بالذات أمس في داخل القاهرة، واكتشف وجود مشكلة في المكابح في آخر اليوم قرر أن يصلحها بنفــسه، ولكنــه لم يستطع بسبب دخولها الخدمة اليوم.

ولكنه ينوي أن يصلحها بمجرد أن يعــود للقــاهرة مــرة أخرى، ولا مشكلة تخيفه، فهو يمتلك الخبرة التي تجعله يقود هذا الحافلة بحالة مكابحها تلك، ولن يعلم أحد بذلك ولا خــوف عليه.. صحيح أن الليل شديد السواد، ولكن لا مشكلة.

صحيح أنه لا يعرف لماذا يفكر في ابنته (سمية) بتلك الطريقة الغريبة، وكأنه يخاف عليها، ويشعر بأنه يحتاج لرؤيتها حالًــا، ولكن لا مشكلة، لا مشكلة، فالحياة تسير بهدوء، وها هو مــا عليه سوى أن يعبر شريط القطار هذا ويسير قليلًا ليتوقف عند مقهى الفيومي الذي يأخذ منه إكرامية على كل مرة يقف فيها عنده، إنه يقترب من الشريط ولكن هل يرى جيــدًا أم أنــه يتخيل؟ الشريط مغلق، إذن هناك قطار سيمر الآن...

بالفعل هذا هو صوت عجلات القطار، لا مشكلة سيتوقف بالقرب من الشريط حتى يمر القطار ثم يمر هو عنــدما يزيــل

العامل تلك السلسلة الرفيعة التي تمنع المارة، ها هـــو يقتـــرب والقطار يقترب أيضًا يا للدقة، رفع قدمه قليلًا من على دواســـة الوقود وهو يضغط على دواسة المكابح.. ماذا يحدث؟

حاول مرة أخرى، ولكن الحافلة تـــسير بـــنفس ســـرعتها السابقة أو بسرعة أقل قليلًا من جراء التقليل من ضغط دواســـة الوقود، شعر بالارتباك بالفعل عندما تخيل ما سيحدث، بقيـــت أمتار على شريط القطار والمكابح لا تعمل بحق، ماذا حدث لها لقد كانت تستجيب ولكن ببطء، أما الآن فهي لا تـــستجيب أصلًا!!!!

القطار يقترب، وصوته يعلو، والحافلة تقترب أكثر، رفـــع قدمه من على دواسة الوقود، ولكن الحافلة تقترب أكثر، مـــاذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

لو حاول الانحراف الآن من المحتمل أن تنقلب الحافلة وهـــو بهذه السرعة.. هناك احتمال أن تستطيع الحافلة عبور الـــشريط قبل أن يصطدم القطار بها.. أغمض عينيه وهو يتذكر كميـــة الاحتمالات التي كان يمكنه أن يفعلها ولكنه نسيها الآن، لم ير شيئًا سوى صورة ابنته وهي تحضنه وتقبله.

الحافلة تقطع السلسلة وتعبر الشريط، ولكن القطار يصطدم بها فتنقلب الحافلة، ثم يدفعها القطار للأمام، ركاب الحافلـــة لم

يطلقوا أي صرخات، فقد كانوا يغطون في النوم، فتم كل شيء بسرعة وقبل أن يشعر أحدهم بأي شيء، إنه القدر بالفعل.

***

نفس الليلة

ليلة حارة.. وربما لم يفكر رجال الشرطة كثيرًا هل شـدة الحرارة كانت من حرارة الجو أم تلك الحرارة المتصاعدة مـن الدخان الذي يخرج من منطقة الحادثة، رجال الإطفاء يغادرون المكان بحذر بعد أن انتهوا من عملهم وخمدت النيران العنيفـة التي اشتعلت جراء انفجار تم بالحافلة بعد اصطدام القطار بهـا، الانفجار لم يعلم أحد سببه، ولكنه سبَّب الكثير من الفوضـى، وخاصة بعد أن انقلب جزء من القطار بعـد خروجـه عـن القضبان، واشتعلت النار بعد انفجار الحافلة..

من القطار مات عشرة أشخاص، ومن الحافلة اثنان وثلاثون شخصًا، والباقون على قيد الحياة، بالرغم من تجمـع الأهـالي حول مكان الحادثة؛ إلا أنهم لم يقتربوا من منطقة الاصـطدام التي توقف عندها القطار بعد خروجه عن القضبان، وإن كـان السبب الحقيقي وراء عدم اقترابهم ليس احترام النظـام، وإنمـا ذلك المشهد الذي يثير الغثيان؛ فالحافلة مفتوحة من الوسـط، وأجساد متفحمة تخرج منها وكأنها كانت تحـاول الهـرب،

وأجساد أخرى ملتصقة ببعضها، وأعضاء بشرية ملقـاة علـى الأرض، حتى إن رجال الإسعاف كانوا يتحركون ببطء شديد؛ لصعوبة التفرقة بين الأحياء والأموات..

مشهد مقزز ويصعب وصفه ويبعث على القشعريرة أكثـر منه يبعث على الحزن، بصفة عامة كان جو من الإحباط يسيطر على الجميع ويجعلهم يتصرفون بحزن شديد.. قـرب الحـادث بأمتار، وسط الواقفين، ووسط أصوات الاستنكار من النـاس، وكلمات الحسرة والدعاء للمتوفين، قال أحدهم لصاحبه وهو يشير أمامه إلى جثة يبدو أن صاحبها قد خرج من الحافلة بعـد الحادثة: لحظة.. ما هذا؟ عندما نظر صديقه للجثة لم يفهم لماذا يشير لها، ولكن لاحظ أن رأس الجثة مشوه ومكسور العظـم، وقد ضاعت ملامحه وملامح جسده الباقية بـسبب الحـروق الشديدة، اليد اليسرى للجثة متآكلة، كما أن الجـسد نفـسه متهتك و.... اتسعت عينا الرجل وهو ينظر ثم يداري عينيـه بيديه من الغثيان، آخر تفاصيل طالعتها عينيه أن الجثة تقـبض بيدها اليمنى المفرودة على شيء ما، ولكن المفـزع أن الجثـة كانت بدون نصفها الأسفل!!

أي إن صاحب الجثة خرج من السيارة وهو لا يـرى ولا يسمع، وبدون نصفه الأسفل، ويده اليسرى مـشوهة، وظـل يزحف بيده الوحيدة التي تقبض على شيء ما حتى مـات في موضعه هذا، لقد تعذب كثيرًا قبل موته..

***

فتحت (دينا) الزوجة المخلصة عينيها ببطء وهي تنظر حولها، حتى وقعت عينيها على وجه زوجها النائم، ابتسمت وهي تعيد خصلات شعرها المتناثرة للوراء لتتمكن من تأمل ملامح زوجها قليلًا.. يا له من وسيم، وسامة تحتلها لمحة من الحزن، ما زالت تلك المشكلة تسيطر عليه في الأيام الأخيرة، وخاصة بعد ليلة أمس التي تحدث فيها مع شقيقها، فجأة تذكرت وهي تنظر بجانبها للمنبة الموضوع بجانب الدمية التي أهداها لها زوجها، الساعة تقترب من التاسعة، يجب أن يستيقظ زوجها ليجدها في أحسن حال، نهضت بخفة واتجهت للحمام لتغسل وجهها وأسنانها وتمشط شعرها، وتخرج لتبدل ملابسها، ثم تجري باتجاه المطبخ لتعد الإفطار الذي يحبه ككل يوم، مرت دقائق وهي تعد الافطار حتى سمعت صوت المنبة ينطلق من داخل غرفة النوم.. مرة والثانية ولم تسمع صوت حبيبها ينادي عليها كما تعود عندما يستيقظ من نومه؟ تركت ما في يدها وهي تتجه ناحية غرفة النوم وهي تغني بصوتها العذب لزوجها، دخلت الغرفة وهو ما زال نائمًا على فراشه، جلست بجانبه وهي تكمل الغناء وتتناول يده بين يديها

لتوقظه بلطف، يده متصلبة وباردة؟ قلبته على ظهره فانقلب بسهولة ولكن بجسد متصلب، توقفت عن الغناء وهي تشهق ثم تنادي باسمه بلا وعي، شهقت مرة أخرى ونظرت للسقف وهي تصرخ باسمه.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الثاني

نفس الليلة الساعة الحادية عشر والنصف

لم تستطع (داليا) أن تفهم ما يحدث، صداع غريب اجتاح رأسها فجأة ومنعها من النوم، فتحت عينيها للمرة العاشرة في آخر ساعة، وهي تنظر للظلام في الغرفة بضيق.

لماذا تفكر في (حاتم) بهذه الطريقة، لماذا تتخيل صورته بتلك الطريقة الغريبة؟ ما هذا الاشتياق الرهيب له؟ ما الذي يجعلــها تتمنى أن تأخذه بين أحضانها بقوة وكأنها تريد أن تخبئــه بــين ضلوعها.. ما السبب الذي يجعلها تــشعر بأنفاســه تــصطدم بروحها؟ ورائحته تملأ أنفها، وملمس يده القوية بين يديها..

زاد الصداع هذه المرة عن الحد الطبيعي؛ فنهــضت مــن الفراش بعصبية ثم تحسست طريقها لباب الغرفة وفتحته بحــذر كي لا توقظ شقيقتها من النوم، خرجت للصالة التي تغــرق في إضاءة خافتة تأتي من الشرفة المفتوحة، والتي اتجهت ناحيتــها كي تجلس فيها قليلًا حتى ينتهي هذا الصداع المزعج، جلــست على المقعد وهي تتأمل الشارع الطويل المليء بالمصطافين الذين يزورون الإسكندرية كل عام.

حاولت أن تندمج بنظرها مع حركة الــشارع، ولكنــها فشلت وظل رأسها مصر على شــيئين، الــصداع الرهيــب

والتفكير بحاتم، قررت أن تحاول أن تشغل رأسها بحاتم قليلًا حتى تنسى الصداع، ولكنها تذكرت أنها تفكر فيه منذ ساعتين بطريقة غير طبيعية، وكأنها تعرفه لأول مرة، ومعجبة به كما فعلت منذ سنين، ابتسمت قليلًا وشعرت بالبهجة وهي تتذكر إصرارها على دخولها كلية دار العلوم، ورفض والدها الابتعاد عنها، وأيام طويلة من الشد والجذب بين أفراد عائلتها عن إمكانية سفرها من الإسكندرية للقاهرة حتى يمكنها الالتحاق بالكلية.

وهل من الممكن أن تسكن في المدينة الجامعية أم تقيم في بيت أحد أقربائها أم ينسى الجميع تلك الفكرة وتلتحق هي بكلية أخرى في جامعة الإسكندرية؟ يا لها من أيام جميلة مليئة بالذكريات، وخاصة عندما أوصلها والدها إلى الكلية، وظل مقيمًا معها عند أقربائهم لأسبوع قبل أن يعود للإسكندرية بعد أن اطمئن عليها وعلى استقرارها في المدينة الجامعية، ثم تلك المحاضرات التي كانت تطربها بسبب عشقها لعلوم اللغة العربية منذ صغرها، ربما صدمت من طريقة التدريس في البداية، وهذا الكم الكبير من المعلومات الذي فوجئت به في الكتب، ولكنها حافظت على عشقها لتلك الكلية العريقة التي ظلت تحلم بها بعد أن كان يحكي أستاذها - الذي تخرج من تلك الكلية - عن سنوات عمره التي قضاها بها والعلوم التي درسها، مر شهر

والثاني وأصبحت مميزة وسط الدفعة بذكائها وتفوقها في المواد الدراسية، وإطلاعها الضخم الذي تكون من زيارتها المستمرة لمكتبة الجامعة.

ولكنها كانت تسأل نفسها دائمًا عن هذا الشاب الذي كلما دخلت المكتبة تجده يمسك بمجموعة كتب ضخمة وكشكول ويدوّن شيئًا ما!! مرة تجده يمسك قلمًا، ومرة يكتب شيئًا، ومرة يقرأ بتمعن.. لا يمكنها أن تحدثه حتى لو أرادت هي؛ فهي لم تَتَرَبَّ على مثل تلك الطريقة، وفي صغرها لم تتكلم مع ولد غريب ولا مرة واحدة، حتى لو أعجبت هي بأحدهم فهي لن تتمكن من التحدث إليه.

أما هذا الشاب فقد جذبها منذ البداية، واستطاعت هي أن تحدد بالتقريب وقت دخوله المكتبة، الغريب أنه كان نفس وقت تواجدها؛ أي بين المحاضرات وبعد انتهاءها، لم تمر عشرة أيام إلا وقد عرفت أنه في نفس دفعتها بكلية دار العلوم، أصابها ذلك بنوع من الفرحة الممزوجة بالغباء، خبر سعيد أن تعرف أنه معها في دفعتها، ولكن ماذا ستفعل على أي حال؟

أليس من الممكن مثلًا أن ينظر لها ويعجب بها؟ لماذا لا تجده فجأة يقترب منها ويقول لها إنه يحبها؟ سيغشى عليها خجلًا عند تلك اللحظة، ولكن لماذا لا يفعلها؟.. بالطبع لن يفعلها؛ لأنه لا ينتبه لنظراتها، نظراتها التي ترمقه كل عشر دقائق بقوة

وهو يجلس بين أرفف الكتب، كانت تجلس في الغالب على المنضدة التي تجاوره، فالمكتبة مقسمة على هيئة مناضد طولية مجاورة لبعضها، وأمام المناضد وخلفها أرفف الكتب الضخمة، والتي غالبًا ما امتلأت بالواجهات الزجاجية التي تحفظ الكتب القديمة.

كانت تجلس على المنضدة المجاورة وهي تقرأ بالفعل في كتاب تختاره، ولكنها كل عشر دقائق تنظر له بطرف عينيها قليلًا، وإذا تأكدت من عدم انتباه أحدهم لها فإنها تنظر له بتمعن، لتجده إما يقرأ فيما أمامه أو ينظر شاردًا لأرفف الكتب أمامه.. يا ترى في ماذا يشرد؟ هل هو مرتبط بفتاة أخرى؟

لا توجد في يده دبلة، ولكن هذا لا يعني أنه لا يعرف أي فتاة، يومًا بعد الآخر أصبحت قامته الطويلة ووجهه الأبيض وشعره القصير وعينيه الخضراوين وكل تلك التفاصيل محفورة داخلها.. لماذا لا ينتبه لها هذا الغبي؟ ولماذا أصبح ينظر لأرفف الكتب كل هذه المدة؟

مر شهر كامل منذ أول مرة رأته فيها ولم تحدثه ولكنها لم تستطع الصبر أكثر من هذا، من قال إن الحب يعطل عن الدراسة؟ لقد أصبحت أسرع بمراحل في مراجعة المواد وحفظها، وأصبحت أكثر تميزًا بين صديقاتها، ولكن صديقاتها لاحظن شيئًا ما عليها، حتى أن (عفاف) قد أخبرتها بأن هناك تغيرات كثيرة تدل على ظهور حب في حياتها، بالطبع أخذت

تقفز كالقرود وتنكر وكأن أحدهم اقمها بتهريب المخدرات، حتى هدأت واعترفت..

وكما يحدث بين أي مجموعة فتيات جامعيات فقد انتـــشر الخبر بين صديقاتها الأربعة، وقرر الجميع مساعدتها في إيقـــاع هذا الشاب في براثن الحب، هناك من أخذت تجمع التفاصـــيل عنه، وعادت بالخبر اليقين عن هذا الشاب الذي يدعى (حاتم)، وعن بلدته في المنصورة، والتي جاء منها مع صديقه ليسكن في المدينة الجامعية للدراسة، شاب مستقيم محبوب من الجميـــع، ، بعض الغموض يلف شخصيته لكن حب الجميع له ينسي هذا الغموض، وفوق كل هذا متفوق جدًّا جدًّا، ويكاد تميزه وسط أصدقائه في المواد الدراسية يفوق تميزها هي نفسها..

عند تلك النقطة ابتسمت (داليا) وهي تستمع لـــصديقتها وأحست بالفرح، عندما عرفت أن حبيبها يفوقها قوة في مجال ما، فهذا هو ما تريده؛ فهي لن تقبل أن تشعر بضعف حبيبـــها أمامها، المهم أنها استمعت لبـــاقي المعلومـــات الـــتي جمعتـــها صديقتها بطريقة ما لم ولن تعرفها، وفي النهاية فوجئت بـــأن صديقتها قد أحضرت رقم هاتفه المحمول!!

يبدو أن صديقتها هذه كانت تعمل في الموساد لتقوم بكـــل تلك التحريات في يوم واحد، نأتي لصديقة أخرى ظلت تراقبه منذ خروجه من المكتبة إلى مقابلته لأصدقائه حتى دخوله لمنطقة

سكن الطلاب في المدينة الجامعية، وصديقة أخرى أخذت تتعرف بأقرب الناس إليه حتى تصبح خط دفاع ثان عندما تفشل إحدى المحاولات التي سيقمن بها، أما (عفاف) فقد أخذت (داليا) من يدها وجعلتها تقف أمام المرآة في صباح اليوم التالي، عندما وقفت (داليا) أمام المرآة لتتأمل وجهها..

قالت بسخرية: "ما أنا مش وحشة أهو أوي يا عفاف، دا أنا حتى فيَّ شبه من استيفان روستي"، فردت عليها (عفاف) غاضبة وهي تخرج شيئًا ما من الكومود الصغير الذي يقبع بجانب المرآة: "استيفان روستي.. يا غبية أنتِ أجمل بنت في الجامعة، بس مش مهتمة بنفسك من الأول، مخبية البياض ده والعيون العسلي والشفايف الصغنونة دي لمين؟ أنا هاخليكي تهتمي بنفسك غصب عنك.. النهاردة هاقوم بأكبر عملية تجميل في التاريخ، هاحوِّل الفيسخ لشربات".. نظرت لها (داليا) لتجدها أخرجت من الكومود علبة مساحيق تجميل ومجموعة طرح جديدة وشيئًا ما ملفوف في كيس بلاستيكي، مرت ساعة كاملة، ونظرت (داليا) مرة أخرى في المرآة.. عندها قالت بصدق: "مين دي؟!" بالفعل أصبحت فتاة أخرى، بعد أحمر الشفاه وتحديد العينين وبعض الكريمات والأشياء الأخرى، أما الملابس التي اشترتها (عفاف) أمس بدون أن تعلم هي فقد كانت مقاسها بالضبط، ملابس جميلة لا تظهر تفاصيل

جسدها، ولكن اختيار ألوانها كان روعة، مع الثلاثة طرح التي ارتدتهم على شعرها، ومساحيق التجميل التي وضعت بكمية قليلة جدًّا، ولكن باحترافية شديدة، كل هذا جعلها تنظر مندهشة لمظهرها الذي تغير من حال إلى حال لدرجة يستحيل أن يصدقها أحد.

احتضنتها (عفاف) وكأنها تحتضن ابنتها ليلة عرسها، وقالت (داليا) فرحة: " اشتريتي اللبس والميك أب والطرح الجديدة وكل ده من غير ما أعرف؟ أنتي أكتر من أختي..."

استغرق الاثنان في العناق حتى دخلت عليهما الحجرة صديقتهم التي تراقب (حاتم) وقالت: "يظهر أني جيت في وقت مش مناسب.. مين الآنسة دي يا (عفاف)؟" فأخذت (داليا) تقنعها بأنها هي، وصديقتها تنظر لها برعب، حتى تذكرت شيئًا ما، فقالت بسرعة: "مفيش وقت نضيّعه.. الساعة دلوقت عشرة الصبح.. و(حاتم) مَرْمِي في المكتبة من ساعة، وهايمشي كمان نص ساعة علشان يروح للمحاضرة، لازم تتحركوا دلوقت"، بالفعل تحركت (عفاف) و(داليا)، وكانت الخطة بسيطة جدًّا، هي أن تجلس (داليا) بجانب (عفاف) في المكتبة، وبعد برهة من الوقت تنهض (عفاف) لتسأل (حاتم) إن كان من نفس دفعتهم أم لا، وعندها تقوم بسؤاله عن شيء ما في المواد، وتطلب منه أن يقوم بشرح شيء لها ولصديقتها، وعندما

ينتقل ليجلس بجانب صديقتها تعتذر هـي لوجـود مكالمـة ستجريها وتترك الاثنان بمفردهما.

والباقي سيكون سهلًا، المهم أن يتعرف بـ(داليا).. كانت الأخيرة ما زالت تراجع الخطة حتى دخلت المكتبـة بجانبـها (عفاف) وجلسا في نفس المكان الذي تعودت أن تجلس فيـه، هنا فوجئت بـ(حاتم) يدير رأسه وينظر لها بدهشة.. فـاحمر وجهها، وارتبكت (عفاف) مع هذا التغير المفاجئ الذي أربك الخطة.

نهض (حاتم) واقترب حتى جلس أمامهما، وهو ينظـر إلى (داليا) ويقول: "آنسة (داليا).. أعتقد أنك في دفعتنا.. مـش كده برضه؟ تحبِّي أشرحلك أي حاجة في المنهج؟".. فتحـت (عفاف) فاها من الدهشة، ولكنها قالت بطريقة متلعثمة: "أنا راحه للحمام.. أقصد للتليفون.. أ.. راحة الحمام علشان أعمل تليفون".. قالت العبارة السابقة ونهضت تجري، وعين (داليـا) تنظر لها متوسلة وكأنها تريد أن تجري مثلها، في حـين قـال (حاتم) بابتسامة: "قبل ما أشرح أي حاجة، ممكن أطب منـك إنك تقومي دلوقت وتقعدي على نفس الكرسي اللي كنت أنا قاعد عليه". ابتلعت ريقها و لم تفهم، ولكنها نظرت حولها فلم تجد أي طلاب قريبين، والمشرفة على هذا القـسم في المكتبـة

مشغولة بأوراق تطالعها، فنظرت له؛ فطمئنها بابتسامة وهـو يشير لها للمقعد.

قامت بالفعل واتجهت بخطوات متعثرة حتى جلست علـى المقعد، ورفعت رأسها أمامها فوجدت انعكاس (حاتم) في المرآة ينظر لها مبتسمًا..

يا للهول!! لم يكن (حاتم) يستغرق في الشرود عندما كان ينظر أمامه، لقد كان ينظر لتلك الواجهة الزجاجية التي تعكس صورتها، لقد كان يراها وهي تنظر له، شعرت بدماء الخجـل تصعد لرأسها حتى كادت تفجره، لقد كان يرى نظراتهـا لـه طوال هذا الشهر.. لقد كان يرى عينيها المثبتة عليه.. لقد كان يفهم، فوجئت به يجلس بجانبها وهو يبتسم لها ويقول بخجل:

"كنت بأبُص عليكي طول الأيام اللي فاتـت، وبعـديها دوَّرت وراكي لغاية ما عرفت عنك كل حاجة، وكنت عـايز أقولك إني معجب بيكي بعد كام يوم، لكن ما قدرتش أشوفك النهاردة بالشكل ده في المراية وما أجيش أكلمك".

مرت عشر دقائق وهو يتحدث وهي صامتة ويدها ترتعش، ولكنها تكلمت في النهاية تطلب منه الاسـتئذان، ثم أخـذت تسير بسرعة حتى خرجت من المكتبة وهـي تـرتعش، حـتى اصطدمت بـ(عفاف) التي كانت تنتظـر خـارج المكتبـة؛

فأخذت تصيح مهللة كالمجانين حتى أخرستها (عفاف) وهـي تجرها لسكن الطالبات كي تشرح لها ما حدث.

مازالت (داليا) تجلس وهي تسرح في ذكرياتها، حتى إن الصداع اختفى وهي ما زالت تتذكر كل تلك الذكريات السعيدة، حتى فوجئت بصوت ما يأتي من الصالة، قطبت حاجبيها في دهشة ونهضت وهي تفتح باب الشرفة لتخرج للصالة وتنظر بعينيها محاولة اختراق الظلام.

الصالة طبيعية، ولكن الصوت ما زال مستمراً؟ ما هذا الصوت؟ إنه صوت خفيض يشبه الأنين!! هل أذنها تخدعها؟ وقفت في وسط ظلام الصالة تنظر حولها وضوء خفيض من الداخل يأتيها من الشرفة.. لا شيء، لكن لحظة..

هل صوت الأنين يأتي من الصالة أم من غرفة نومها؟ ربما كان صوت أنين شقيقتها الصغيرة.

فتحت باب غرفة النوم وأضاءت الأنوار، وهنا تأكدت أن صوت الأنين يأتي من غرفة النوم بالفعل، فهنا الصوت أوضح.. نظرت لشقيقتها فوجدتها نائمة كما هي ويبدو أن الصوت لا يخرج منها..

فجأة نظرت على المنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب فراشها.. نظرت واتسعت عيناها في رعب.. شهقت ثم صرخت في فزع...

الفصل الثالث

٦ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة الثانية ظهراً..

إنها الثانية ظهرًا حيث العمـــل في ذروتـــه في المستـــشفى، والصحفيين ورجال الأمن ينتشرون بين أروقـــة المستـــشفى، الجثث التي استخرجت من الحادثة اثنان وأربعون جثة، وبدأت المشرحة في تسليم الجثث للأهالي منذ ساعة مـــضت، انتـــهى الأطباء من تشريح مجموعة ضخمة من الجثث منذ نقلها أمـــس ليلًا، ولكن قابل الأطباء مشكلة كبيرة، وجود ثلاثة عشر جثة مشوهة من بين اثنان وأربعون جثة هم كل الجثث التي خرجت من الحادث، والذي لم يظهر إلى الآن سبب فعلي له، ولكـــن داخل مكتب مدير المستشفى الدكتور/ فتحي غانم كان هناك حوار من نوع خاص:

- "يعني انت شايف إن يتم الإعلان عن عشر حالات وفاة بس؟"

كان قائل العبارة هو الدكتور/ فتحي نفسه، ولكن الرد جاء من وكيل الوزارة الذي كان يجلس أمامه على المقعـــد وهـــو يحتسي القهوة:

- "لا يا دكتور فتحي، أعتقد أن ١٥ جثة هاتكون رقـــم كويس بالنسبة لوسائل الإعلام وممكن يعدُّوها، لغاية دلوقـــت

كل وسائل الإعلام بتقول جملة واحدة (لم يتم تحديد حـالات الوفاة بالكامل)، لكن دلوقت أنا هابلغ الوزراة تخرج بيان بعدد المتوفين في الحادث إنه خمسة عشر حالة بس، لكن عليك إنت بقى تسلم الجثث للأهالي بسرعة علشان ما تحصلشي شوشرة، والصحفيين يقدروا يحصروا عدد الأهـالي، ويعرفـوا الفـرق الرهيب بين العدد اللي أعلنا عنه والعدد الحقيقي".

- "الأهالي استلموا بالفعل كام جثة من ساعة.. حـوالي ٨ جثث، وأنا هانبّه على الأطباء والعاملين إنهم يهتمـوا بسـرعة تسليم الجثث للأهالي وتخليص التصاريح اللازمة، ما تخـافش.. الموضوع مش هاياخد كتير حتى بالنسبة للجثـث اللـي مـا اتشرَّحتش".

ابتسم وكيل الوزارة وهو يخرج هاتفه المحمول ويطلب رقمًا ما ويكمل كلامه مع دكتور فتحي قائلًا:

- "أنا هأبلغ الوزارة دلوقت.. كل اللي عليك تعمله إنـك تخلي الموضوع ده يخلص الليلة وكأن مفيش حاجة حـصلت، ولا كأن الحادثة حصلت أساسًا، مش عايزين الموضوع ياخد اهتمام كبير الأيام الجاية في القنوات الفضائية والجرايد".

نهض الطبيب من وراء مكتبه وهو يقول بجدية:

- "مفيش مشكلة، أنا هاسيبك دلوقت تعمل اتـــصالاتك وأروح أنا أتابع الموقف علشان الجثث والجرحى كمان".

- "آه.. زي ما إنت قلت.. موضوع الجرحى مهم أوي.. علشان احنا هانسمح بالقنوات الفضائية كمان ســاعتين إنهـــا تصور الجرحى وهما بيتكلموا على المعاملـــة الكويـــسة اللـــي تلقوها.. وطبعًا ده هايكون والوزير بيتصور معاهم وهو بيطمّن عليهم".

ابتسم دكتور فتحي له محييًا وهو يغادر غرفة المكتب..

***

كانت (داليا) تجلس على الفراش منذ الصباح تنظر ســـاهمة أمامها، لم تذق النوم منذ ما حدث الليلة السابقة، كان ما رأته مرعبًا أكثر منه غريبًا..

بعد ما حدث جلست على فراشها وهـــي تقـــرأ القـــرآن وشقيقتها التي استيقظت من الصراخ تحتضنها وهي تربت على رأسها ووالدها ووالدها وشقيقها الـــصغير يقفـــون أمامهـــا يستفسرون عما حدث.

فلقد سمع الجميع صوت صراخها ليلًـــا، وأتـــى الجميـــع ليجدوها تقف داخل غرفة النوم تنظـــر للمنـــضدة الـــصغيرة الموضوعة بجانب الفراش وهي تلصق ظهرها بالدولاب وتفـــتح

فمها وجسدها يرتعش، اقتربت منها شقيقتها الصغرى وهـي تربت على كتفها وتحاول تحريكها لتجلس على الفراش، وهي ما زالت تنظر برعب للمنضدة الصغيرة حتى بعد أن جلسـت على الفراش، الجميع يستعيذون بالله وشقيقتها تهدئها وهي مـا زالت تفتح فمها وترتعش، عندما مرت دقيقة بـدأت تـتكلم بصوت متحشرج وهي تقرأ آيات متقطعة من القرآن الكـريم وتغلق عينيها والدموع تخرج منها، ظل الحال هكذا مدة حـتى هدأت وأغمضت عينيها وتراخى جسدها وتأكد الجميع أنهـا نامت، فخرجوا من الغرفة مندهشين مما حدث، وقد قرر الوالد ألا يضغط على أعصابها أكثر من ذلك ويسألها عمـا رأت في الصباح وخاصة بعد أن نامت.

بالفعل تركها الجميع مع شقيقتها والجميع يوصـيها بهـا.. مرت دقائق وشقيقتها تربت على شعرها حتى تأكـدت مـن نومها فانتقلت هي إلى فراشها.

ولكنها بمجرد انتقالها إلى الفراش فتحت (داليا) عينيها مـرة أخرى وهي تتذكر ما حدث منذ قليل، مر الليل وهي تنظر في الفراغ المظلم لغرفة النوم، حتى جاء الصباح وذهـب والـدها ووالدتها لعملهما، وشقيقتها هي من قامت بتحـضير طعـام الإفطار لها ولشقيقهما الصغير متجنبة أي حديث عما حـدث أمس.

تناولت (داليا) إفطارها وهي شاردة الذهن، وأخذ شقيقها ذو السنوات السبع يلعب، وذهبت شقيقتها للسوق، وظلت هي جالسة كما هي تنظر للفراغ وتتذكر ما حدث، لحظة سماعها الأنين، لحظة دخولها الغرفة، لحظة توجيه نظراتها ناحية المنضدة التي بجانب الفراش.. على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتدي فستان زفاف، العروس ينزل سائل من عينيها يشبه الدماء!!

ينزل ليغطي فستانها الأبيض، ثم يكمل نزوله بغزارة حتى تنزل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهي تشهق والقطرات تتجمع على الأرض لتكوّن رسمة مهزوزة المعالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. يا للهول!! إنها هي تلك الرسمة، إنها هي..

لم تصدق نفسها.. فتحت فمها تحاول الصراخ بصعوبة، ولكنها لا تستطيع الصراخ، حاولت الصراخ مرة أخرى، ولكن هذه المرة نجحت، انطلقت صرختها بفزع لتوقظ الجميع وتفزع شقيقتها من فراشها، التي نهضت لتفتح الأضواء لتجد أن العروس موضوعه في مكانها ولا وجود للدماء!!

يجب أن تهدأ.. يجب أن تهدأ.. لقد كانت تتخيل.. نعم.. بالتأكيد لقد كانت تتخيل.. اقتربت شقيقتها منها تحيطها

بذراعها وهي قمدئها، وباب الغرفة يفتح ويدخل منه والـداها، والجميع يستفسر بتعجب عما يحدث، وهي ما زالـت تنظـر للعروس التي ظلت تقف مبتسمة في مكانها وكأنها تتحداها.

سمعت صوت شقيقها يقول بصوت طفولي فرح:

- "(دعاء) جت.. (دعاء) جت".

انتبهت (داليا) لوصول (دعاء) شـقيقتها؛ فنهـضت مـن الفراش وهي تفتح باب الغرفة لتساعدها في إعداد الطعام، فقد شعرت بالذنب لتركها وحيدة هكذا بلا كلام، ولكنها عندما نهضت توقفت لحظة وهي ما زالت تتذكر ذلك الشكل الـذي رسمته الدماء.

قلب وسهمان متقاطعان على شكل حرف (X) اللاتـيني، وقفت قليلًا ثم نزلت تجلس على ركبتيها وهي ترفـع مـلاءة الفراش عاليًا لتخرج ذلك الصندوق القديم من تحت الفـراش، وتقلب في الكتب والأوراق التي تراكمت به من أيام دراسـتها في الكلية، أخرجت كشكولًا وفتحت أول صفحة وهي تنظـر لذلك الشكل المرسوم على جوانب الصفحات..

هذا الشكل الذي كان (حاتم) يرسمه لها دائمًا منذ تعرفـت عليه، لقد كانا يملآن كتبهما وأوراقهما بهذا الشكل.. إنه قلب

ويقطعه سهمان وأول حرف مــن اسميهمــا علــى مقدمــة الأسهم!!!

وهي تتذكر شيئًا مشابهًا قرأته، لا يمكن أن يكون صحيحًا بالتأكيد هذا خيالها الذي صور لها هذا...

***

وضــعت ســماعة الهــاتف الموضــوع بجــوار الفــراش، واستندت برأسها على الوسادة وهي تغمض عينيها، كلمات شقيقها على الهاتف تؤكد لها أن.. توقف عقلها عن التفكير في محتوى المكالمة السابقة وهي تسمع صوت قطرات تصطدم بالأرض كأنها قطرات الماء، فتحت عينيها وهي تنظر عن يمينها لترى الموضع الذي يأتي منه الصوت، عن يمينها الكومود الموضوع عليه دميتها التي ترتدي فستان الفرح، قطّب حاجبيها في دهشة تحولت لرعب بعد لحظات، الدماء تغرف فستان الدمية وتنزل على طرف الكومود ثم تتسرب لخارجه لتنزل قطرات الدماء على الأرض، وتتجمع على الأرض كلمة كتبت بالدماء المتجمعة.. (بحبك)، الكلمة التي تعود (حازم) أن يكتبها لها على ورقة ويعلقها على

باب الغرفة عندما يتخاصمان، ذلك الموقف يذكرها بموقف آخر، لكن لا يمكن!!

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الرابع

٦ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة العاشرة

- "بلاش غباء، قلتلك هاتخرج دلوقت بالعربية ومعاك تلات جثث ما تكتَّرش في الكلام وتقعد تقدم أعذار"..

قال الطبيب العبارة بلهجة آمرة وهو يكلم (سيد محـــروس) أحد السائقين بالمستشفى، والذي ما انفك أن تذمر وهو يقول بغِل:

- "يا دكتور أنا ما أعرفش المدافن دي، وكمان ما دَفَنْتش حد قبل كده في مقبرة.. أنا مال أمي وما للحاجات دي؟"

رد عليه الطبيب وهو يراجع ورقتين معه جيدًا ويقول:

- "(محمد الناجي) هايكون معاك، وهو عارف عنوان مقابر الصدقة كويس، وهو اللي هايتصرف مع التربي، كـــل اللـــي عليك إنك توصله وتساعده في دفن الجثث"..

- "دفن الجثث!!"

- "على فكرة لازم تخلّي بالك وانت بتدفن.. علشان فيـــه جثة متقطعة.. فخلّي بالك وانت بتنقل الكفن، وجثة من غـــير دراع، وجثة تانية نصها اللي فوق مفصول عن النص اللي تحت وإيدها الشمال متفرتكة.. خلي بالك يا (سيد) وانت بتنقـــل الجثث علشان مفيش حاجة تقع"..

اقشعر بدن (سيد) وهو يتخيل ما يقوله الطبيب بقرف، في حين أعطاه الطبيب الورقتين ليضع إمضاءه عليهما.

انتظر الطبيب حتى شاهد (سيد) يخرج من باب الغرفة، ثم رفع سماعة الهاتف ليطلب رقمًا، وينتظر حتى سمع محدثه على الجانب الآخر فقال:

- "أنا سلمت آخر تلات جثث لـ(سيد)، ووزعت الجثث على مقابر الصدقة زي ما قلت يا دكتور فتحي، آه عملت كده.. موضوع التصاريح ده أنا اتصرفت فيه.. وفيه كام تربي إحنا هانظبط معاهم ماتخافش، أول سواق هايروح البحيرة في المدافن هناك بتاعت عم بدر التربي، والسواق التاني طلع المنوفية من ساعتين عند (بدوي)، والتالت هايمشي دلوقت.. آه طبعًا.. الدكاترة كلهم مضوا على تشريحهم للجثث الأخيرة ومحدش هايقدر يتكلم.. وكمان مفيش وقت قدامنا لتشريحهم كلهم.. ثم ما هو كفاية إن الدكتور (عادل) بص بصَّة على كل جثة علشان يتأكد إن التشوهات تمنع حقيقي من التعرف عليهم، تحت أمرك يا دكتور.. تأمرني بحاجة تاني؟"

((الهاتف المطلوب ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة نرجو المحاولة في وقت لاحق))..

قذفت (داليا) هاتفها على الفراش وهي تنفخ بعصبية وتسير جيئة وذهابًا في غرفتها، هاتف (حاتم) مغلق منذ الصباح؟

وتلك ليست عادته، صحيح أهما اتفقا على أن يتحدثا كل ليلة بعد الساعة الثانية عشر، ولكنها لا تطيق الانتظار حتى منتصف الليل، وخصوصًا بعد ما حدث الليلة السابقة، وما لا تطيقه هو أنه طلب منها الليلة السابقة أن لا تحدثه تليفونيًا فهو سيسافر لمكان مهم، وبعدها ستجد هي مفاجأة سارة!! أين هي المفاجأة يا (حاتم)؟ هل المفاجأة أن تغلق هاتفك هكذا، أم أن المفاجأة لم تكتمل ولهذا لم يفتح هاتفه؟ (حاتم).. أنا ضائعة بدونك.. لم تستطع التحمل أكثر من هذا وبكت، ولكنها فوجئت بمن يطرق باب الغرفة ثم يفتحه، حاولت مسح دموعها بسرعة وشقيقتها تدخل وهي تنظر لها بحرج، ولكنها اخبرتها بأن تدخل، دخلت (دعاء) وقد احمر وجهها بخجل وهي تجلس على الفراش المقابل لداليا وتقول لها:

- "ممكن أسأل ما لك؟ بابا وماما قالولي ما أكلمكيش في اللي حصل امبارح.. لكن أخش عليكي دلوقت ألاقيكي بتعيطي كده يبقى فيه حاجة بجد، إيه اللي حصل؟"

ابتسمت (داليا) قليلًا وهي تنظر لشقيقتها وقالت:

- "متوترة شوية يا حبيبتي".

- "علشان العريس الجديد اللي متقدملك؟"

توترت (داليا) بحق وهي ترد بالنفي، ولكن (دعاء) قالت:

- "إنتي لسه مرتبطة بزميلك في الجامعة اللــي حكــيتي لي عنه؟"

أخذت (داليا) نفسًا طويلًا، ثم أشــارت بإيمــاءة الموافقــة برأسها؛ فابتسمت (دعاء) وهي تعتدل في جلــستها وتقــول بفرحة:

- "طب ما تكمِّليلي حكايته وعملتي إيه معــاه بعــد مــا اتعرفتي عليه؟"

ابتلعت (داليا) ريقها وابتسمت ابتسامة واسعة وقد نسيت الحزن، ثم أراحت جسدها بالكامل على الفراش وهي تقــول ناظرة للسقف:

- "أنا هاكمِّلك بس ما تقاطعنيش لو سمحتي"..

- "هاحاول بس ما اوعدكيش".

((بعد أن أخذتها (عفاف) لسكن الطالبات و(داليا) تضحك لها بــ(هبل)، وهي تقول كلمات غير مفهومة جلس الاثنــان داخل غرفتهما، و(داليا) تقول نفس الكلمات غــير المفهومــة بفرح، ولكن عفاف وقفت فجأة وتكشر وجهها وهي تقــول بغضب:

- "اكتشفت خيانة"..

فتحت (داليا) فمها مندهشة ولكن (عفاف) أكملت قائلة:

- "(سلمى) اللي كانت هاتتعرف على أصحابه وزمايله علشان تبقى خطة بديلة لو فشلنا النهاردة".

- "اتجوزت عرفي؟"

- "لا"..

- "اتجوزت شرعي؟"

- "لا"..

- "بلِّغت البوليس؟"

لم تستطع (عفاف) الحفاظ على تكشيرها وابتسمت وهي تقول:

- "لما سيبتكم جوًا المكتبة وخرجت برًا قابلتني هي واعترفت لي إنها أعجبت بصاحب (حاتم) اللي جاي معاه من المنصورة، وإنها حكت ليه عن الخطة، وهو قالها إن صاحبه كمان معجب بالبنت دي من زمان.. علشان كده خطتنا النهاردة فشلت".

ابتسمت لها (داليا) بدون أن تتكلم.. يمكننا أن نقول إن الإعجاب تطور من الجانبين وأصبح حبًا، يكفيك أن تعرف أن بعد بضعة أيام كان الاثنان يحضران جميع المحاضرات وهما يجلسان بجانب بعضهما.. يذهبان للمكتبة معًا.. يجلسان عند تلك الدرجات الخالية بجانب مدرجات كلية العلوم، هل تعلم

ماذا يحدث عندما تضع عقلًا مشتعلًا على عقل أكثر اشـــتعالًا، لقد اتحد العقلان كي يبهرا طلاب الدفعة جمـــيعهم، فأصـــبح الجميع يتحدث عن (حاتم) و(داليا) اللذان يتفوقان على الجميع في جميع المواد بلا استثناء، يجدان الوقت لفعل كل شيء، مـــن مذاكرة واطلاع على المراجع وتحدث ورومانسية.. والجميل أنه قد ظهرت لهما موهبة مبكرة متشابهة إلى حد ما، (حاتم) كان يخفي عنها أنه يكتب الروايات في أوقات فراغه، وهي صارحته بأنها تكتب الشعر، حتى في موهبتهما كانا مميزان، لقد كانـــت أشعار (داليا) تبهر كل من يسمعها، وروايات (حاتم) القليلـــة تفزع كل من يقرأها، بعدما أصبحا في الفرقة الثانيـــة (الـــسنة الثانية) في الكلية، وقد حصل الاثنان على تقدير جيـــد جـــدًّا، كانا يجلسان يستمع كل منهما للآخـــر، ولكـــن الحقيقـــة أن (داليا) كانت تنبهر بكل ما يكتبه (حاتم)، يجلسان في بعـــض الأحيان في مقهى قريب من الجامعة في وقت فراغهما وهي تقرأ له آخر قصيدة كتبتها، وهو يستمع لها مبتـــسمًا وهائمًـــا في عينيها، ثم بعد أن تنتهي يعطيها هو بعض الأوراق التي غالبًا ما تكون جزء من رواية له كتبها حديثًا؛ حيث أنه كلما كتـــب قليلًا من الرواية يجعل (داليا) تقرأها كي تعطيه رأيها، أما هـــي فقد كانت دائمًا ما تفزع من رواياته، والفزع هنا كـــان مـــن غرابة ما يكتب، فهو يكتب روايات شديدة التعقيد والحبكـــة، ويغوص دائمًا في نفسية الأبطال ليخرج منها ما يدهش الجميع، حتى يرى من يقرأ نفسه أحد أبطال الرواية، ولكن جل ما كان

يدهشها هي نهاياته الغريبة الحزينة والتي لا يتوقعها أحد، كـــان يقول لها كثيرًا وهو ينظر لها بعد أن تفرغ من رواية ما له إنـــه يخفي داخل كل تفصيلة من الرواية معان مستترة لا ينتبه لهـــا معظم من يقرأ، فهو يضع رسالة خفية للقَـــارئ بـــين أسمـــاء الأبطال وتواريخ ميلادهم وحتى الجمل التي ينطقون بها، فهـــو يريد من كل رواية أن توصل معنى سريًّا للقارئ يستتر داخـــل نهايتها، كما كان يقول لها دائمًا إن القارئ لو توقع نهاية القصة بأي طريقة فستصبح قصته تكرارًا لقصص أخرى، ولذلك كان ينشئ أفكارًا درامية شديدة التعقيد وأفكارًا غريبة عنها كتلك الرواية التي ظلت تقرأ فيها أيامًا وأيامًـــا إلى أن اكتـــشفت أن (حاتم) قد صاغها بطريقة غريبة، فعندما تصل إلى نهاية الرواية تفاجأ أنك يجب أن تقرأها مرة أخرى من النهاية للبداية فـــصلًا فصلًا؛ أي إنك تقرأ قصة عادية من البداية للنهايـــة، ثم تجـــد النهاية غير موجودة، ويطلب منك (حاتم) - في روايته بالطبع - أن تعيد قراءتها فصلًا فصلًا من الخلف مرة أخـــرى لتفاجـــأ بقصة مرعبة تتكون مرة أخرى عكس القصة الأصـــلية، حـــتى تصل لبداية الرواية لتجد أنها نهاية الرواية المعكوسة بالفعـــل..
ظلت ليلتان تفكر في تلك الرواية الغريبة التي قرأتها له وهي غير مصدقة لغرابتها، كانت كل رواية له تحتوي على كـــم مـــن الغرابة لا يقل عن مثيلاتها، حاول أكثر من مـــرة أن يعـــرض رواياته على دار نشر تقبل بها، ولكن الإجابة كانت الـــرفض غالبًا، أو حجج غريبة، أو عرض بالتنازل عنها تلقاه من أحـــد

الدور مقابل بضعة آلاف من الجنيهات مقابل أن يتنازل عن خمسة من رواياته كي يتم نشرها باسم مؤلف آخر مشهور، كانت (داليا) تقابل كل إحباط يتعرض له بكلماتها الرقيقة وابتسامتها الجميلة وهي تنظر لوجهه الحزين، مرت السنة الثانية عليهما في الجامعة وقد حصل (حاتم) على تقدير امتياز وحصلت (داليا) على تقدير جيد جدًّا بفارق بسيط عن تقدير (حاتم).. كان أصعب وقت يمر عليهما هو وقت فراقهما في آخر امتحانات العام الدراسي.

حيث يذهب (حاتم) لأهله في المنصورة، وتذهب (داليا) إلى الإسكندرية، يظلان على اتصال كما تعودا كل ليلة بعد الساعة الثانية عشر على هواتفهما المحمولة.

أسرة (حاتم) متوسطة الحال، فوالده يعمل موظفًا حكوميًّا في الصباح وبعد الظهر يمتلك محل للأدوات الكهربية يدر عليه دخلًا لا بأس به، وكذلك زوجته التي تعمل في نفس المصلحة الحكومية التي يعمل هو بها، ولكنها في قسم آخر..

لم يرزقا بأطفال سوى (حاتم) الذي تعاهدا على رعايته حتى بعد زواجه، ولم يعترضا كثيرًا على سفره للقاهرة لكلية دار العلوم التي كان يحلم بها، وبالرغم من اقتراح الوالد على (حاتم) بأن يسافر ويعود للمنصورة كل يوم، أو تأجير شقة له بالقاهرة، لكن (حاتم) أصر على أن يقيم في المدينة الجامعية كي

يكون بجانب الكلية، ثم إن صديق دراسته (علاء) سيذهب معه للإقامة في المدينة الجامعية أيضًا.

نعود لإجازة آخر العام التي كان يقضيها (حاتم) في القراءة والكتابة.. والمتابعة مع طبيبه الخاص، ثم تنتهي الإجازة ويعود الحبيبان باشتياق للدراسة للسنة الثالثة بالكلية، وقد كانت ملامح اللهفة من كلا الجانبين عند توديع أسرهم غريبة، فكأن الواحد منهم لا يترك دياره للسفر بل كأنه يعود مرة أخرى لدياره.

نضج الحبيبان وبدأت المسئولية تتضح في السنة الثالثة، لقد بقي عام واحد على انتهاء الدراسة ويصبح من الواجب على (حاتم) التقدم رسميًّا لداليا، كانت المشكلة أن (داليا) لم تذكر له أبدًا مثل هذا الموضوع أو حتى تقوم بالتلميح به، ولكنه قد بدأ يدرك أن الوقت يمر ويجب عليه أن يخطط لمستقبلهما معًا.

يمكننا أن نقول إن العام الثالث مرَّ وقد أنضجت نار الحب قلبيهما وأشبعتهما احتراقًا، أصبح (حاتم) أكثر غيرة على (داليا)، وأصبحت هي أكثر غيرة منه بمراحل، فكانت تشتعل غضبًا عندما ترى تلك الفتاة الجميلة، أو تلك ممشوقة القوام، أو تلك الخمرية... وهن ينظرن له بإعجاب، أو يحدثنه عن مادة ما كي يشرحها لهن، كانت تعض على أصابعها عندما تشاهد تلك المواقف، ولكنه - وللحق - قد أثبت أدبًا في التعامل مع أي فتاة يعرفها.

لم تلحظ عليه أي عادة سيئة، ربما اندهشت بضع مرات من قوته على الإقناع، عندما كان يجلس أمامها في المقهى وجاء أحد الشباب ليجلس على أحد مقاعد منضدتهما بدون استئذان، كان يبدو عليه الحدة في الطباع، وخاصة عندما ابتسم بوحشية لحاتم وهو يحذره من أنه يراه يتحدث مع فتاة هي زميلتهما في الدفعة، وأنه يجب أن لا يتحدث معها مرة ثانية لأنها تخصه، وإلا سيضع حذاءه على رأس (حاتم) كما قال هو.. وجدت (داليا) (حاتم) يبتسم وهو يقول له إنه لا يعرفها أساسًا ولم يرها من قبل.

وجدت الشاب ينهض وهو يبتسم لحاتم ويصافحه معتذرًا، لأنه خلط بينه وبين شخص آخر، واعتذر له مرة ثانية ثم اعتذر لداليا وغادر المقهى.. قوة إقناع رهيبة.. في تلك السنة صقلت مهارات الكتابة لدى (حاتم)، وإن ظل بحثه الدائم بين دور النشر عن من يمكن أن يقبل المخاطرة، وينشر لشاب مثله لم يتجاوز العشرين بعد، حدثته كثيرًا عن مخاوفها من أن يفترقا، وحدثها هو أيضًا عن مخاوفه.. ولكن مخاوفه كانت غريبة بعض الشيء.. لقد كان يحدثها عن مخاوفه من المقبرة، عندما يموت.. عندما يبرد جسده وتتصلب أطرافه ويغطي أصدقاؤه وجهه، عندما يدخل لظلام القبر وحيدًا والكفن الأبيض يحيط بجسده، هل سيكون واعيًا لما يحدث؟ أي هول سيشعر في تلك اللحظات، كانت تستمع له وهي مندهشة مما يقول، ما تلك المخاوف الفظيعة التي يحملها حبيبها؟!!

الفصل الخامس

"صباح العسل يا أبو ليلى"..

قال (محمد) العبارة السابقة وهو يعطي سيجارة الحشيش لسيد فتناولها منه الأخير وهو يلتقط منها عدة أنفاس ويعيدها إليه، كان (محمد) الممرض يجلس بجانب (سيد) الذي يقود السيارة التي تنقل الجثث الثلاث لمقابر الصدقة.

تلك السيجارة هي الثانية لهما في تلك الليلة، وحسب كلمات (محمد) فإن تلك (الاصطباحة) هي بداية الليل فقط، فهناك (اصطباحة) أخرى مع حارس المقابر قد اتفق معه عليها عن طريق الهاتف.

ظل (سيد) يتبع إرشادات (محمد) - الذي تجاوز الثلاثين بقليل - حتى يصل إلى المقابر.. وبالفعل وصلوا قبل المقابر بشارع وتوقف (سيد) كما طلب منه (محمد)، ثم نزل هذا الأخير من السيارة واتجه إلى منطقة المقابر في وسط الظلام الدامس، حتى عاد بعد دقائق ليطلب من (سيد) مرافقته..

بعد مشاورات كثيرة اقتنع (سيد) بأن يترك الجثث في السيارة ويرافقه للداخل، بالرغم من خطورة تركه للجثث هكذا في السيارة، عندما دخل الرجلان وجدا على أول طريق

المقابر الذي يغلفه الظلام شاب في الثلاثين من العمر أو أكــبر قليلًا يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا قماشيًّا ومركوبــاً.. قــام (محمد) بتعريفه إلى (سيد) بسرعة بأنه (هادي) حارس المقابر..

كان صوته خافتًا بالرغم من عدم وجود أشخاص حــولهم لمئات الأمتار، إلا أن المكان قد أضفى رهبة عليهم جميعًا.

(هادي) يحمل مصباحًا صغيرًا استخدمه وهو يقودهم داخل شارع طويل.. وعلى الجانبين تراصت قباب صــغيرة، فنظــر (سيد) حوله يتأمل المكان على الضوء الخفيض للمصباح، ذلك الجزء من المقابر هو شارع طويل رئيــسي تتــراص شــوارع وحارات جانبية ضيقة على جانبيه، والأشجار المزروعة بكثافة شديدة داخل كل حارة جانبية لتغطي على قباب القبور تخفي أجزاء منها.

ظلوا يسيرون في ذلك الشارع طويلًا حتى مرت دقائق وقد تغير شكل الشارع وأصبحت القباب على اليسار فقط، وعلى اليمين مقابر تشبه المنازل مغلقة ببوابات خشبية أو حديديــة، ومعلق عليها لافتات من الرخام الأبيض منحوت عليها أسمــاء عائلات، وبجانب كل اسم تاريخ قديم لبناء المقبرة.

ظل الجميع يسيرون إلى أن خرجوا لشارع آخــر تحيطــه المقابر، ولكن هنا دخل (هادي) لشارع جانبي ليجدوا غرفــة صغيرة مضاءة الأنوار، دخلها (هادي) وتبعه البقيــة، غرفــة (هادي) صغيرة نسبيًّا، دهنت بالأبيض الذي يبدو أنه دهــان

جديد حتى أن تلك النافذة الصغيرة طالها الدهان، تلفاز صغير وضع فوقه جهاز ريسيفر متواضع، وهو يعرض الآن قناة أفلام أجنبية! بجانب التلفاز منضدة صغيرة عليها بعض الاشياء المتفرِّقة وأوراق وملابس ملفوفة وأكياس سوداء..

هناك حمام ملحق بالغرفة مغلق بباب خشبي ومقعدان، وغرفة جانبية ضيقة تظهر منها بعض الأطباق والملاعق وموقد صغير، جلس (سيد) على أحد المقاعد بينما جلس (محمد) على فراش صغير بطريقة تنم على تعوده على الجلوس كثيرًا في هذه الغرفة، قال (محمد) لهادي:

- "ياللا هات بقى المسائل علشان أنا هأموت وأدوق الحتة الجديدة".

دخل (هادي) للمطبخ وخرج ومعه "جوزة" وإناء فخاري وضع به بعض الفحم المتوهج! هل كان يقوم بتسخينه قبل مجيئهم؟ دخل مرة ثانية للمطبخ وأحضر بعض الأشياء و(سيد) ينظر لهما برهبة.

جلس (هادي) بعدها بجانب (محمد) على الفراش وهو يسحب أنفاسًا سريعة من الجوزة ويقول لمحمد:

- "كام حتة معاك؟"

سحب (محمد) نفسًا طويلًا، وهو يكتمه ثم أخرجه باستمتاع وهو يعطي الجوزة لسيد الذي تلقاها بحذر..

- "تلاتة يا سيدي".

- "والواحد بكام؟"

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما، و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة، حتى أخرج الأول مبلغًا من جيبه:

- "التلاتة بألف جنيه يا عمنا، أنا هاخد ٣٠٠ جنيه منهم، و(سيد) ياخد ٢٠٠، وانت حلال عليك الباقي يا سيدي".

- "طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع يعني؟ والعظم مكسَّر وألا إيه نظامه؟"

هنا تكلم (سيد) وقد تخطى حاجز الصمت بعد سماعه آخر عبارة:

- "إيه يا عم منك له، جثث إيه اللي تتباع وعظم إيه اللي بتسأل عليه، وكمان الفلوس اللي بتتوزع دي بتاعت مين وليه؟!!"

خرجت ضحكة سريعة من فم (محمد) وهو يأخذ الجوزة من أمام (سيد)، و(هادي) يقول بابتسامة ساخرة:

- "صاحبك ما يعرفش حاجة وللا إيه؟"

ناول (محمد) عصا الجوزة لهادي وهو يقول لسيد:

- "الفلوس دي يا أبو السِّيد أجرة التربي في دفن الجثث، ومن الآخر الجثث هاتندفن من غير تصريح، لكن معانا كده

حتة ورقة مالهاش لزمة متزورة على إنها تصريح هانطلعها لـــو حصل في الأمور أمور، (هادي) بيحب يساعد النـــاس اللـــي عايزة تدفن حد من غير مشاكل ومن غير وجع قلب للحكومة وتحقيق والكلام الفاضي ده".

- " الجثث دي مالهاش تصاريح ليه؟"

- "ما انت راجل طيب يا أبو سيد.. يا عم الحج الحادثـــة بتاعت القطر اللي ولع امبارح ده هو الاتوبيس .. دي جثثهـــا بقى".

- "مش فاهم حاجة!!"

فتح (محمد) فمه ليجيب، ولكن (هـــادي) أعطـــاه عـــصا "الجوزة" في فمه؛ فضحك الأول وهو يسحب نفسًا عميقًـــا، و(هادي) يرد على (سيد) قائلًا:

- "بص يا سيدي، الحادثة لما تحصل لو جثثها مش كـــتير أوي يعني ومليانة جثث مشوهة ومتبهدلة ومش عارفين يتعرفوا على أهلها، الحكومة ربنا يخليها لنا بتقول إن مثلًا عشرين واحد مات، والحقيقة تكون أربعين، يعملوا إيه في الجثث الباقية؟ يـــا إما يسلموها لأهاليها، أو لو مش عارفين يوصلوا لحد منـــهم يدفنوها في مقابر الصدقة من غير تصاريح، فيه كام جثة مـــن اللي أعلنوا عنها ممكن تكون مالهاش معالم؛ فيقوموا مطلّعـــين ليها تصاريح وتندفن برضه في مقابر الصدقة، فهمت يـــا أبـــو السِّيد؟"

- "يعني الجثث دي المستشفى هاتدفنها من غير مــا حــد يعرف عنها حاجة؟!"

- "الله ينوَّر عليك".

كان (محمد) في تلك المحادثة يلتقط أنفاس بطيئة طويلة مــن الجوزة، ثم أعطاها لسيد الذي تلقفها وهو يلتقط أنفاس منــها مفكرًا، و(محمد) يقول وهو يهرش في رأسه:

- "شوفت بقى إن الموضوع مفيهوش مــشاكل ازاي، دا كمان إنت بتاخد ثواب علشان هاتساعد على دفن الجثــث، يعني ثواب وفلوس يا راجل".

انتبه (سيد) فجأة ورفع رأسه كأنه تذكر شيء وقال بشك:

- "أنت قلت إنك هتبيع الجثث وعايز تتأكد من عضمها؟"

نفخ (هادي) متضايقًا وهو يتناول عصا الجوزة من (ســيد) قائلًا بنفاد صبر:

- "ما تشوفلك حل في صاحبك ده يا أبو حميد".

قال (محمد) بطريقة ناعمة:

- "بص يا (سيد)، الجثث دي بتبقى مليانة خير من كلــه، طلبة طب عايزين يتمرنوا في بيتوهم.. ناس بتعمل تجارب على أعضاء بشرية، جماعة كده يجولك ويقولوا لك محتاجين عــضم الجثث بعد ما تتحلل، ناس عايزة جماجم تطحنــها، وغيرهــم

وغيرهم.. كلهم بيدفعوا زي الفل، وصدقني دي كلها خدمات مش حرام، بالعكس انت بتعمل جمايل لناس وبتعمل خير كمان".

- "هو إيه اللي مش حرام ده يا (محمد)؟!! انت اتجننت؟!!"

- "يا جدع اهدا بس واسمع، هي الجثة هتْهم صاحبها في إيه بس؟ ما هي روحه بقت مع ربنا خلاص يا جدع، ثم كمان اسأل في الدين وهايقولك إن الروح هي اللي بتعيش في نعيم أو عذاب لما الإنسان يموت، يعني الجثة مابتبقاش ليها لزمة والأرض بتاكلها واحدة واحدة، إحنا بقى بنفيد طلبة طب ونخليهم يتعلموا عليها ويذاكروا، وكمان علشان البحث العلمي يا جدع، وكل مصلحة وليها ناسها".

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

- "انسى يا جدع وماتفكرش كتير في الحاجات دي، خَلّي العايش عايش والميت ميت، ومحدش بيشتكي لحد".

- "أيوه محدش بيشتكي لحد علشان معندهومش لسان يتكلموا".

قال (هادي) بسخرية:

- "ومين اللي قالك إنهم ما بيتكلموش، ساعات العفاريت بيطلعوا برضه يعملوا شويتين ويناموا تاني".

ضحك الاثنان وابتسم (سيد) وهو يقول لهادي مستفسرًا:

- "حقيقي موضوع العفاريت والأرواح ده؟"

قال (هادي) بدون أن يرفع عينيه من على الجوزة:

- "والله أنا ماشوفتش عيني عينك عفاريت، سمعت أصوات آه.. وحسيت أكتر من مرة إن حد جنبي أو معدي أو صـــوت خروشة.. لكن ماشوفتش عفريت قدامي، لكن الحكايات اللي سمعتها من أهلي كتير أوي ما تِتْعَدِّش".

- "هو انت أهلك كلهم شغالين..."

- "تُربيَّة.. أنا اعمامي كلهم شغالين في المدافن، وجـــدودنا من زمان برضه، من أيام أبو جدي".

شعر (سيد) بأن هناك شيء ما يدخل في مجال إبصاره مـــن على يمينه؛ أي من اتجاه باب الغرفة فنظر بعينيه ناحيـــة البـــاب ببطء كي يتأكد من أنه يتخيل، ولكنه فوجئ بعيون خـــضراء تنظر له بفزع!!! شهق (سيد) وهو يقف ويرجع للوراء فيتعثر ويسقط، وقام (محمد) مفزوعًا وهو ينظر عند الباب...

- "تحب تاكل حاجة يا (علي)؟"

قائل العبارة كان (هادي)، والذي لم يحرك عينيه من علـــى الجوزة وهو يقول تلك العبارة للشخص الواقف على البـــاب بنوع من اللامبالاة، ثم تبعها بأن مد يده إلى المنضدة الـــصغيرة

التي وضع عليها بعض الأشياء، وتناول كيسًا يحوي فتات خبز قديم ورماه باتجاه الشخص الواقف ليقع تحت قدميـــه، جلـــس الواقف على ركبتيه وهو يمسك الكيس ويفتحه ويأخـــذ منـــه لقيمات يضعها في فمه وهو يمضغها ناظرًا لمحمد و(سيد)، الذين تمالكا أعصابهما وهما يستفسران عن هذا الشخص.

في الحقيقة كان الشخص الواقف شابًّا في العشرينات مـــن عمره، قسمات وجهه تختفي تحت بعض الأتربـــة وإن كانـــت تميزها الوسامة وخاصة بعينيه الخضراء، شعره مغـــبرًا بالأتربـــة ومنكوش وإن كان طويلًا لحد زائد، جسده نحيل جدًّا، وهـــو نفسه ضئيل الجسد قصير ولكن ليس بدرجة كبيرة.

يرتدي قميصًا ممزقًا يظهر من تحته تي شيرت بلـــون أحمـــر متسخ، وسروالًا باليًا، وحافي القدمين، مظهره يوحي بالـــشفقة أكثر منه بالخوف، وقد نزل على ركبتيه وهو يأكل الخبز وينظر لهم في حين قال (محمد) بحذر:

- "مين الواد ده يا بني؟"

- "غريبة.. إنت أول مرة تشوف (علي)؟! ده معروف هنا أوي في التُّرَب".

- "يعني إنت شايفني كنت ساكن معاك هنا!!"

جلس (سيد) على كرسيِّه وقد هدأ قليلًا، وكذلك (محمد) عاد للجلوس على الفراش وهو يتناول عصا الجوزة ويـــستمع لهادي الذي قال موجهًا حديثه لعلي الذي ما زال يأكل:

- "امشي يا علي دلوقت وخد الأكل معاك".

أخذ (علي) الخبز وضمَّه إلى صدره وهو ينهض ثم يغـادر الغرفة بهدوء...

- "زمان لما كنت صغير كان فيه حكاية كده باسمعها عـن مقبرة هنا جوَّا لشيخ اسمه (صالح عبد الراضي أبـو العـنين)، اندفن هنا في قبر عيلتهم في ١٩١١، وده التاريخ اللي محفـور على القبر، المهم اللي حضر الكلام ده هو أبو جدي الله يرحمه، واللي وصَّى جدي الوصية اللي جدي وصى بيها أبويا وأبويـا وصَّاني"..

- "وصية إيه؟!"

- "ما نقرَّبش للقبر ده كل يوم تلات، حـتى لـو سمعنـا أصوات عنده أو شوفت نور أو صوت حد بيخبط".

قال (سيد) برهبة:

- "أصوات إيه دي؟"

- "والله الكلام كتير، جدي كان بيقول إن الـشيخ أبـو العنين كان من الصوفية، وكان راجل زاهد في الدنيا، وإن كل يوم تلات تحصل حلقة ذكر كبيرة بيعملها الشيخ أبو العنين في حضرة الجان، أو بيقولوا اللي بيموت بيفضل قرينـه عـايش، وكل الناس الكويسين اللي ماتوا بيتجمعوا في الليلة دي يذكروا

ربنا عند قبر الشيخ الطيب ده، وعشان كده استحالة حد فينـــا كان يقرب من الحوش اللي اندفن فيه الشيخ أبو العنين بالليل، وحتى جدي كان بيقول إن بعد ما اندفن الشيخ بحوالي ســـنتين مات واحد من عيلته.."

أخذ (هادي) أنفاسًا طويلة من الجوزة وهو يحرك الفحـــم بالماسك وهو يقول:

- "فتحنا القبر ودخلنا الراجل اللي كانوا بيقولوا إنه فتـــوة بياخد فلوس من الناس علشان يحميهم، وياما قتل ناس وبهـــدل ناس، المهم إن جدي بيقول إنه كان صغير ساعتها وهما بيدفنوا الراجل ده جنب الشيخ أبو العنين، وبعد ما اندفن بليلتين بقوا يسمعوا أصوات حد بيصرخ وكأنه بيـــصرخ مـــن الوجـــع، الصوت كان جاي من جوه الحوش بتاع عيلة أبـــو العـــنين.. فاتت كام ليلة على الحال ده لغاية ما حلم أبو جدي وأخواتـــه في نفس الليلة بالشيخ أبو العنين جايلهم في الحلـــم وبيزعـــق ويقول: "شيلوا النِّجس ده من جنبي".. الحلم اتكرر كام مرة، وبعديها لقوا رجالة عيلة أبو العنين جايين يطلبوا إنهم يـــشيلوا الجثة اللي دفنوها جديد من جنب الشيخ أبو العنين علشان هو زارهم في المنام كتير ووصاهم بكده.. المهم فتحوا القبر وشالوا الجثة ودخلوها جبانة تانية وعملوا حاجة غريبة أوي"..

كان الترقب قد وصل إلى قمته عند تلك النقطة من الحكاية الغريبة و(محمد) و(سيد) ينتظران مــن (هــادي) أن يكمــل، والذي أكمل قائلًا وهو يترك الجوزة وينظر لهما:

- "أبو جدي وأخواته شالوا الباب الحديد بتــاع الحــوش وبنوا مكانه سور من الطوب، وحطوا رخامة باسم الشيخ أبو العنين وعليها السنة اللي بيقولوا إنه مات فيها، وبكدة مفــيش حد قدر يخش حوش القبر من ساعتها ولا حد شاف القبر اللي جوه حتى لغاية دلوقت".

- "وموضوع الأصوات ده حقيقي ولّا افتكاسة؟"

- "والله أنا ماعرفش، بس أنا مقرَّبتِش ولا مرة من المكــان ده بالليل ولا سمعت صوت خالص، إلا في اليوم اللي شــوفت فيه الواد (علي)"..

- "(علي) مين؟!"

- "(علي الطيب).. الواد اللي كان واقف هنا دلوقت، أمال انت فاكرني بحكيلك على الحكاية دي ليه.. ما هــو علــشان أقولك مين (علي) ده"..

تنحنح (هادي) وهو يعطي الجوزة لسيد ويكمل:

- "كنت أنا مخلّص اعدادية كده أو قول كنــت دخلــت ثانوي مش فاكر أوي.. وكنت قاعد مع أبويا وأمي بنتعــشى

وكنا ليلة التلات، سمعنا صوت بيصرخ ويعيط ويتوجَّع بس كأنه جاي من عيل صغير، خرج أبويا جري وأنا جريت وراه واحنا بندور على المكان اللي الصوت خارج منه، الصوت يِعْلى واحنا نجري أكتر ناحيته، لغاية ما قرَّبنا من حوش الشيخ أبو العنين، هنا أبويا وقّفني وقال لي ما تتحركش من مكانك، وما رضيش يخلّيني أكمل معاه، ووصّاني أقرأ قرآن؛ لأن الدنيا كانت ضلمة أوي وسط الجبانات، ودخل هو في الحارات الباقية لغاية ما سمعته بيقرأ قرآن بصوت عالي، وبينادي على مين بيصرخ.. شوية ولقيته خارج وهو ماسك في إيده عيل صغير فاتح بقه وعينه وشكله كده ما يعدِّيش سبع أو تمن سنين بالكتير، أبويا كان ماسك الواد وهو بيحاول يكلمه والواد ساكت خالص وفاتح بقه، رجعنا تاني على الأودة بتاعتنا نحاول نعرف حكاية الواد ده؟ الواد كان لابس لبس نضيف وشكله ابن ناس، لكنه مابينطقش خالص وفضل ساكت كده طول الليل، أبويا قال إنه لما قرَّب من مقبرة الشيخ أبو العنين ملقاش حاجة والواد ده كان واقف ساكت وباصص للحيطة اللي قافلة الحوش، طبعًا أبويا قعد كام شهر يدور على أهل للواد ده محدش عرف يستدل على حاجة، سمِّناه (علي)، وبدأ هو يختفي ويغيب يومين ويرجع تاني لأودتنا، كان يقعد يلف في المقابر وينام فيها واحنا طبعًا مش كل يوم كنا هاندور عليه

في الجبَّانات، فاتعوِّدنا نسيبه يعيش حياته، والناس كمان اتعودوا يسيبوه بعد ماعرفوا بيه وبحكايته، وبقى كل واحد يعطف عليه باللي يقدر عليه، لا عمره اتكلم ولا عمره أذى حد، دايمًا في حاله لا يسأل على أكل ولا يسأل على نومة، ياكل أي حاجة يقدموها الناس ليه وينام في أي مكان النوم يكبس عليه فيه، علشان كده سمناه الطيب، عرفتوا بقى حكاية الواد ده إيه؟!"

امتلأ جو الغرفة بالأدخنة، وقد بدأ مفعول المخدرات باللعب في عقولهم، وبدأت الأجساد بالتراخي، فلم يتكلم أحد بعد انتهاء كلام (هادي)، وإنما ظلوا يدخنون لدقائق، قبل أن يقول (سيد) وقد تذكر شيئًا:

- "الجثث اللي في العربية دي إحنا نسيناها!!"

- "هاهاهاهاهاهاها.. تصدق أني نسيت إنكم جايين هنا علشان تدفنوا جثث، والله القعدة الحلوة ماتتعوضش بس برضه الشغل شغل".

قام (هادي) مترنحًا وهو يقول لهما والضحكة لم تزل على شفتيه:

- "ياللا بينا يا شباب علشان نخلص شغلنا"

***

الفصل السادس

((لم يكن هناك مفر من أن يتحدثا في موضـــوع الـــزواج، فالوقت قد ضاق وهما الآن في السنة الرابعة.. من بدأ الحديث هو (حاتم)، عندما قال لها إنه سيتقدم لخطبتـــها بعـــد انتـــهاء الدراسة، ظهر الخجل عليها ممزوج بالفرحة، ولكنه قـــال لهـــا بارتباك إنه يخشى أن يرفضه والدها لأنه لم ينته مـــن تكـــوين مستقبله بعد وما زال يحتاج لعمل يدر عليه دخلًا كبيرًا.

الواقع أن والد (حاتم) قد أعد عدته ليوم زواجه وقام بتوفير شقة خاصة له، وكذلك تعب كثيرًا حتى يوفر نقودًا تعينه على هذا اليوم، و(حاتم) كان يعلم هذا جيدًا، ولكنه يـــشعر مـــن داخله بأنه بذلك يضغط على عائلته أكثر من الـــلازم، فكـــان يريد عملًا يدر عليه الدخل السريع، ولكن (داليا) بادرته بطلب عجيب:

- "فاضل حوالي سنة على ما نخلّص جامعة صح؟"

رد (حاتم) عليها بتلقائية:

- "مظبوط".

- "وإنت عايز تتقدم لي بعد السنة دي؟"

- "طبعًا.. ولازم ساعتها أكون شغال في شغلانة كويسة".

- "إيه رأيك تشتغل كاتب؟"

قهقه (حاتم) ضاحكًا فأكملت (داليا) بجدية:

- "إنت بتحب التأليف من زمان يا (حاتم)، دايمًا تقـولي إنك نفسك تشتغل مؤلف.."

- "مفيش مؤلف بيكسب فلوس من التـأليف إلا مـؤلفين قليلين أوي، وكمان مش هادخل على أبوكي وأقوله أني شغال مؤلف".

- "لا ممكن، وأنا هأقولك على الحل"

- "الحل؟!!"

- "قدامك سنة من دلوقت يا (حاتم)، وفي السنة دي مش هسألك على أي حاجة تبع شغلك، لكن هايبقى قدامك فرصة واحدة بس إن بعد السنة دي تنجح في القـصص والروايـات وتكسب فلوس منها كمان، ولو عدّت السنة دي من غير مـا تنجح في المجال ده.. يبقى.."

نظر لها (حاتم) بدهشة وقد توقفت ضحكاته ونظر لها بجدية مماثلة للتي تنظر بها له، مرت فترة صمت وقال هو بعدها:

- "إنتي بتتكلمي بجد؟ إنتي عارفة إن مفيش دار نشر بتقبل تنشر لي حاجة، ودايمًا عايزين يأما الحاجات الخفيفـة أوي أو الهايفة أوي أو المثيرة أوي".

- "أكيد فيه حل، وكتاباتك هاتفرض نفسها على الناس..."

- "إيه كلام الأفلام ده؟ كتابات إيه اللي هاتفرض نفسها دي؟ هو أنا اتنشر لي حاجة أساسًا، وكمان مين ده اللي هاينشر لي حاجة وهايهتم بيها كدعاية وتوزيع، الكلام ده صعب".

- "(حاتم).. الفرصة قدّامك.. يا إمّا تكون واثق في موهبتك وواثق إنك هاتوصل، يا إما ماتحاولش تكتب تاني وكفاية بقى رواياتك وقصصك اللي إنت عمال تحوشها دي من غير فايدة، سنة كاملة وبعديها هانكون قدام أمر واقع مش هانعرف نهرب منه، ممكن تقدر تكسب من كتاباتك وتنجح وتبقى مؤلف هايل... أو من دلوقت تدور على شغل تاني".

تغيرت نظرات (حاتم) لـ (داليا) لتصبح نظراته مليئة بالدهشة من طريقتها العنيفة والتي أول مرة تستخدمها معه في الحديث:

- "ما لك يا (داليا)؟ إنتي بتقولي كلام مش معقول، عايزاني أكسب فلوس من الكتابة إزاي في خلال سنة واحدة بس، وإنتي عارفة إني بَلِف على دور النشر من زمان ومحدش عايز ينشر لي صفحة واحدة بس، أنا كده ممكن أعمل حاجة

أحسن، أنا هاكتب قصص جنسية وأبيعها لنجرايد الصفرا وبكدة هاكسب الفلوس اللي إنتي عايزاها".

نظرت (داليا) للأرض والدموع تتكون في عينيها وتقول بصوت خفيض مهزوز:

- "أنا آسفة يا حبيبي.. أنا كنت فاكرة أني بكلامي اللي فات باستفزك علشان تنجح في المجال اللي إنت بتحبه، أنا مش متخيلاك بتشتغل حاجة تانية غير إنك تبقى مؤلف مشهور، أنا عمري ما هاتجوز غيرك، وهافضل مستنياك لو حتى قعدت ١٠٠ سنة علشان تنشر قصصك، إوعى تبيع دماغك لحد يا (حاتم)، إوعى تبهدل موهبتك، أنا هاستناك وعمري ما..."

قاطعها (حاتم) بجدية صارمة قائلًا:

- "استنّي يا (داليا).. المرة دي أنا اللي هاتفق معاكي فيه على اتفاق، أنا قدامي سنة بالظبط علشان أتقدملك رسمي لبيتكم، وفي السنة دي أنا هاثبت نفسي في الكتابة وهانشر قصة من تأليفي، وأوعدك لو السنة عدت وفشلت.. أنا هابطل كتابة وهاشتغل أي حاجة تانية".

كادت (داليا) أن تتكلم وترد على جملته، ولكنه بادرها بأن رفع يده ليسكتها، ثم استأذن منها لينصرف ونهض مغادرًا المكان بعد أن ترك الحساب على المنضدة)).

الفصل السابع

الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً

وقف الثلاثة أمام السيارة ينظرون لها، و(هـــادي) يتلفـــت حوله بين الحين والآخر بحذر، فتح (سيد) الباب الخلفي للسيارة بتردد، وبرغم تأثير الحشيش الذي عصف بعقله إلا أنـــه ظـــل يردد: (**أنتم السابقون ونحن اللاحقون**).. أكثر من مرة وكأنها عزيمة ستحميه من شر الأموات.

أما (محمد) فقد وقف خلفه ليساعده على إخراج الجثـــث، وكانت أول جثة ليست جثة بالمعنى المعـــروف، بـــل الكفـــن الأبيض مغلق تمامًا ولكنه أقل في الطول من طول إنسان، هنـــا قال (سيد) بصوت خافض ويد مرتعشة لمحمد وهو يـــسحب الكفن ناحيته ليخرجه من السيارة:

- "دي الجثة المتقطعة".

لم يبدُ على (محمد) التأثُّر، ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهم (هادي) بسرعة قبل أن تقـــع الجثة، عندما حمل (محمد) الجثة شعر باشمئزاز فجأة من ملمـــس الجسد المقطع وهو لا يعلم أي قطعة يلمسها الآن من خـــارج الكفن، قال (هادي) لسيد وهو يحمل الجثة مع (محمد):

- "أنا و(محمد) هانروح نحط الجثة جنب المدفن، وإنت استنّى هنا جنب الجثث لغاية ما نرجع".

بالفعل قام الاثنان بنقل الجثة الأولى، وعادا لسيد الذي كان على وشك الموت خوفًا من وقفته بجانب الأكفان وحيدًا، العجيب برغم أنك تعلم أن الجثة لن تعود للحياة وأنها لن تؤذيك إلا أنك تظل خائفًا من النظر إلى الجثة..

وأضف إلى هذا علمك بأن تلك الجثث مشوهة ومقطعة، وأنها ماتت في حادثة مؤلمة، خيالك سينسج لك ألف شكل لتلك الجثث برغم أنك لم ترها بعد، وربما كان مظهرها الحقيقي أقل وطأة عليك من المظهر الذي رسمه خيالك، ولكنك في النهاية تكتشف أنها لن تتحرك ولن تؤذيك ولن تعود لها روحها إلا يوم الحشر.

قاما بنقل الجثة الثانية ثم الثالثة والتي ساعدهما في نقلها (سيد) بنفسه وهو ما زال يرتعش، حتى وصلوا إلى المقبرة التي وضعت الجثث بجانبها، توقف الجميع وهم يلتقطون أنفاسهم، وضوء المصباح الأبيض الصغير الذي وضعه (هادي) ينير لهم قليلًا، و(سيد) يتأمل المقبرة الفقيرة المفتوحة، والتي تظهر من الخارج الدرجات التي تقود إلى الأسفل..

إلى داخل المقبرة المظلمة.. الرائحة العطنة التي تجمع بين رائحة التراب ورائحة مقززة أخرى، الأجساد الثلاثة الملقاة

بجانب القبر، الليل حالك الظلمة الذي يفرد سطوته على تلك الجريمة، ورق الأشجار الذابل يغطـي الأرض وقـد اخـتلط بأغصان جافة صغيرة تتكسر تحت قدميك عند سيرك.

ثلاثة أجساد حية وثلاثة أجساد ميتة، ترى ماذا لو تبـدل الأمر ودخل الأحياء للمقبرة وظل الأموات في الخارج، تراجع (سيد) للوراء خطوة فجأة وهو يرى (هادي) يقـوم بـإخراج سكين صغيرة من ملابسه ويترل على ركبتيه وهـو يـستخدم السكين ليقطع الحبل الذي يربط الكفن لإحدى الجثث!!

فتح (سيد) فاه ولسانه لا يقوى على التحرك ليسألهم مـاذا يفعلون، وخاصة بعد أن جلس (محمد) أيضًا بجانب (هادي)، وساعده على فتح جزء من الكفن فظهـرت ملامـح الجثـة المشوهة بارزة، فدارى (سيد) عينيه بيديه وصـوت (هـادي) يتردد:

- "حتة حلوة، بس خسارة دراعه متفتفت ووشه بـايظ، وكمان جسمه مقطوع من الوسط".

كان (هادي) يقلّب في الجثة بنوع من اللامبالاة وهو يتفرس فيها جيدًا، و(محمد) يجلس بجانبه واضعًا يده على فتحتي أنفـه كي يمنع تلك الرائحة التي بدأت تخرج من الجثة من الوصـول إلى أنفه، أما (سيد) فهو يحاول أن يرى من بين أصابع يده التي يضعها على وجهه، قام بفتح كفن آخر لتظهر داخله أشـلاء للجثة، فحاول إغلاق الكفن وهو يقول:

- "الجتة دي مش هاعرف آخد منها حاجة أصلًا لا لحم ولا عضم، دي أنا هادفنها في حتة كده بأدفن فيها الجثث البايظة".

أما الكفن الثالث فقد وجد (هاني) به وجهًا مليئًا بالحروق، ودماء متجمدة تغطي الوجه والجسد، وذراع الجثة الأيسر مقطوع وموجود بداخل الكفن، بالإضافة إلى أن عينيه اليسرى تجمدت عليها مادة كأنها خرجت من العين نفسها، ظهرت معالم الفرحة على (هادي)..

- "الحمد لله، أخيرًا شوفت واحد سليم شوية، هو دراعه مفصول آه.. بس باقي الجثة سليمة ما عدا وشه بس، هايندفع فيه سعر مش اللي هو يعني بس أهو كويس"..

بالنسبة لسيد كان الوقوف كل تلك المدة مستحيلًا أمام تلك المناظر.. ولكنه لم يتخيل أن المخدرات قد أذهبت عقله تمامًا هو و(محمد) ليقفا أمام رجل ينتهك حرمة الموتى ويقوم بكل حنكة بتصنيف الجثث لبيعها أو للتخلص منها كأنه يتحدث عن سمك فاسد وسمك طازج يصلح للبيع، وربما بسبب المخدرات وافقه الاثنان على كلامه عندما قال:

- "بعد بكرة بالليل هايجيلي الناس اللي هايشيلوا الجثث، بس أنا هاديهم الجتة دي بس، بتاعت الواد اللي من غير دراع

ده وهاخَلّي الحتة بتاعت الواد اللي نصه اللي تحت مفصول في التربة لغاية ما تبقى عضم وأبيعها بالحتة، أما اللي متقطع ده أنا مش هادخله التربة أساسًا ده ما يسواش نكلة.. أنـــا هادفنـــه بمعرفتي".

لقد قرر (هادي) أن يدخل جثتان للقبر حتى يبيع الـــسليمة قليلًا لمن سيأتي بعد غد، وسيترك الجثة المشوهة المقسومة نصفين إلى أن تتحول لعظام ليبيعها.

- " هي إيد الجثة دي ما لها؟ "

هنا نظر الجميع للجثة بفضول، وقد كانت الجثة التي يـــشير لها (هادي) هي جثة الشاب ذي الذراع اليـــسرى المتهتكـــة والرأس المحطمة والمليئة بالحروق، ويده السليمة مـــش ونهايـــة قبضتها مغلقة، أما جسده فهو مفصول من الوســـط، ولكـــن عندما قرَّب (هادي) المصباح من قبضة الجثة وضح أن القبـــضة قد ذاب الجلد المحيط بها فكون شكلًا متكورًا غير واضح المعالم للقبضة.

- "الواد ده قافش على حاجة!! كف إيده جواه حاجـــة.. مش معقول يكون كف إيده كبير كده".

قالها وهو يقترب من الجثة ويمسك يدها، ولكن (ســـيد) لم يتمالك نفسه وهو يتخيل أن (هادي) سيقوم بـــ....

باستخدام السكين التي يحملها، مد (سيد) يده في محاولة غير جدِّيَّة لمنعه مما سيفعل، ولكن (هادي) بكل برود غرز السكين في قبضة الجثة وأخذ يقطع بصعوبة الأصابع الظاهرة، والسكين يصدر صوتًا كالحفيف وهو يدخل ويخرج في اللحم يمزقه بلا رحمة، هل كان تأثير المخدر لتلك الدرجة التي تمنع (محمد) و(سيد) من اتخاذ ردة فعل لانتهاك حرمة الجثة؟

أم إنهم كانوا يسيرون بمبدأ (ليس بعد الكفر من ذنب)، أي إنه لن يفرق معهما شيئًا بعد أن قبلا ببيع الجثث ومعاملتها كأنها بضاعة.. أو كأنها أسماك...

استمر (هادي) في قطع الأصابع وإزاحة اللحم، ليبتسم وهو يقول منتصرًا:

- "مش قولتلكم الواد ده قافش على حاجة"..

كانت علبة حمراء صغيرة من التي تستخدم في محلات الذهب لحفظ الخواتم طُبِّقت جوانبها، فتحها (هادي) وهو يتأمل الخاتمان اللذان وُضِعا داخل العلبة وقد كتبت عليهما حروف بارزة.

- "يا ابن المحظوظة، دبلة دهب ودبلة فضة.. كل دي دبلة دهب!! دا انت كنت غني يا روح أمك".

قال (هادي) العبارة السابقة وهو يتأمل النقش البارز من الخارج على الدبلتين وهو يقرأ الأسماء بصعوبة بحروف إنجليزية:

- " دا.. دل... دله.. دليلة.. إيه الأسماء الغريبة دي، مش مشكلة.. أهو ارتاح من الجواز خالص وهايخش الجنة كمان فوق البيعة".

أغلق العلبة بسرعة ووضعها في جيبه، و(محمد) و(سيد) ينظران له ببلاهة وكأنهما يشاهدان ضربًا من الخيال أمامهم، لقد فاق الأمر طاقة عقولهم على التحمل.

فهما مهما فعلا - وخاصة (محمد) - لم يشاركا في تشويه جثة أو استخدام سكينًا لانتهاكها بهذا الشكل، لقد فاق ما حدث قدرتهما على التحمل، وأصبح (هادي) هو القائد في ذلك الموقف، فكأنه فرض عليهما سطوته بما فعله بالجثة، وأصبحا الآن بسبب ما حدث - وبسبب تأثير المخدر - طوع أمره، ولم يجرؤ أحدهما أن يسأله عن العلبة التي احتفظ بها في جيبه.

- "ياللا بينا ندخل الجثث بسرعة علشان عندي زيارة من ناس حبايبي زيكم كده بعد شوية".

ظلَّت نظرات التيه على وجهي الاثنين، ولكن (هادي) بدأ يترل القبر وهو معطٍ ظهره له ويحمل بيده المصباح ويقول:

- "أبو حميد.. والنبي ابعتلي أول جثة.. بس حاسب وانت نازل على السلالم".

نظر (محمد) إلى (سيد) في الظلام الدامس الذي عم بسبب أخذ (هادي) المصباح وقد فاق من شروده وهو يقول:

- "ياللا بينا نترل أول جثة".

هز (سيد) رأسه بخوف علامة الموافقة ولكن عينيه حملت شرودًا عجيبًا، وكأنه لا يدري ما يفعل.

خطوات تكسر الأغصان وورق الأشجار الذابل تتصاعد بجانبهما!! توقف (سيد) وهو يرهف السمع ويقول:

- "(محمد) أنا سامع أصوات كأن حد جاي نحيتنا"..

توقف (محمد) هو الآخر ليرهف السمع، وبالفعل سمع مثله أصوات أغصان تتحطم؛ فنادى الاثنان على (هادي) الذي صعد بسرعة، وضوء المصباح يبدد الظلام وهو ينظر حولهم حتى وقعت عيناه على خيال شخص يقترب بحذر منهم فابتسم (هادي) قائلًا بسخرية وهو يعود للدخول للمقبرة بظهره:

- "ده الواد (علي الطيب).. تلاقيه جه لما شاف النور"...

بالفعل اقترب (علي) بمشيته البطيئة منهم وهو ينظر للجثث على الأرض.. اقترب منهم قليلًا ثم جلس متربعًا على الأرض قريبًا من الجثث وهو ينظر لها متأملًا إياها.

- "الواد ده مش هايفضحنا يا (هادي)؟"

قالها (محمد) بصوت خافض فجاءه صوت (هـــادي) مـــن داخل المقبرة وهو يقول بنفاد صبر:

- "ما تخافش.. ده يا ما شاف كتير، المهم ناولني أول جثة بقى".

بالفعل غَطَّى (محمد) أول كفن على قدر ما استطاع، وقـــد كان كفن الشاب الذي يحمل العلبة، ثم ســـحبه علـــى الأرض وساعده (سيد) بيد مهزوزة على رفعه عن الأرض قليلًا لـــيترل (محمد) بظهره الدرج لأسفل، ويلتقطه (هادي) من داخل فتحة القبر.

للصدق وللأمانة كانت عين (علي) غريبة، يمكنك وأنـــت تسير في الشارع أن تقابل متخلِّفًا عقليًا أو مجذوبًا أو مجنونًا أو مصابًا بالفصام أو جنون العظمة، يمكنك أن تميز العيون فتعرف أن هذا المجنون لا يدري ما يفعله بحق، وأن هذا المجنون مغيَّـــب الوعي، وأن هذا قد فقد منطقية التفكير..

عين (علي) كانت تتحرك بطريقة توحي لك بأنـــه يمتلـــك وعيًا ناضجًا، ويفهم ما يحدث، ويفهم الفـــرق بـــين المـــوت والحياة، وبين الصواب والخطأ.

كانت عيناه في تلك اللحظة مركَّزة على الجثة ذات الذراع الأيمن، برغم من أن الإضاءة تعتبر منعدمة إلا من ضوء بـــسيط يخرج من المصباح من داخل القبر، إلا أن (علي) قد تركـــزت عيناه على ذراع الجثة الأيمن.. الأصابع تحركت!!

صعد هنا (سيد) و(محمد) فنظر (علي) لهما وأشـــار بيــده بهدوء ناحية الجثة، فنظر الاثنان بعدم فهم له، ثم نظرا للجثـــة فوجدا الأصابع تتحرك حركة صغيرة غير واضحة ثم تخمـــد؟!! شهق (محمد)، وتراجع (سيد)، فصعد (هادي) بسرعة وهـــو يحمل المصباح وينظر لهما مستفسرًا، فقال (سيد) وقد انفلتـــت أعصابه:

- "الـــ.. الـــ.. الجثة حركت إيديها!! الجثـــة حركـــت إيديها!!"

وأخذ يبلع ريقه بعد تلك العبارة ويتنفس بسرعة شـــديدة، فنظر (هادي) لمحمد مستفسرًا فقال (محمد) وهو يشير للجثـــة برعب:

- "الجثة حركت صوابعها يا (هادي)".

اقترب (هادي) من الجثة ونظر لها متفحصًا ثم ركلها بقدمه عدة مرات، ونظر بعدها لهما قائلًا بعصبية:

- "أهو يا سيدي.. الجثة لا بتتحرك ولا حاجـــة، أكيـــد كانت الجثة بترتخي بعد ما بتتصلب الأول، عادي يا جماعـــة.. الكلام ده شوفناه كتير.. المهم ياللا بينا بسرعة"...

قالها وهو يعود للنزول مجددًا والباقين يتابعونه.. لكن عـــين (علي) ظلت على يد الجثة، ظلت متعلقة بها، ظلـــت مركّـــزة بشدة على أصابعها.. وبالفعل تحركت مرة أخرى؟!!

الفصل الثامن

سمعت (داليا) أصوات طرقات على باب الغرفة، فتوقفت عن تكملة بقية الحكاية مع شقيقتها، انفتح باب الغرفة فظهر خلفه شقيقهما الصغير ينظر لهما بحذر وخجل ويتجه ناحية (داليا)، ثم يصعد على الفراش ويجلس بين يديها ويقرب فمه من أذنها قائلًا لها:

- "إنتي زعلانة ليه يا (داليا)؟"

ضحكت (داليا) من حنان شقيقها، فاحتضنته وهي تقول له:

- "لا يا حبيبي أنا مش زعلانة خلاص.. كنت تعبانة شوية ودلوقت بقيت زي الحصان.. ولو مش مصدق تعالى أورِّيك".

أمسكته ورفعته للأعلى ثم أنزلته على الفراش وأخذت تداعبه وهو يضحك، حتى سمعت صوت شقيقتها (داليا) تقول:

- "أيوه.. خلّيكم كده علشان آخد صورة ليكي وإنتي شبة أمُّنا الغولة بشعرك المنكوش ده"...

نظرت لها سريعًا فوجدتها تمسك هاتفها المحمول وهي تلتقط لها صورة، فرفعت يديها أمام وجهها بمرح كي لا تظهر تفاصيل ملامحها، في حين التقطت (دعاء) أكثر من صورة

محاولة أن تقترب من وجهها بعناد ومرح طفولي، و(داليا) تحاول الهروب من كاميرا الهاتف المحمول.

هدأت (دعاء) وأخذت تقلب في الصور التي التقطتها، في حين جلست (داليا) وأكملت مداعبتها لشقيقها الأصغر.

- "(داليا).. عايزاكي هنا بسرعة تشوفي حاجة"!!

نطقتها (دعاء) بصوت جاد وهي ما زالت تنظر لهاتفها، فنظرت لها (داليا) متسائلة؛ فرددت (دعاء) نفس العبارة، مما جعل الأولى تنهض وتترل من على الفراش وتقترب منها.

أعطت (دعاء) الهاتف المحمول لها وقد عقدت حاجبيها من الدهشة وهي تعطيها الهاتف، مما جعل (داليا) تنظر بسرعة لشاشة الهاتف.. صورها هي وشقيقها على الفراش، ما هذا الذي ظهر على يسار الصورة؟ لون أسود شفاف!!

لون أسود شفاف له كتلة قريب من وجه (داليا).. باقي الصور تظهر بها نفس الكتلة السوداء الشفافة ولكن من لقطات مختلفة.. إحدى الصور كانت قريبة من رأس (داليا)، وبالتالي من الكتلة السوداء الشفافة.. الكتلة السوداء تتخذ شكلًا أقرب إلى الرأس!!

رفعت (داليا) عينيها لشقيقتها مندهشة!!

***

وضعت (دينا) السماعة وهي تريح رأسها على ظهر المقعد، هل سيقوم شقيقها الوحيد بإحضار المحامي كما طلبت؟ هو قال لها إنه كان يتحدث مع زوجها قبل موته بليلتين عن هذا الموضوع، وإنه كان يخبيء لها مفاجأة الميراث، فجأة انتبهت لصوت جرس هاتفها يأتي من غرفة النوم، نهضت من على المقعد واتجهت إلى غرفة النوم وهي تبحث عن الهاتف حتى وجدته على (التسريحة)، أمسكته وهي تتطلع إلى شاشته!! اسم المتصل هو (حبيبي)!! إنه الاسم الذي سجلت به رقم هاتف زوجها المتوفى!! أغمضت عينيها وفتحتهما.. الهاتف المحمول يرن.. ولكنها نزعت شريحة الاتصال من هاتف زوجها بعد دفنه أمس!! الهاتف ما زال يرن.. أمسكته بفزع وضغطت زر الرد.. ووضعت الهاتف على أذنها بتردد.. لا صوت... قالت: "ألو".. ولا مجيب، كانت تنظر في تلك اللحظة أمامها في المرآة والهاتف على أذنها.. ولكنها أسقطت الهاتف مما رأت.

وجه من الدخان يظهر لها في المرآة!! وجه بملامح واضحة مرسومة لرجل أفطس الأنف ولحيته كبيرة واضحة، ويبدو من رأسه أنه أصلع، اقتربت أكثر من المرآة وهي تتأمل ملامح الوجه.. وشفتيها تردد كلمة صوت ظلت ترددها إلى أن خرجت من فمها بصوت مسموع وهي تقول: "النصف ميت"...

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

انتهى (هادي) من إغلاق باب القبر بالقفل وحوله (سـيد) و(محمد) صامتين، وهم يريانه يمسك الكفن الثالث الذي تركه للنهاية.. يحمله بصعوبة ويفشل، ثم يعود لمحاولة حمله فيفـشل، فيقرر أن يجره خلفه، وبالفعل حمل المصباح بيده اليسرى وبيده اليمنى أخذ يجر الكفن الثالث وراءه، والذي يحمل الجثة المقطعة أشلاء.

الظلام يحيط بمكان القبر، و(علي) ما زال جالسًا، و(محمد) و(سيد) يسيران خلف (هادي) كي يلحقا بضوء مصباحه..

- "هو احنا هانسيب (علي) في الضلمة لوحده؟"

قالها (سيد) وهو ينظر خلفه للظلام محاولًا أن يرى (علـي) الجالس، فرد عليه (هادي) بلا مبالاة:

- "ما تخافش.. هوَّ متعوِّد على كده".

ظل الجميع يسير بلا صوت حتى مرت دقائق وخرجوا من منطقة المقابر وقد اقتربوا من السيارة... فتوقف (هادي) فجأة وهو ينظر إلى سيارة (hummer) سوداء ضخمة تقف، نظر للباقين وقال:

- "طب امشوا إنتوا دلوقت علشان الضيوف اللـي أنـا مستنيهم وصلوا ومش هاينفع أتأخر عليهم".

نظرا له باستغراب.. فلم يعطِهما الفرصة وعاد أدراجه وهو يجر الكفن خلفه ويقول قبل أن يبتعد:

- "اتصل بِيَّا بكرة يا (محمد) علشان نتفق على حبة حاجات.. ماشي؟"

قالها (هادي) وهو يبتعد هو والصباح، في حين أن (سيد) نظر إلى (محمد) وهو يقول له:

- "هو ما له بص على العربية الواقفة هناك دي وجري ليه؟ ومين الناس اللي هو مستنِّيهم؟"

- "هاقولك.. بس تهدى وما تسألش أسئلة"..

اقترب من أذن (سيد) وهو يقول له كلمات بصوت خافض، فاتسعت عينا (سيد) وانفتح فمه في رهبة وهو يشهق بصوت عال...

***

انتهى (هادي) من دفن الأشلاء في التراب، ثم أخذ ينفض يديه وأخذ الرفش معه، واتجه متجاوزًا الأشجار الكثيفة، وسار حتى وصل إلى غرفته الصغيرة، ولكنه بدلًا من أن يفتح باب الغرفة طرق عليها من الخارج وكأنه يستأذن في الدخول، فسمع من الداخل صوت جهوري يقول:

- "ادخل يا (هادي)"..

انفتح الباب فدخل (هادي) وهو ينظر إلى الرجل الجـــالس على أحد المقاعد يرتدي بزّة رمادية وربطة عنق أنيقة ونظـــارة طبية ذهبية الإطار ويفوح منه عطر راقٍ.. نظر (هادي) لمن فتح له الباب فوجده شابًّا ضخم الجثة، يرتدي بزة سوداء، وعلــى وجهه نظرة متصلّبة، وبجانبه شاب آخر يحمل نفس الـصفات يقف ناظرًا إليه بوجه جامد، أما بجانب الرجل الــذي يجلـــس فوقف شاب آخر قليل البنية عن الشابين الآخرين، لكن ملامحه تحمل شراسة تفوق شراسة ملامح الشابين..

- "(طاهر) باشا.. والله نوَّرتنا".

قالها (هادي) متلهّفًا، فابتسم الرجل الجالس بمـــودة وهـــو ينهض ويقترب من (هادي) الذي نظر للأرض في رعب مـــن هيبة الرجل.. اقترب وربت على كتفه بمودة وهو يقول:

- "اتصلت بيًّا النهاردة وبلّغتني إن فيه أمانة.. ها.. قـــولي سنّها كام؟"

ابتسم (هادي) وهو يبلع ريقه قائلًا:

- "لا يا باشا ما أقولّكش على الحــلاوة ولا الجمـــال ولا الشعر.. سنّها مش أكتر من ٢٥ سنة، حاجة تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك.. لا مرض ولا عيب فيها، ولــسة داخلــة الليلة الساعة ٨ ونص؛ يعني ساعة مـــا كلمـــت حـــضرتك بالظبط".

زادت ابتسامة الرجل وهو يعود مرة أخرى للجلوس على المقعد ويقول بصوته الجهوري القوي:

- "لو عجبتني هازودك ألف جنيه فوق ما احنا متفقين".

- "يا باشا خيرك سابق، أهم حاجة عندي إنك تنبسط وتتمتع".

- "إدِّيله الفلوس يا (أحمد)".

أخرج أحد الشباب الواقفين بجانب الباب من جيب بذلته مبلغًا وعدَّه جيدًا ليتأكد أنه ثلاثة آلاف جنيه، ثم أعطاها لهادي الذي أخذها بلهفة وهو يقول لطاهر:

- "طب يا باشا أنا رايح أجيب الأمانة وجاي على طول"..

كاد (هادي) أن يغادر.. إلا أن صوت (طاهر) ارتفع وهو يأمر الاثنين الواقفين عند الباب بالذهاب معه ومساعدته.

خرج (هادي) حاملًا مصباحه يتلفّت حوله وهو يسير وبجانبه الحارسان الشخصيان لطاهر الرجل الغريب الذي ينتظره في غرفته.. المصباح يبدد الظلام أمامهم والحارسان بدأت تظهر الرهبة عليهما من صفوف المقابر التي يسيرون بها، الحارسان ينظران حولهما وتحت أرجلهما وأصوات تحطم الأغصان الجافة

تتصاعد من موضع أقدامهما، ونسمة هواء بسيطة تحمل رائحة التراب تعبر من خلالهم.

توقف (هادي) عند إحدى البوابات الخشبية لحوش صغير وبجانب الباب وضعت لافتة رخامية عليها اسم عائلة ما لا يظهر في الظلام، أخرج (هادي) من جيبه سلسلة مفاتيح ضخمة، وأخذ يتفحص جيدًا على ضوء المصباح الذي يحمله المفاتيح وهو يجرب بعض المفاتيح على مزلاج الباب، حتى استطاع مفتاح من تلك السلسلة أن يدور داخل المزلاج ويسمع الجميع التكة التي تشير إلى انفتاح الباب.

تقدمهما (هادي) لداخل الحوش الصغير وتأخر الشابان وهما يقفان خارج الحوش وضوء مصباح (هادي) يخرج من داخل الحوش.. ظل الاثنان ينظران لبعضهما بقلق، فهذا الموقف يضطران لخوضه كل مدة أو يضطران لمشاهدته.. بالفعل الكوابيس تطاردهما يومًا أو اثنين أو حتى أسبوع، لكن في النهاية المبالغ الهائلة التي يحصلان عليها من العمل مع هذا الرجل المدعو (طاهر) تجعلهما يضطران إلى نسيان كل هذا، ينظران لبعضهما ولكن تلك المرة النظرة تختلف، نظرة تحمل الاشمئزاز والقبح والخجل مما يحدث، نظرة تحمل لمحة غريبة..

كأن كلًّا منهما يتمنى من الثاني أن يقول له هيا بنا نذهب من هنا، أو يجبره على الخروج من تلك المقابر والتخلي عن

الخدمة عند (طاهر) باشا والتخلي بالتالي عن المبالغ الضخمة التي تؤمن لهما مستقبلهما ومستقبل عائلتيهما، ترى لو علمت عائلتيهما بما يقومان بفعله الآن ماذا سيحدث؟ كيف سينظر الناس لهما؟

- " إيه يا رجالة!! إنتو خايفين ولّا إيه؟ ما تيجوا تساعدوني"..

انتفض الاثنان ونفشا صدريهما وهما يدخلان الحوش وينظران لمصدر الإضاءة، (هادي) يقف والتراب يغطي وجهه وملابسه ويده ولكنه يبتسم بسخرية!! وتحت قدميه الكفن الأبيض، جزء منه مفتوح يظهر منه رأس فتاة مغمضة العينان.. جميلة.. وهناك طرحة بيضاء ملقاة بجانب الرأس تدل على أن (هادي) خلعها عن رأس الفتاة الآن.

مرت لحظة والشابان ينظران لجثة الفتاة التي ترقد في وداعة وقد شعر أولهما بانقباض في قلبه بشبه الألم من مظهرها البريء الطاهر، أما الثاني فقد تعلقت عيناه بالطرحة البيضاء الملقاة بجانب رأسها وهو يتخيل تلك الطرحة عندما كانت تغطي رأسها قبل أن يظهر شعرها الناعم المعقوص بهذا الشكل عندما انتزعها (هادي).

أعاد (هادي) إغلاق الكفن بعد أن تأكد من وجه الفتاة، ولكن الكفن لم يغلق جيدًا بالطبع، ثم بدأ برفع جسدها برفق، فجرى الشابان ليساعداه في حملها وهو يقول بسخرية:..

- "بالرَّاحة يا جماعة على البنية، دي الأموات بتحس برضه وبتتوجع"...

***

أزاح (هادي) باب غرفته ببطء وبحذر كي لا تسقط الفتاة منه والشابان يساعدانه.

دخل (هادي) بجثة الفتاة ووضعها على الأرض بحرص، نظر (هادي) إلى (طاهر) الذي جلس على المقعد كما هو وفي يـده مشروب يشربه باستمتاع وقد فك ربطة عنقه وخلع سـترته واضعًا قدمًا على الأخرى.

فراش (هادي) نفسه فرش عليه غطاء ورديًّا نظيفًا يغطـي الفراش والمخدَّات... أما على المنضدة فوضعت زجـاجتين لم يميز (هادي) نوعهما، لكنه توقع أنه نوع غال من الخمور، هذا كله غير الرائحة العطرية التي انتشرت في الغرفة لتخفي رائحتها المكتومة الدائمة.

نهض (طاهر) وهو ينظر لجثة الفتاة والجميع يزيح له الطريق، وقف عندها يتأملها لدقيقة كاملة.

يكاد يقسم (هادي) أنه كان يسمع صوت ابتلاع (طاهر) لريقه أكثر من مرة وهو يتأمل ملامح الفتـاة.. فجـأة رفـع (طاهر) رأسه عن وجه الجثة ونظر إلى أحد حراسه وقال له:

- "إدِّيله ألف جنيه"..

ابتسم (هادي) وهو ينظر للشاب الذي أخرج من جيبه النقود وعد منها ألف جنيه وأعطاها لهادي..

- "تؤمرني بحاجة تاني يا باشا؟"

هز (طاهر) رأسه نافيًا فتراجع بظهره وهو يقول:

- "بعد ما تخلَّص أنا جنبك هنا.. ابعت لي أي حد من رجالتك وأنا أجيلك على طول"...

فتح (هادي) الباب وخرج والثلاثة رجال يتبعونه للخارج، وآخرهم يغلق باب الغرفة ويقف الثلاثة قريبين من الغرفة على مسافة مناسبة.

خلف الغرفة من الظلام المحيط بالمقابر تقدم (علي الطيب) يسير بخطى متأنية هادئة وعينيه حملت تعبير الخواء وهو ينظر إلى النافذة المطلة على غرفة (هادي).

تلك النافذة التي تطل على المقابر، أخذ يقترب منها والظلام يحيط به، الظلام الذي لا يخشاه، ولِمَ يخشاه؟ الظلام لا يعني له سوى الهدوء والسكينة والراحة، ربما ضايقه قليلًا ما يراه عندما يحل الظلام، ولكنه تعود عليه، حتى الآن عندما يقترب من الغرفة في وسط الظلام، هو يتوقع ما سيراه، اقترب من النافذة أكثر حتى أصبح يرى تفاصيل الغرفة، إنه هو!!

نفس الرجل الذي يدعوه الجميع بطاهر باشا يقف في الغرفة وحيدًا يفك أزرار قميصه، يخلعه حتى يظهر جسده العاري يجلس على ركبتيه ويحمل.. يحمل الفتاة!! إذن فالدور اليوم على تلك الفتاة، فتيات و فتيات ونساء ونساء وطاهر باشا وغيره وغيره، ولكن تلك الفتاة جميلة بحق.

ابتسم (علي) وهو يتخيل تلك الفتاة وهي تفتح عينيها مثلًا وتنظر له بعطف وتضمه إلى صدرها، عندما كان صغيرًا كان الأطفال الآخرون لهم دائمًا من يضمهم إلى صدره وينامون بين يديه، أما هو فينام على التراب كل ليلة ويحلم بأحدهم يضمه إلى صدره، لم يعرف هذا الشعور من قبل، الجميع يشمئز منه وهو يعلم هذا، وهو يشمئز من الجميع ولكنهم لا يعلمون هذا، ولكنه لم يفهم شعور (طاهر) باشا هذا وهو يحمل الفتاة على يديه ويضعها على الفراش.

كيف يفعل هذا والفتاة ميتة؟ كيف يمزق رداءها الأبيض الناصع ليظهر جسدها من تحته، لماذا يتأمله بهذا الشكل، المسكينة لن تقوم بأي رد فعل.. يده تتحسسها وهو يقبلها على شفتيها، لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يعطيه (هادي) جسدها؟ هل هو ملك لهادي؟ هو يعرف أن الفتاة لا ترضى عن هذا، يشعر بذلك داخله مثلما شعر بأجساد كثيرة.

الفتاة تصرخ من داخلها.. تبكي.. تتعذب.. عظامها تئن، و(طاهر) باشا يهتك شرف جسدها.

يطلق المغتصب أصوات استمتاعه من حنجرته وجسده ينتفض والفتاة ما زالت تئن من داخلها.. يكاد يسمع توسلاتها، يكاد يشعر بأنفاسها الساخنة وهي تشهق من الألم، يكاد يسمع صرختها..

يكاد يراها وهي تدعو.. تدعو ربها أن ينتقم لها من (هادي) و(طاهر)، هل يا ترى تدعو عليه؟ لا يسمعها تدعو عليه بعد، ولكنه ينظر الآن لما يحدث ولا يفعل شيئًا.. هنا وضعت يد قوية على كتفه فنظر خلفه بسرعة.

(هادي) يقف مبتسمًا له بسخرية وهو يقول بصوت خافض...

- "بتتفرج على إيه يا (علي)؟!"

لم يجبه وهو ينظر إليه؛ فأمسك (هادي) بيده برفق وسار وهو يجره معه حتى ابتعدا قليلًا عن غرفة هذا الأخير، وجلس (هادي) على الأرض مستندًا إلى جدار أحد الأحواش وهو يجلس (علي) معه.

مرت دقائق [illegible]مت و(هادي) ينظر للسماء برأسه المرتكنة على ا[illegible] [illegible]عمي) صامت بطبعه، حتى قال (هادي) بصوت مرتخي:

- "أنا عارف إنك فاهم كل حاجة يا (علي)".

لم يبدُ على (علي) أنه سمعه أساسًا وهو مرتكن على الحائط ينظر أمامه فأكمل (هادي) عبارته:

- "إنت فاهم كل حاجة، وعارف أنا باعمل إيه، وعارف إيه اللي بيحصل دلوقت في الأودة بتاعتي".

صمتُ (علي) لم ينجرح حتى الآن...

- "عارف يا (علي) إني باعتبرك أخويا!! من أول يوم لقيناك وأنا بقول عليك أخويا بيني وبين نفسي، مستحيل تلاقي حد حبك قد ما أنا حبيتك، أو حد يخاف عليك زي ما بخاف عليك، الناس ممكن يعطفوا عليك ويدوك لقمة عيش منتّنة زيادة عندهم، حبة مية علشان تشرب وبعديها يكسروا الكوباية علشان قرفانين منك، بيعطفوا عليك علشان يتقال عليهم إن عندهم قلب، يرموا ليك قميص مقطع بدل ما يعملوه فوطة تنضيف، حبة لبن حامضين بدل ما يرموهم في الزبالة، كل ده وانت بعيد عنهم، ولو قربت منهم تاخد بالجزمة على دماغك، عمرك ياد كان نفسك حد ياخدك في حضنه؟"

نظر له (علي) ببطء..

- "مش قولت لك أنا أخوك وحاسس بيك، أنا كمان نفسي حد ياخدني في حضنه، نفسي حد ما يقرفش مني، أنا

وإنت زي بعض يا (علي)، أنا وإنت الناس بيعاملونا وحش، الوحيدين اللي عمرهم ما قرفوا مننا ولا زعلوا لما نقرب منهم هما الأموات.. الجثث.. عمرك قربت من جثة يا (علي) وقالتلك لا؟ عمر جثة اشتكت انك حضنتها؟"

عين (علي) ضاقت وهو يشير بيده باتجاه غرفة (هادي) فضحك (هادي) قائلًا:

- "(طاهر) باشا.. هاهاهاهاهاهاها.. إنت عارف كويس هو بيعمل إيه، إيه!! أول مرة تسأل مع إنك ياما شوفت وسكت، مش قولت لك أنا وإنت زي بعض مفيش فرق، أنا باسلّمه الجثة ينام معاها وأبقى كده وسخ، وإنت بتشوف بيعمل إيه وتسكت، لا أنا قادر أبطل اللي باعمله ولا إنت هاتقدر تعمل حاجة"..

خفض (علي) يده فقال (هادي):

- "أقول لك على سر ياد يا (علي)"..

لم يبدُ على (علي) الاهتمام ولكن (هادي) أكمل وهو يغمض عينيه..

- "أنا ما بعرفش أنام.. لازم أشرب إزازة بيرة وآخد كام حباية (ترامادول) علشان النوم يهوّب ناحيتي.. كل ما أنام أحلم بحلم واحد يا جدع.. إن يوم القيامة بدأ، وأنا واقف

وسط ناس كتير أوي، وواحد يقرب مني من وسـط النـاس، يقرب مني أكتر، الناس توسع ليه، راجل ملـوش وش، وشـه ممسوح، أسأله وأنا باعيَّط: إيه اللي بيحصل؟ يرد عليَّ يقولي: كل الناس اللي واقفين دول ذنبهم في رقبتك، وهايستنوا معاك للآخر علشان ربنا يجيبلهم حقهم منك"...

صمت (هادي) بعد آخر عبارة طويلًا فنظر له (علي) ليجد الدموع تهبط من عينيه بلا صوت.. من وسط الدموع قال:

- "أنا عارف إني لما أموت جثتي هاتتباع، وتربي هـايجي مكاني يبيعها ويقبض تمنها، ساعتها بس هـاعرف إحـساس الجثت اللي أنا بعْتها إيه، يا ترى حقيقي بيحسوا بوجـع؟ يـا ترى زي ما سمعنا إنهم بيتألّموا، لو كانوا كده فعلًا فتبقى البت اللي جوة دي بتصرخ من الوجع.. البت دي ماتت النـهاردة من الحزن على أبوها لما عرفت إنه مـات في حادثـة، دنيـا تضحّك يا (علي).. أبوها يموت الأول ومع ذلك لـسة مـا اندفنش وهي تموت بعديه وتندفن الأول، بكرة جثته هـاتيجي الصبح علشان تنحط جنب بنته، الناس هاتعمل رخامة عليهـا اسم الأب (محمد عبد المعطي) ورخامة جنبيها عليها اسم البت (سمية محمد عبد المعطي)، الاتنين قدرهم يكونوا مع بعـض.. يعيشوا سوا ويموتوا سوا"..

***

ربما كان هذا السائق له قصة ما هو الآخـــر ولكننـــا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يـــضع بالًا لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطـــوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنتـــه الوحيـــدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه...

***

الفصل التاسع

صالون مترل (داليا) تجلس به الفتاتان (داليا) و(دعاء) أمـــام الحاسب الآلي.. هناك سلك رفيع يربط هاتف (دعاء) بالحاسب الآلي لنقل الصور التي صورتها (دعاء) إلى الحاسب الآلي، بعـــد دقيقة فتحت (دعاء) أول الصور التي تظهر بها الكتلة السوداء، قربتها قليلًا وقد ظهرت تفاصيلها..

- "ده مش عيب كاميرا زي ما قولتلك يا (داليا)، اللـــون الأسود ده كان موجود جنبك لحظة التصوير".

كانت الفتاتان تجلسان على مقعدان أمام منضدة الحاســـب الآلي، فأراحت (داليا) ظهرها على ظهر المقعد وهـــي صـــامتة وشقيقتها تقول مقلّبة الصور:

- "إيه حكاية اللون الأسود ده يا بت؟ ده كل مـــا ألقـــط ليكي صورة قريبة من وشك ألاقـــي اللـــون بيكـــبر وكأنـــه موجود؟"

لما طال صمت (داليا) نظرت لها شقيقتها فوجدت عينيهـــا تتسعان ببطء كأنها تتذكر شيئًا، وتنفرج شفتاها وكأنها ستقول شيئًا..

- "تعالي معايا.. عايزة أكمِّلك حكاية (حاتم)"..

- "وده وقته يا (داليا)؟ مش تخلّينا في الصورة؟!"

- "اسمعيني بس للآخر وخلّيني أكملّك حكاية (حاتم)".

نهضت (داليا) من مقعدها وهي تجذب (دعاء) من يدها والأخيرة تنهض مندهشة وتسير ورائها تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى.

عندما دخلت الشقيقتان الغرفة أمسكت (داليا) هاتفها المحمول وطلبت رقم (حاتم) مرة أخرى ولكنه مغلق، جلست على الفراش وعينيها ساهمة، فلكزتها (دعاء) تستفسر منها عن السبب الذي من أجله تصر على أن تكمل لها قصة (حاتم).

نظرت لها قليلًا بنفس الوجوم ثم قالت:

- "أنا لازم أكملّك حكاية (حاتم)".

- "وليه لازم دلوقت؟"

- "هاتعرفي ساعتها"..

جلست (داليا) هي الأخرى على طرف الفراش وانتظرت كي تكمل (داليا) الحكاية فأكملت (داليا)...

((تغير (حاتم) جدًّا بعد آخر محادثة، نعم تغير (حاتم) تمامًا.. ظهر السواد تحت عينيه، وأصبح يشرد كثيرًا، اعتذرت له (داليا) أكثر من مرة عن طريقتها في الكلام، وقالت إنها كانت

تحاول أن تبث فيه روح التحدي، ولكنه كان يبتسم لها ابتسامة صفراء ويقول لها عبارة مشهور (أنا قبلت التحدي).. شعرت بالغضب من تصرفها ولامت نفسها ليال كثيرة على ما فعلته، ثم بدأت تراقب تصرفاته وخاصة نمو تلك الهالات السوداء التي بدأت تتكون تحت عينيه والتي تعني أنه يسهر كثيرًا، مرت أيام تجده يجلس وحيدًا خارج قاعة المحاضرات ينظر شاردًا، فتجلس بجانبه ولكنه لم يكن ينتبه لها، كانت تسأل نفسها كثيرًا ما الذي يفكر فيه ويجعله لا يشعر بها حتى عندما تجلس بجانبه.

قل الحديث بينهما، وقد اعتقدت أنه يحاول معاقبتها على ما فعلته معه في حديثها السابق، ولكن هذا الاعتقاد سرعان ما زال لأسباب كثيرة، منها ذلك اليوم الذي وجدته يجلس على الأعشاب بجانب قاعات المحاضرات ويسند ظهره لشجرة ما وينظر أمامه.

حاولت أن تكون مرحة، فاقتربت من وراء ظهره وأخذت تسير بخطوات بلا صوت كي يتفاجأ ولكنها توقفت عند الشجرة من ظهره وأمسكت بالكتب التي وضعها بجانبه بجانب كشكول المحاضرات وكتاب في الشعر النبطي، أمسكت الكتب لتقرأ أسماءها بدهشة.

(**الكوميديا الإلهية**).. (**فلسفة الموت**).. (**نصوص من كتاب الموتى**).. انتبه لها (حاتم) فسألته عن سر تلك الكتب

التي لم يكن يقرأ في أنواعها قديمًا، كانت إجابته أنه يقرأ تلـــك الكتب لتفيده في روايته الجديدة!!

قل كلام (حاتم) وقل مرحه وأصبح أكثر شرودًا وأكثر ميلًا للعزلة، ومر شهر وهو على تلك الحالة حتى وجدته في المقهـــى الذي تعودا الجلوس عليه يجلس عليه ومنشغل بالكتابة في شيء ما، وأوراق موضوعه أمامه بكثرة مليئة بالكلمـــات، اقتربـــت وجلست وأمسكت الورق فأجفل، ولكنها قلبت في الـــورق سريعًا حتى وقعت عيناها على اسم الرواية في صفحة منفصلة.. كان اسم الرواية هو (نصف ميت)!!

- "اسم غريب!!"

- "شوية"..

- "بتتكلم عن إيه القصة دي يا حبيبي؟"

- "هاتعرفي لما تخلص كلها".

- "واشمعنى المرة دي مش عايز تخليني أقراها إلا لما تخلص؟"

سكت (حاتم) ولم يرد، لسكوته وقع مفزع عليها، هل بدأ يكرهها؟ أم أصبح الآن لا يريد لها أن تطلع على إنتاجه الأدبي بعد أن كانت أول من يعلق على قصصه، أم أن هنـــاك ســـرًا يخفيه في تلك الرواية؟

استمر الحال هكذا حتى جاء هذا اليوم، وكانت تتـذكره جيدًا جدًّا.. (الأربعاء) ١٢/ ٢.. حيث كانت تجلس هي و(عفاف) وباقي الشلة في غرفتها حوالي الساعة الثامنة مساء يتحدثن عن صديقتهن التي ستتم خطبتها بعد شهر من الآن على مهندس شاب، أثناء الحديث تلقت اتصالًا على هاتفها المحمول، وسمعت على الطرف الآخر صوت زميلتها في الدفعة (دلال) تقول بلهفة:

- "أنا واقفة قريب من مبنى الأولاد في المدينة الجامعية"..

- "طب عايزة إيه؟"

- "شوفت عربية إسعاف جاية وبينقلوا ليها حد؛ فسألت واحد عرفته من الواقفين طلع اللي بينقلوه ده (حاتم) يا (داليا)!!"

انطلقت صرخة من (داليا)، وبدون تفكير قفزت عن الفراش، وبالرغم من أنها كانت تجلس مع زميلاتها إلا أنها كانت بملابس تصلح للخروج، ولكنها بدون طرحة تضعها على شعرها، قفزت وخرجت خارج الغرفة بدون أن تضع طرحتها وصديقاتها يجرين وراءها مهرولين وإحداهن تحمل طرحتها وتحاول أن تلحق بها.

كان منظرًا غريبًا وهي تجري حتى خرجت من المبنى ذاهبة باتجاه مبيت الرجال لتسأل عن ما يحدث.. وكانت الإجابة غريبة من أحد زملائه:

- "إحنا سمعنا خبط جوَّا الأودة وصوت حد بيزوم، فعدنا نخبط على (حاتم) ونادي عليه هو أو على (علاء) لكن محدش بيرد والخبط شغال، كسرنا الباب لقينا (حاتم) بيتشنج ويتنفض، مسكناه وحاولنا نهديه لكن حركاته كانت شديدة، لغاية ما جه واحد زميلنا قال لنا حاولوا تخلوه ينام على السرير بسرعة ومحدش يوقف حركاته.. مكنَّاش عارفين ليه، بس فضلنا كده وواحد اتصل بالإسعاف، وفضلنا كده لغاية ما هدي وفاق وكان شكله تعبان أوي، لما جت الإسعاف أخدناه ونزلناه فيها وكان (علاء) جه من بره قام ركب معاه، وفيه ناس ركبوا عربية ومشيوا ورا الإسعاف علشان يتابعوه"..

أخذت (داليا) رقم هاتف (علاء) كي تسأله عن عنوان المستشفى، ثم أخذت (عفاف) بعد أن ارتدت الطرحة وركبا تاكسي إلى المستشفى، وهناك سمعت من الطبيب الذي تابع حالته لساعات أغرب تشخيص:

- " الأستاذ حاتم كان عنده نوبة صرع شديدة!!!"

- "طب والصرع ده جاله ليه؟"

- "لا دلوقت مش هاعرف أقول السبب الحقيقي؛ لأنه ممكن يكون وراثي أو عدوى أو مشاكل في المخ، لكن هو لما يتابع معانا في المستشفى كام يوم هانتأكد كويس، إحنا عملنا

رسم مخ واتأكدنا من وجود الصرع، لكن الأيام الجاية زي ما قلت لكم هانعرف أكتر"...

كانت ليلة سوداء على (داليا) التي لم تنم، وظلت ساهرة وبجانبها (عفاف) بعدما عادتا للمدينة الجامعية، وقامتا بفعل المستحيل ليسمح لهما الأمن بالدخول بعد غلق الباب، وفي اليوم التالي من الصباح كانت (داليا) تقف أمام المستشفى تحاول الدخول في غير مواعيد الزيارة الرسمية مما سبب لها الإحراج، حتى إنها انتظرت وحيدة خارج المستشفى حتى عطف عليها عمال بوابة الدخول عندما وجدوها تجلس وحيدة أمام الرصيف المقابل للمستشفى تنتظر مواعيد الزيارة التي كانت ستبدأ من الساعة الواحدة ظهرًا؛ أي إنها ستنتظر أربع ساعات أخرى غير الساعتين التي انتظرتهما في البداية.

أدخلوها واستطاعت أن تصل لقسم الأمراض العصبية وتدَّعي أنها شقيقة (حاتم) أمام الممرضات كي يجعلنها تدخل أحد عنابر المرضى النائمين.

عندما دخلت ووجدت (حاتم) شعرت برغبة كبيرة في أن تجري عليه وتقبل كل قطعة في جسده ثم تنام على صدره لتبكي.. ظلت تجلس بجانبه وهو نائم إلى أن مرت ثلاث ساعات وفتح عينيه ليجدها تجلس بجانبه، تكلم بصوت خفيض معها وهي تنظر إليه بعينين حمراوتين من كثرة البكاء...

- "إيه اللي جابك دلوقت يا مجنونة؟"

- "بحبك".

- "شكلك نَصَبْتِ على إدارة المستشفى عشان تدخلي دلوقت"..

- "بحبك"..

ابتسم وهو ينظر لها ثم قال:

- "دلوقت مش هاينفع أحبِّي عليكي كتير، كنت فاكر إن الحياة بقت طبيعية خلاص.. وخصوصًا إني كنت منتظم في الدوا وماشي على تعليمات الدكتور.. لكن برضه جت النوبة تاني!!"

- "ألف سلامة عليك يا حبيبي"

- "أنا باتعالج من الصرع من وأنا صغير يا (داليا)، بيقولوا عليه نشاط زايد في كهربة المخ، طبعًا أنا ما باعضّش الناس والا باهوهو لما بتيجي النوبة، لكن بتبقى حبة رعشات كده وتروح لحالها، برغم إنها مجاتليش في الأربع سنين اللي فاتو غير كام مرة بس وكانت بسيطة، إلا إن الضغط العصبي اللي دخلت نفسي فيه هو اللي دخلني في نوبة".

- "أنا آسفة يا حبيبي أني زعلتك كده".

- "لا يا (داليا).. مش انتي اللي عملتي عليَّ ضغط نفسي، الضغط علشان باكتب في الرواية الجديدة بتاعتي وعايزها تكون أنجح رواية علشان أحقق نفسي بقى"..

- "تغور الرواية.. أنا عايزاك إنت".

نظر لعينيها طويلًا وقال وهو يبتسم لها:

- "إنتِ عارفة أنا عايز أنجح في مجال الكتابة؟ علشان أشوف ابتسامتك الحلوة وأشوف في عنيكي نظرة فخر بحبيبك".

- "يا حبيبي أنا فخورة بيك في كل وقت.. إنت مش محتاج إنك تتعب نفسك علشان تشوف ابتسامة في وشي أو فخر في عيني".

- "ما هو كمان علشان نتجوز يا (داليا)، وعلشان أنجح في الكتابة لازم أكون كاتب مشهور، وعلشان أكون كاتب مشهور لازم تكون الرواية تستحق، وعلشان الرواية تستحق يبقى..."

- "كفاية كلام يا حبيبي"..

ابتسم هنا (حاتم) وأراح رأسه ونظر لأعلى السقف ثم قال:

- "أنا لما النوبة بتجيلي فيه حاجات حواليَّا بتتحرك لوحديها!!"

ابتسمت (داليا) وطلبت منه إعادة العبارة فأعادها كما هي فقالت:

- "مش فاهمة حاجة"..

ابتسم أكثر وقال بدون أن ينظر لها:

- "زمان أوي افتكروا إني ملبوس من الجان، علشان ساعة ما تيجي النوبة تتحرك حاجات حواليًا، بعد مدة لما اتأكدوا أني مش ملبوس وإن دي نوبات صرع محدّش فهم ليه لما النوبة بتكون شديدة الحاجات اللي حواليًا بتتحرك.."

- !!!!

- "د. أمجد فوزي جراح المخ والأعصاب اللي بيتابع حالتي في المنصورة قال إن دي حالة موجودة برًّا مصر، وإنه شاف زيّها، وقال إن ده نشاط غير طبيعي للمخ عندي، وممكن يخلّي حاجات حواليًا تتحرك حركة خفيفة، وكانت نصايحه إني ما أحاولش أجهد نفسي أو أتعصب علشان النوبات ما ترجعش وترجع الحاجات تتحرك حواليًا أثناء النوبة.. طبعًا الموضوع مش موضوع حاجات بتتحرك بس، دي حاجات تانية هابقى أحكيلك عليها بعدين".

ظلت (داليا) تنظر له بدهشة تحاول تفسير كلامه، لكنه نظر لها وزادت ابتسامته حتى ابتسمت هي الأخرى وصدرت منها ضحكة خافتة.

***

"رجْعتْلك النوبة يا حبيبي تاني؟" بصوت (دينا) الخافض الحاني قالت تلك العبارة، ورأس (حازم) على صدرها والعرق يملأ وجهه، وهو يتنفس بصوت عال وصدره يعلو ويهبط، بعد دقيقة من ذلك الوضع انتظم تنفسه؛ فأخذت (دينا) تمسح بيدها على رأسه وتمتد يدها لتمسح العرق من على وجهه بحنان، وهي تقبل رأسه وهو بين ذراعيها، وتقول بصوت خافض: "تحب أغنيلك يا حبيبي؟" لم تتلق إجابة على سؤالها، ولكنها تعودت أن تغني له بعد نوبات الصرع التي تأتيه منذ أن تمت خطبتهما، تنحنحت ثم بدأت تتغنى بأغنية أم كلثوم التي يعشقها: "أمل حياتي.. يا حب غالي ما ينتهيش.. يا أحلى غنوة سمعها قلبي ولا تتنسيش.. خد عمري كله بس النهاردة.. بس النهاردة.. بس النهاردة خليني أعيش.. خليني جنبك خليني في حضن قلبك خليني.. وسيبني أحلم سيبني.. وسيبني أحلم سيبني.. يا ريت زماني ما يصحّنيش"...

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

انفتح باب غرفة (هادي)، وخرج (طاهر) وقد ارتدى قميصه على عجل وترك أزراره مفتوحة، وارتدى سرواله، وأخذ يخطو خطوات قليلة خارج الغرفة وهو يشم نسمات الليل باستمتاع وهي تصطدم بجبهته وتنعشه، وحبات العرق التي تكونت على جبهته تختفي بالتدريج.. جرى نحوه حارسه الثالث وهو يقول له:

- "حاسب يا باشا لا تستهوى"..

أوقفه (طاهر) بإشارة من يده وهو يشتم الهواء من حوله ويبتسم، فظهر من بعيد (هادي) وهو يهرول حتى وصل له وقال بابتسامة مفتعلة:

- "يا رب تكون انبسطت يا باشا، أشيلها وأرجعها يا باشا؟"

هز (طاهر) رأسه بالنفي بسرعة وهو يقول:

- "لأ سيبها.. أنا داخل ليها تاني".

أدار ظهره لهم وقال وهو يتجه للغرفة مرة أخرى:

- "إدِّيله ٥٠٠ جنيه كمان.. تسلم إيدك المرة دي يا (هادي)، البت شديدة أوي".

أخرج أحد الشباب من جيبه الخمسمائة جنيه وأعطاها لهادي الذي أخذها وسار مرة أخرى عائدًا للمكان الذي كان

يجلس فيه على الأرض، ولكنه لم يجد (علي) يجلس كما تركه..
لم يكن غريبًا عليه أن يختفي هكذا.. فربما ذهب ليتمشى مــرة أخرى في المقابر، بالفعل كان (علي) يسير بين المقابر وهو ينظر حوله ويفكر، الليلة.. لقد تعلم العد بفطرته، تعلّم أن يرى الليلة التي يتجمعون فيها، ثم يعدّ الليالي كالآتي واحد اثنــان ثلاثــة أربعة خمسة ستة، ثم يتجمعون مرة أخرى يوم الثلاثاء..

عند هذا الحائط الجميل.. سار حتى اقترب منــه، هــو لم يعرف القراءة ولا الكتابة، ولو كان عرفها لكان قرأ اللوحــة الرخامية القديمة التي لصقت بالأسمنت وكتب عليها: (مــدافن عائلة أبو العنين ١٩١١)...

ذلك الحائط الذي هو أقدس أسراره، وجد نفسه منذ الصغر يذهب لهناك دائمًا، في تلك الليلة يشاهدهم ويتمتــع ويقــف بعيدًا حتى يأتي الفجر.

اقترب حتى توقف قريبًا منهم، إنهم أقل من آخر ليلة ولكن لا ضير في ذلك، شيء أبيض يقف بعيدًا وأمامه صفوف مــن الأجساد البيضاء الناصعة والتي لا شكل لها سوى أنها تــصدر أصواتًا جميلة تخلبه.. يذوب بها.

هذه هي البداية فقط؛ لأن الجسد الأبيض الجميــل الــذي يقف أمام الأجساد الأخرى تظهر له ملامح لرجل ضــخم ذي

جلباب أبيض ووجه أبيض وبشرة تشع نورًا، يرفع يده قليلًا أمامه وكأنه يدعو الله وينادي بصوت جميل رقراق خافض (الله) فينخلع للكلمة قلب (علي) ويبتسم.. يبتسم لأنه يعرف أنها بداية الليلة عندما يقول الرجل تلك الكلمة، يسمع الصوت الجميل من الأجساد الأخرى تقول (الله).. أصواتهم ترعش جسده وتذيب إدراكه..

تمر الدقائق والرجل يقول (الله) بصوته الحاني والجمع يرد بصوت أرق (الله)، يجلس بعدها (علي) على الأرض وهو يرى الأجساد تتمايل يمينًا ويسارًا مع كل كلمة تمايل أوراق الشجر مع النسمات، وفجأة تظهر الأجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء لفت على أجسادهم وهم يندمجون في الكلمة..

حتى يسمع الرجل الذي يقف أمامهم يتكلم بصوته الجميل ويهز رأسه رافعًا صوته قائلًا (يا حي يا قيوم)؛ فيرد الجمع (الله) وتتمايل الأجساد، ويشعر (علي) باهتزاز جسده مع الكلمات، والرجل يغير نداءه إلى الله والرجال يردون عليه.

(علي) يفتح فمه بدون إرادته وكأنه يرتشف رشفات من الكلمات التي يقولها الجمع، يرتوي من أصواتهم، يرتعش من رعشاتهم، يذوب في تلك الكلمة العجيبة (الله)..

بعد ساعة يجد (علي) لسانه يتحرك داخل شفتيه ليردد مع الجمع كلمة (الله).. لسانه يتحرك بلا صوت، ولكنه يهتز وهو

جالس على الرمال وأغصان الشجر الجافة، يهتز وكـأن قلبـه يرقص ونبضاته ترتفع مع الكلمة، ويهيم في نشوة لا يعـرف مصدرها ولا يشعر إلا ودموع ساخنة تبلل خديه تغسل وجهه وتلمس شفتيه، فلا يجدها كالدموع المالحة التي يذرفها عنـدما يبكي وحيدًا.

كان يقول في نفسه إن هؤلاء القوم هم سره الوحيد ومتعته الدائمة وملاذه الأخير، ظل الذكر طوال الليل وقـد جلـس الرجل وجلست الأجساد الأخرى حولـه وترقـرق صـوتهم وعذب أكثر وهم يذكرون الله، حتى حدث ما أفزعه.

هبط صوتهم أكثر وأكثر، وهذا لم يحدث منذ سمعهـم أول مرة؟ هبط الصوت حتى سكت الجميع، ثم نظر له الرجل الذي يقف أمامهم وسار حتى اقترب منه.. تراجع (علـي) للـوراء بحركة عفوية، ولكن الرجل ذا الوجه الجميل واللحية البيـضاء ابتسم له وقال بصوت رقيق خفيض هز قلبه:

- "اذكر الله"..

ظل (علي) ينظر إليه برعب فقال الرجل:

- "اذكر الله"..

هنا حرَّك (علي) شفتيه وأخرج صوتًا من حلقه دلالة علـى عدم تمكنه من الكلام..

- "اذكر الله"..

تعالى الصوت الخارج من حنجرة (علي)، والذي يدل على عدم استخدامه لملكة الكلام؛ فقال الرجل المبتسم:

- "مرحبًا بك يا بني بين أقرانك"...

فجأة بدأ الرجل يبتعد بظهره، وجسده يعود للضوء الأبيض مرة أخرى، وباقي الأجساد تعود لتغلف باللون الأبيض، قـــال (علي) في داخله: "لماذا أوقفوا الكلمات؟ ولماذا لم يكملوا حتى الفجر ويصطفون بطريقتهم الجميلة، ويقف الرجل يمارس شيئًا روحانيًّا لطالما أراد أن يمارسه؟" لم يكن (علي) يعلم أنها صلاة الفجر..

تلاشت الأجساد وتلاشى الضوء الأبيض وحـــل الظـــلام والوحشة محل النور والأنس، نظر (علي) حوله يبحث عنهم، ثم أخذ يبكي بحرقة كأنه طفل صغير.

***

الفصل العاشر

خرج (حاتم) من المستشفى بعد أيام، وعاد مـــرة أخـــرى لجامعته ولكن تغيرت نظرة أقرانه له.

كل من كان ينبهر بشخصية (حاتم) المهذب المتدين الوسيم المتفوق، أصبح الآن يتحاشى أن يلقي عليه السلام، الجميع سمع عن تلك الليلة التي أصـــابته التـــشنجات ونقـــل بعـــدها إلى المستشفى، يمكنك أن تتخيل العديد من الـــسيناريوهات الـــتي ألّفها الطلبة، فمنهم من قال إنه مصاب بمرض معدٍ، ومنهم من قال إنه مصاب بالإيدز، والمصيبة أن الكثير يوافقونه لـــضعف معلوماقم عن الأمراض، البعض قال إنه مصاب بالصرع، ممـــا جعل البعض يتخيل أنه يرتكب جرائم عنيفـــة أثنـــاء نوبـــات الصرع.

حتى إن البعض قال إنه مصاب بمس مـــن الجـــان، وهـــذا الاحتمال الأخير هو ما انتشر بين الطلاب أكثر من أي احتمال آخر، والسبب بسيط..

هناك اثنان من الطلبة كانوا ضمن من دخل غرفته عنـــدما اجتاحته النوبة يقسمان أهم شاهدا الكتب تتحرك من حـــولهم حركة بسيطة وكأنّ أحدهم يزحزحها من موضعها، وهنـــاك

كوب شاي كان موضوع على منضدة يتحرك من تلقاء نفسه حتى وقع وتهشم!!

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة، ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة، وتسمع من يقول أن فتاة تحكي عن (حاتم) بأنها شاهدته عندما كانا بالفرقة الأولى (السنة الأولى) بالكلية أثناء إحدى المحاضرات، ينهض من المدرجات وينزل إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة، ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة، ويعود لمكانه مرة أخرى ليكتب بالقلم بضعة أشياء، ثم يعيد القلم أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الدكتور أو يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة التي رأته، بالتأكيد الجان هم الذين يمكنهم فعل هذا.

وظهرت حكاية عن شاب كان يريد أن يضربه وذهب إليه في إحدى المقاهي، ولكن الشاب يقسم أنه فجأة لم يتذكر أي شيء عن نيته في ضرب (حاتم)، وكل ما شعر به أنه يحبه وأنه يجب أن يعتذر له.

الآن وبعد كل تلك الأشياء التي قيلت عن (حاتم) أصبح هذا الأخير حديث الطلاب، حيث يذكرونه دائمًا بالحسرة على أساس أنه فقد عقله مثلًا، أو ضاع مستقبله، أو سار في طريق لا عودة منه.

أما (حاتم) نفسه فقد انعكست معاملة أصدقائه لـه علـى حياته، استطاع أن يحافظ على تفوقه كما هو، ولكن اختفـى ذلك البريق من عينيه، بريق الأمل والطموح.. أصـبح يـسير منكس الرأس بين زملائه وكأنه يخفي عارًا ملتصقًا به.

كما أن زملاءه تجنبوه هو أيضًا تجنبهم وأصبح يسير وحيدًا دائمًا ويجلس وحيدًا دائمًا، اللهم إلا من صديقه الحميم (علاء) رفيقه الدائم الذي كان يحاول دائمًا جره لحياته القديمة، وإعادة المياه إلى مجاريها مع الأصدقاء والزملاء، ولكن كـان (حـاتم) دائمًا ما يرفض تلك المحاولات؛ لأنه يعتبرها نوع من الشفقة..

المحاولة الوحيدة التي لم يعتبرها نوع من الشفقة هي محاولات حبيبته (داليا) عندما كانت تلقي عليه النكات لتخرجـه مـن حزنه، لقد علم أنها تحاول في كل لحظة تسري عنه الهم، وهي تبذل في ذلك الكثير بالرغم من النكات القديمة، إلا أنه كـان يضحك من قلبه عندها لا من النكتة، ولكن يـضحك مـن محاولتها الطفولية لإضحاكه، وهي كانت تضحك هي الأخرى لذلك.

والغريب أنه برغم تلك العزلة التي أثرت على نفسية (حاتم) إلا أنه استمتع بها في نفس الوقت وارتاح لها..

لقد وفرت له العزلة كل الوقت المراد لقراءة كـل تلـك الكتب التي كان يشتريها بانتظام، أو يستعيرها من أصدقائه في

كلية الآداب قسم الدراسات الفلسفية، كتب تدور عن الموت والحياة..

لاحظت (داليا) في تلك الفترة كثرة انشغاله بشيئين الكتابة والقراءة، ولكن الكتابة انحصرت في روايته الغريبة (نصف ميت) التي رفض أن يطلعها عليها نهائيًا، وصمم على أن تطلع عليها مرة واحدة بعد الانتهاء منها.

مرت الشهور حتى طلب منها اللقاء على عجل داخل المقهى القديم الذي يتقابلا فيه دائمًا.

دخلت المقهى في تمام الخامسة لتجده يجلس على منضدته المفضلة ويبتسم لها، اندهشت من هذا الوضع الذي لم تره فيه منذ شهور، وخاصة أنها تعودت عليه وهو يقرأ أو يكتب أو يشرد، لكن أن ينتظرها ويبتسم بذلك الشكل!!

جلست أمامه فطلب من النادل اثنين من المياه الغازية كما تعودا دائمًا ونظر لها وقال:

- "أنا قاعد مستني حاجة من ربع ساعة من مكتب الكومبيوتر اللي جنب الكافيه".

أشارت له بعدم الفهم فقال:

- "أصلي امبارح بليل روحت للواد (زياد) الساعة ٥، وخلّيته يقعد من ساعتها لغاية النهاردة الساعة ٢ الظهر يكتب لي حاجة على الكومبيوتر".

أخذت (داليا) تعد على أصابعها حتى قالت بدهشة:

- "٢١ ساعة بيكتب؟!! ليه هو بيكتب إيه؟!"

- "هاتعرفي دلوقت، هو بعد ما خلص كتابة راح بالحاجة على مكتب الكومبيوتر اللي جنبينا ده علشان يقعد على إيديهم ينسّقوا اللي كتبه، ويطبعوا منه نسختين".

قالت (داليا) ضاحكة:

- "إيه يا بني الافترا ده؟ وهو إيه اللي مخليه يستحمل البهدلة والمرمطة دي؟"

ضحك هو الآخر وقال:

- "ما هو أنا واعده بأكلة كباب وفراخ كبيرة تكفيه ٣ أيام لو عمل لي اللي أنا طلبته منه في ميعاده".

فجأة رفع هو عينيه ناحية الباب يراقب (زياد) زميله يدخل المقهى وهو يسير ببطء ويفتح عينيه بطريقة مضحكة.. يبحث عن (حاتم)، ناداه كي يأتي إليه فقال (زياد) بعد أن وصل إليه بصوت مرتعش به نبرة تشبه الضحك:

- "هاهاها.. أنا جبت ليك.. هاهاها.. الحاجة أهو.. هاها.. وقولت لبتاع مكتب الكومبيوتر إن الحساب عندك.. نياهاهاهاهاها"...

ابتسم له (حاتم) قائلًا:

- "طب فين الحاجة؟"

- "حاجة إيه؟"

- "الورق اللي طبعته وجلدته يا أخي".

- "هو أنا طبعت ورق؟!"

أشار (حاتم) بنفاد صبر ليد (زياد) التي تقبض على الأشياء، فنظر (زياد) ليده في بلاهة، فنهض (حاتم) وأخذ الأوراق وقال لزياد:

- "طب روح نام إنت ولمّا تصحى بكرة هاجيبلك الكباب والفراخ".

- "هاتجيبهم ليه؟"

- "علشان وعدتك بيهم؟"

- "طب أنا عايز جبنة رومي".

- "حاضر يا (زياد) هاجيبلك جبنة رومي.. يالّلا روح المدينة الجامعية بقى علشان تنام".

أدار (زياد) جسده وهو يكلم نفسه وخرج من المقهى، فأعطى (حاتم) لداليا مجموعة من الورق، فأمسكتها وهي تتأملها، رزمة ضخمة من الورق مغلفة بغلاف بلاستيكي ثقيل

شفاف، ومن ورائه لوحة مرسومة بشكل مبـــدع وغريـــب.. اللوحة مقسومة نصفين، النصف الأيمن ألوانه زيتيـــة واضـــحة وفاتحة، أما النصف الأيسر فألوانه هي نفس الألوان ولكن أبهت من الجانب الأيمن.

وفي منتصف اللوحة يقف شاب طويل نحيل نصفه الأيمـــن طبيعي، ونصفه الأيسر مغطى بالـــدماء والتـــشوهات تمـــلأه، النصف الأيسر للشاب يحتوي على عينه التالفة وفمـــه المحطـــم وحروق بجلده.

تأملت هي الغلاف قليلًا منبهرة بدقة تفاصـــيله ومظهـــره المقبض، وخاصة أنه في أعلى اللوحة لطخ الرسام دماء كـــثيرة وكتب بخط أبيض (نصف ميت)

وأسفل اللوحة كتب اسم (حاتم الجمَّال) بنفس الطريقة التي كتبت بها (نصف ميت) في الأعلى، ولكن مع اختلاف أن اسم (حاتم) كتب بخط أصغر من اسم الرواية.

نظرت (داليا) له وابتسمت قائلة:

- "طبعًا تصميم الغلاف ده اللي عملهولك (عبد الـــرحمن فتحي) اللي معانا في الكلية صح؟"

- "صح.. طلبت منه ينفذه من أسبوعين وسلمه لي من كام يوم، وخليت (زياد) يقول لمكتب الكومبيوتر يطبع التـــصميم بالألوان ويحطه في النسختين".

قلبت (داليا) الصفحات فوجدت أنها تصل لـ٢٠٥ صفحة.. إذن هذه هي (نصف ميت).. يا لضخامتها، لقد طبعت على ورق كبير؛ أي بحجم الكتب الضخمة التي يطبعها أساتذة كليتهم، كتبت على الحاسب الآلي وتم تنسيقها بطريقة تريح النظر..

– "أنا يا حبيبتي عملتلك النسخة دي من (نصف ميت) علشان تقريها وتقوليلي إيه رأيك زي زمان".

– "طب والنسخة اللي معاك؟"

– "لا النسخة دي هاعمل منها نسخ تانية علشان أعرضها على دور النشر، إحنا دلوقت في شهر مايو ويا دوبك أدّيها لكام دار نشر وانتبه للامتحانات، ولما أخلص امتحان أكمل رحلة للدور زي المجنون".

– "يعني هاتعمل زي كل مرة!! تلف على الدور ويقولوا ليك إنهم ما ينفعش بينشرو ليك حاجة، ليه يا حبيبي تتعب نفسك؟"

– "أنا قبلت التحدي اللي اتفقنا عليه زمان".

تغيرت ملامح (داليا) وقالت بنوع من التودد:

– "أنا أسفة يا (حاتم).. أنا ماقصدتش تفكر بالطريقة دي، سيبك من ده يا بابا و...."

– "لأ"...

قالها بحزم وهو يقاطعها ويكمل قائلًا:

- "أنا راهنت على الرواية دي خلاص بكل اللـــي أقـــدر عليه، يا إما أنجح المرة دي يا إما أبطل محاولات".

حاولت أن تتكلم ولكن نظرة الاصرار في عينيه أخرســـتها ونظرت للرواية تتأملها)).

انتهت (داليا) من الكلام فقالت (دعاء):

- "وإيه اللي حصل بعد كده؟"

كانت ملامح (داليا) تحمل مزيجًا غريبًا من القلق والتـــوتر والخوف، وقد ردت على شقيقتها قائلة:

- "بعديها أنا قريت الرواية وما صدَّقتش نفسي.."

- "ما صدقتيش نفسك؟!"

أكملت (داليا) غير عابئة بسؤال شقيقتها:

- "وبعد الامتحانات رجعت هنا على إسكندرية وفضلت أنا و(حاتم) على اتصال الأيام اللي فاتت، وهو بيقـــولي إنـــه بيدوَّر على دار نشر تقبله بعد ما دور نشر كتير رفضت قصته علشان جنونها".

- "رفضت القصة علشان جنونها؟"

نهضت (داليا) من على الفراش وجلست على ركبتيها وهي تخرج الصندوق الذي تحتفظ به من تحـــت الفـــراش وتخـــرج

الأوراق والكشاكيل والكتب القديمة، حتى وصـــلت لكـــيس بلاستيكي أسود اللون أخرجته وأبعـــدت الأتربـــة عنـــه.. ثم أخرجت منه رواية (نصف ميت).

- "إيه ده!! هي الرواية دي عندك؟"

قالتها (دعاء) بشغف فأعطتها (داليا) الأوراق وقالت:

- "فيه سر في الرواية دي يا (دعاء).. عايزاكي تقريها لـــو سمحتي".

- "سر إيه؟"

- "اقريها.. وأنا مش هاكلمك إلا لما تقريها".

قالتها (داليا) وهي تغادر الغرفة وتترك (دعاء) بها وحيدة.. نظرت (دعاء) على الباب الذي أغلقته (داليا) وراءها ثم نظرت للرواية، وفتحت أولى صفحاتها لترى كلمة (إهداء) وتحتـــها عبارة تقول:

((**لطالما أنتظر اللحظة التي ستقبض فيها روحي، لذلك أهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي .. إلى ملك الموت**))...

اقشعرت (دعاء) من الإهداء، وقلبت الورقة وبـــدأت في قراءة الفصل الأول.

***

(طاهر) يخرج من غرفة (هادي) وقد ارتدى بزته وهو يربط رباط العنق وقد وضع النظارة الطبية على عينيه..

جرى (هادي) ناحيته وهو يقف له مبتسمًا ويقول:

- "نوّرْتنا يا باشا".

ابتسم (طاهر) له ابتسامة منهكة وقال:

- "جدع يا (هادي)، إنت عارف لو وقعت في إيدك حاجة زي الأمورة اللي جوة دي تقولي عليها.. إلا هي كان اسمها إيه؟"

- "(سمية) يا باشا".

ضحك (طاهر) ضحكة صغيرة وقال وهو ينظر باتجاه باب الغرفة:

- "اسمها حلو.. وتستاهله بصحيح".

ثم نظر إلى (هادي) وقال:

- "الرجالة هايساعدوك علشان ترجّع الجثة تاني".

وأشار لرجاله ولكن (هادي) قال بنفس الابتسامة:

- "لا يا باشا خليهم ما يتعبوش نفسهم المرة دي.. أنا هارجعها بنفسي".

فجأة تعالى صوت أذان الفجر من منبر أحد المساجد البعيدة، فسكت الجميع لوهلة، ثم تحرك (طاهر) وخلفه رجاله

وهم يغادرون المكان بسرعة بدون أن يلقوا حتى السلام على (هادي) الذي قال وهم يبتعدون:

- "نوَّرت يا باشا".

ثم نظر للغرفة ذات الباب المفتوح ومد يده لجيبه وهو يخرج العلبة الحمراء الصغيرة ويفتحها متأملًا الخاتمان وآذان المسجد يعلو أكثر.. هناك بين المقابر وبالتحديد في المقبرة التي دفنت فيها الجثث منذ ساعات، وفي داخل المقبرة والجثث المتراصة داخلها الملفوفة بالكفن الأبيض والعظام المتناثرة.. وسط هذا.. ومن داخل أحد الأكفان البيضاء.. تحركت يد إحدى الجثث المدفونة داخل (اللحد) والأحجار تحيط بها.. خرجت اليد خارج الكفن لتقبض على أقرب حجر لها.. وخرج صوت متقطع من الجثة.

***

الفصل الحادي عشر

٧ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة الحادية عشر صباحًا

- "وبالتالي.. فالاكتئاب ممكن يعمل زي ما بتقول كده؟"

بالفعل شيء يحير!! رددت على د. ياسر قائلًا:

- "يعني (سعيد) حتى بعد ما اتعالج واتصرف طبيعي لمدة شهر ينتحر أول ما الفرصة تكون قدامه؟! ده كل التقارير اللي قريتها وكل كلام أهله بيقولوا إنه بدأ يخرج من الاكتئاب وياكل معاهم ويضحك ويقول نكت".

- "أيوه.. بس ما تنساش إنه كان بيسمع أصوات بتقوله ينتحر.. وبتقول له كده في الدقيقة ٦٠ مرة وفي الساعة ٣٦٠ مرة.. وشوف انت بقى في الـ ٢٤ ساعة كان بيسمع أمر الانتحار ده كام مرة.. الدكتور اللي كان متابعه عالجه من الاكتئاب من خلال الأدوية.. لكن لسَّه موضوع الأصوات مكنش اتعالج منه، ده غير إن الدكتور طلب من أهله كتير إنه يكون في المستشفى علشان يبقى تحت نظرهم، لكنهم أصروا على إنه يفضل معاهم، وبالتالي مع أول لحظة غفلوا عنه لقوه قاطع شرايينه بسكينة المطبخ".

- "وطبعًا هو عمل كده علشان يرتاح من الأصوات".

- "الله يرحمه ويحسن إليه".

نحن الآن داخل مكتب من مكاتب قسم علم النفس بكلية الآداب، وهذا هو أستاذي الدكتور مصطفى زيادة أستاذ دكتور علم النفس بجامعة (عين شمس)، ولي به صلة قديمة منذ أيام أن كنت طالبًا تحت يده في سنوات الجامعة الأولى.

وكثيرًا ما ساعدني عندما وجد مني عشقًا لعلم النفس، وقد زادت مساعداته لي خاصة بعد تخرجي من كلية الآداب قسم علم النفس، ورفضي لأن أكون معيدًا بالقسم رغم تفوقي فيه..

ثم تحضيري للماجستير، والذي كان في علم النفس الجنائي، ومساعدة دكتور مصطفى منذ ذلك الحين لي، حيث أنه كان دائمًا ما يقول إنه يرى في عقلي أفكارًا ستغير مسار الطب النفسي في مصر.

كنت أعتبرها مجاملة لي، ولكن دكتور مصطفى لم يكف عن الاهتمام بي يومًا واحدًا، حتى أن كثيرًا من الكتب والمراجع التي أستعين بها لإتمام رسالتي للدكتوراه تكون من مكتبته الخاصة المليئة بالكتب الثرية والنادرة والأبحاث الميدانية في مجال علم النفس التجريبي، والذي كنت أعشقه وأعشق معه جو المختبرات النفسية ومعامل التجريب التي تخرج قوانين تتعلق بالعقل البشري، ومن ثم مع الوقت تتغير تلك القوانين..

يا لها من متعة أن تبحث في ذلك العقل وتتأمل في صنع الله، وتندهش من تلك الدقة وتلك المعجزة التي تتعلق بالمخ البشري.

قال دكتور مصطفى ضاحكًا:

- "إيه أخبار دكتورة جيهان عَلَم الدين؟"

كانت دكتور جيهان هي المشرفة على رسالة الدكتوراه، فرددت قائلًا:

- "الحمد لله".

فابتسم لي وقال:

- "بُص يا (خالد).. إنت زي ابني (محمد) تمام، وإنت عارف إني ما رضيتش أفتح معاك الموضوع ده قبل كده".

كنت أعرف عن ماذا يتكلم، يتكلم عن سر حزني وحديثي الذي أصبح يقتصر على رسالة الدكتوراه فقط، وشرودي الدائم.

- "يا (خالد) انت لسه سنك صغير أوي، ودي سنة الحياة إن يكون فيه موت، وفي يوم من الأيام هاتموت إنت كمان وهاتسيب وراك ناس يحزنوا عليك ويفتكروك، وخصوصًا لو كانوا بيحبوك وفاكرين الحاجات الكويسة اللي إنت عملتها ليهم، والله العظيم أنا عارف إنت كنت بتحبه قد إيه، الله

يرحمه كان طيب وفضل معاك لغاية النهاية، لكن إنت حالك اتغير خالص، من ساعة الوفاة من شهر ٥ اللي فات وإنت بالشكل ده، جسمك بيقل وبتضعف وعنيك حزينة ودايمًا ماشي باصص في الأرض وساكت، لا عمرك تتكلم أو تهزر زي زمان ولا أصحابك عارفين يندمجوا معاك زي زمان".

كان دكتور مصطفى يعرف اثنين من أصدقائي القدامى بحكم أن أحدهم عُيِّن معيدًا في الجامعة، والثاني يقوم الآن بتحضير رسالة الماجيستير.

قلت له وأنا أحاول الابتسام:

- "ما تخافش يا دكتور، يومين وهايعدوا".

- "فاكرني هاصدق كلامك ده؟ يا ابني أنا حاسس بالحزن اللي في قلبك، ومش عارف أعمل معاك إيه، بس في النهاية مش هاقولك أكتر من خلي بالك على نفسك".

- "من إيه يا دكتور؟"

- "من نفسك"

تنحنح الدكتور وقال ووجهه يأخذ طابع الجدية:

- "دلوقت الحالات اللي معاك في الملف ده فيه حاجة فيهم عايز تناقشها؟"

- "والله الحالات اللي حضرتك ادتهالي دي هاتريحني أوي في رسالة الدكتوراه، لكن كان فيه حالة استغربت منها أوي".

- "أهي؟"

تناولت حقيبتي الجلدية من جانبي وأخرجت منها الملف الضخم وأخذت أقلب الأوراق حتى عثرت على ما أبحث عنه:

- "هي مريضة من المنيا وكانت بتقول كلام لأهلها عن إنها بتموت وروحها بتطلع منها بس مش عايزة تطلع".

توقف دكتور مصطفى لحظة وقال وهو يعدل وضع منظاره الطبي:

- "افتكرتها.. دي كانت مريضة بالفصام، وكانت فيه أصوات بتكلمها، ومنهم صوت قوي زي ما كانت بتقول كان بيقولها إنه ملاك الموت وإنه جاي يقبض روحها".

- "أنا عارف الموضوع ده.. بس ما قدرتش أعرف هل هي مريضة بالفصام فبالتالي نتيجة للمرض بالفصام ولاعتقادها إنها بتموت جالها اكتئاب؟ ولّا هي مريضة بفوبيا (خوف) من الموت ونتيجة للخوف ده جالها الفصام وترتب عليه الاكتئاب؟"

- "تشخيص الدكتور اللي بيتابعها عندك بيقول إنها مريضة بالفصام من الأول مجابش سيرة فوبيا الموت، بس إنت ممكن

يكون عندك حق، لو المريض استمر خوفه من الموت وخصوصًا في المرضى دول ممكن أوي تصاب بهلاوس سمعية من الفصام بتقولها إنها هاتموت".

- "أنا شكيت إنها حاولت تنتحر أكتر من مرة علشان تسهل على نفسها خروج الروح زي ما كانت بتسمع الأصوات".

- "ملاحظ إنك شاغل مخك أوي بالموضوع ده، أنا عارف إنك عارف كتير عن فوبيا الموت".

- "لا أنا مش شاغل دماغي بفوبيا الموت؛ لأنها موجودة زي ما حضرتك عارف بدرجات متفاوتة في شريحة كبيرة بين المصريين، أنا بادوَّر على مرض تاني ليه علاقة بالموت".

اعتدل دكتور مصطفى أكثر على مقعده متسائلًا:

- "وضَّح أكتر؟"

- "لما قريت الكتاب بتاع دكتور (**Jacob Edward**)، لقيت كلام عن حالات في القرن السابع عشر أصيبت باختلال نفسي معتقدين معاه إنهم أموات أو جثث".

ابتسم الدكتور مصطفى وهو يقول:

- "مرض نادر جدًّا جدًّا يا (خالد)، المريض بيكون متأكد إنه عبارة عن جثة، وأعراضه فيها تضارب لأن فيه مريض

بيفتكر نفسه إنه جثة لكنه بيتحرك ويتكلم وياكـل ويـروح الشغل وينام، ومريض لما بيصاب بيه بيفتكر إنه مـات فعلًـا وجوة القبر وطبعًا ما بياكلش ولا يشرب ويفضل ساكت، حتى لو حس بالجوع أو العطش بيقول جواه إنه جثة ومش هـاينفع يتحرك من مكانه، والأعراض دي فيها شبه من الاكتئاب لكن مش هو الاكتئاب".

- "يعني أعراضه صعب اكتشافها؟"

- " لا ما اقصدش كده، أنا أقصد إنها شبه أعراض تانيـة كتير".

- "وإيه أسباب المرض ده؟"

- "الأسباب الحقيقية محدِّش يقدر يعرفها؛ لأن المرض مـش منتشر، وبالتالي الأبحاث اللي اتعملت عليه قليلة جدًّا، لكن في حالات من اللي أصيبوا بالمرض ده كانوا اتعرضوا لحادثة عنيفة خلِّتْهُم يعتقدوا إنهم ماتوا بعد الحادثة دي، كأنك مثلًا تتعرض للصعق بالكهرباء، وبعد ما تمر التجربة دي تفتكر إنك مـت نتيجة الصعق ده وإنك دلوقت جثة".

- "ولو عايز أعرف أكتر عن المرض ده؟"

- "إيه يا (خالد)!! عايز تعمل تجارب على المرض ده؟!"

ابتسمت بحق هذه المرة وقلت بعد قليل:

- "مفيش دوريات بتتطرق للحالات دي، ده غير بصراحة إني قريت في كتاب إن الحالات دي بتتصنف تحت خانة الاكتئاب الحاد، لكن أنا حسيت إن ده تصنيف بسبب قصور البحث العلمي في الموضوع ده".

- "أنا برضه زمان سمعت بعض التعليقات عن إن المرض ده بيتصنف تحت خانة الاكتئاب، لكن علاجه بأدوية الاكتئاب عمل حاجة غريبة، حالتين اتعالجوا من وسط ٨ حالات، وده في رأيي فشل لفكرة الاكتئاب".

- "أنا عايز أعمل التجارب، لكن مفيش عندي الحالات اللي أعمل عليها".

نظر دكتور مصطفى في عيني وقال بخبث:

- "التجارب بتبقى بتصاريح يا (خالد)، وإنت استحالة حد يخرجلك تصريح؛ لأنك مش طبيب أمراض نفسية وعصبية، وفي نفس الوقت إنت حتى ما أخدتش الدكتوراه في علم النفس من الكلية".

فهمت لما يلمح الدكتور مصطفى، فقلت أنا بصدق:

- "يا دكتور إنت عارف إن فيه روتين كتير في مصر، وبسببه علم النفس بقى في الحضيض، والأبحاث اللي بتتقدم كلها متكررة وقديمة ونمطية، والتجارب في المعامل النفسية بقت

عبارة عن حبر على ورق، إنت عارف أني عملت تجربة على عينة من البلطجية في ٣ أماكن مختلفة من القاهرة لمدة سنة، وقدمت مع الماجيستير نتيجة التجربة دي اللي تابعتها في الواقع من غير حتى ما أعمل أي حاجة تفصل البلطجية دول عن حياتهم الشخصية.. وزي ما حضرتك فاكر يا دكتور، لما محدش انتبه للتجربة، ومحدش علق عليها أصلًا و...

قاطعني الدكتور وهو يقول:

- "أنا عارف من غير ما تكمل حبك لعلم النفس، لكن التجارب لما بتكون على المرضى النفسيين بتختلف زي ما إنت عارف".

- "التجربة أخلاقية".

- "أيوه الكلام ده تقوله لمدير المستشفى".

- "هو إنت تعرف مستشفى فيها حالات زي دي؟"

سكت كأنه وقع في فخ ثم قال بتردد:

- "أيوه أعرف مصحة فيها حالات زي دي.. بس إنت برضه مش هاتعرف تعمل التجارب إلا بأمر من المدير".

- "أكيد أنا هاخد الطلب ده من المدير".

- "أنا أعرف المدير معرفة شخصية، وعارف إنه هايرفض الفكرة من أساسها؛ لأنه هايعتبرك بتتعامل مع المرضى كأنهم فئران تجارب".

- "وإنت شايف إني من النوع ده؟"

- "لا طبعًا.. بس برده يا (خالد)".

قاطعته أنا هذه المرة وقلت:

- "أنا هاخد موافقة مدير المستشفى".

سكت قليلًا وهو يفكر ثم قال لي بعض لحظات:

- "أنا هاقولك على عنوان المصحة النفسية دي.. بس بشرط".

- "إيه هو؟"

- "مدير المصحة.. عايزك ما تقولوش إني أنا اللي باعتك ليه".

- "حاضر".،

نظر د. مصطفى في ساعته ونهض بسرعة قائلًا:

- "نسيت إني عندي محاضرة لفرقة تانية دلوقت، أنا هاكتبلك العنوان على ورقة وادّيهولك، وبكرة تبلغني عملت إيه".

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها العنوان ثم ودعني وهو يقول لي:

- "أنا عارف إن فكرة الموت دي بقت مأثرة عليك اليومين دول، بس برضه خلي بالك على نفسك".

خرج من الغرفة وتركني أنا أقف بها وألملم أوراقي وأرتبها في حقيبتي الجلدية، ثم أتأمل الورقة التي كتب عليها العنوان..

الورقة كتب عليها:

(مصحة الأمل.. فيصل.. ش حسن حماد.. متفرع من ش العشرين).

لقد نسي الدكتور أن يعطيني اسم مدير المصحة .. على كل حال لا يهم.. وضعت الورقة في جيبي وخرجت من الغرفة، وسرت في ذلك الممر حتى وصلت إلى باب المبنى، حيث أن قسم علم النفس في الدور الأرضي من المبنى، فتحت الباب ونزلت بضعة سلالم حتى وجدت نفسي داخل الجامعة، فكرت.. هل أذهب للمكتبة لتكملة الكتاب الذي كنت أتصفحه أمس، ولكن تذكرت أنني تركت ورق التلخيص في المترل؛ ففضلت الذهاب للمترل الآن.

ذهبت إلى باب الجامعة وأنا أخرج منه محاولًا تجنب زحام الطلاب الذين يدخلون من نفس الباب حتى أصبحت خارج الجامعة، توجهت إلى المترو ودخلت المحطة، دخلت لمحطة قطار المترو وسط الجموع وأنا أنظر بعيني على اللافتة التي علقت على المحطة (الدقي)، قلت في نفسي إنني لن آخذ وقتًا طويلًا كي أصل لمحطتي!!

***

ما هذا الظلام؟ إنه ظلام القبر حيث ترقد الجثث.. بـــالرغم من أن الساعة الحادية عشر صباحًا إلا أن القبر لا يصل لـــه أي ضوء تقريبًا..

العظام الملقاة.. والكفنان القريبان من بعـــضهما.. وذلـــك الكفن المفتوح والذي خرجت يد جثته منه وهي تقبض علـــى حجر اللحد القريب منها.

صوت أنين يتصاعد من الجثة التي تقـــبض بيـــدها علـــى الحجر.. يد الجثة تتحرك مرة ثانية حركة عـــشوائية، حيـــث يحركها صاحبها يمينًا ويسارًا وهو يصدر الأنين، يده الأخـــرى مقطوعة، ولكنه - على كل - لا يشعر بها، وبالتالي لا يملـــك القدرة على تحريكها.. اليد تتحرك محاولة الوصول لنهاية مـــا تستطيع الوصول إليه.

تقبض اليد على التراب بعنف للحظات ثم تتراخـــى مـــرة ثانية.

***

فتحت (داليا) عينيها وهي ما زلـــت نائمـــة في فراشـــها، وسألت نفسها.. هل ما تراه الآن هي (دعاء) تجلـــس علـــى الفراش المقابل لها؟ أغلقت عينيها وفتحتها مرة أخرى لتتـــضح

الصورة أكثر قليلًا، نعم هي تجلس على الفراش تمسك برواية (نصف ميت) تقرؤها بتركيز شديد..

- "إنتي صحيتي إمتى يا (دعاء)؟"

قالتها (داليا) وتأثير النوم ما زال في صوتها فرفعت (دعاء) وجهها من على الورق لتنظر لشقيقتها، عينيها محمرتان وسواد تكون تحتهما!!

- "أنا ما نمتش.. بقرأ دلوقت في صفحة ١٨٨".

نهضت (داليا) واعتدلت على فراشها قليلًا وهي تقول:

- "يا بنتي أنا سايباكي بعد ما صلينا الفجر ونمت، وكنتي إنتي بتقولي إنك مش هاتبدأي فيها إلا بكرة، علشان خفتي من أول كام كلمة من الفصل الأول".

سكتت (دعاء) وكأنها تستوعب كلمات شقيقتها أولًا قبل أن تجيب:

- "بعد ما نمتي قلت أقرأ فيها شوية.. القصة دي فيه كلمة عايز أوصفها بيها".

- "كلمة إيه؟"

- "جنون"..

ابتسمت (داليا) وهي تفرك في عينيها وقالت:

- "إيه رأيك في أحداثها؟"

- "(دينا) و(حازم) بيحبوا بعض ويتجوزوا بعد مشاكل، (حازم) بيألف قصص لكن دور النشر بيرفضوه، لغاية ما يبدأ يألف رواية طويلة اسمها (نصف ميت)، وما يخليش مراته تقرأ القصة إلا بعد ما تتنشر، (حازم) عنده مرض الصرع، وبتجيله نوبات صرع كتير في الفترة اللي بيألف فيها القصة، الولد بيقدر يحرك الحاجات عن بعد وهو في نوبات الصرع، ويقدر يكسر أي حاجة.. دماغه فيها نشاط كهربي زيادة ملوش تفسير، ومحدش يعرف بالموضوع ده إلا مراته، لغاية ما يقعد مع مراته في يوم ويقولها لو مات تقرأ رواية (نصف ميت) كويس، وتحاسب من كل حاجة فيها، وتركز في كل حاجة بتحصل حواليها، دار من دور النشر توافق على نشر القصة، وفي يوم الصبح (دينا) تلاقيه ميت، يندفن بسرعة من أهله بعديها تكتشف إنه قبل موته ورث مليون و ٧٠٠ ألف جنيه من خاله اللي كان عايش في الكويت قبل ما يموت بيومين بس".

كانت (دعاء) تقول الكلمات السابقة بانبهار؛ فقالت (داليا):

- "ما قلتيش رأيك إيه في أحداثها؟"

- "(حاتم) ده طلع مصيبة، بس ليه هو مهتم بالتفاصيل كده جوّا القصة؟"

وقفت (داليا) على قدميها بعد مغادرتها الفراش وقالت وهي تعقص شعرها:

- "أنا بخلّيكي تقري الرواية دي علشان تفهّمـي اللـي بيحصل".

لم تفهم (دعاء) ما المقصود من العبارة التي قالتها شقيقتها، ولكنها راقبتها وهي تتجه إلى باب الغرفة لتفتحه بهدوء..

توقفت فجأة وهي تمسك مقبض الباب!! فجـأة سمعـت (دعاء) صوت بكاء شديد يخرج من شقيقتها، قفزت من على الفراش وهي تضمها لصدرها، و(داليا) تبكي بحرقـة وكأنها انهارت فجأة و لم تحتمل التظاهر بالقوة بعد الآن..

من وسط دموعها وصوتها المليء بالشهقات سمعتها تقول:

- "(حاتم) كان عنده صرع، وكان عنده كهربا زيـادة في المخ أزيد من الحد الطبيعي للي عندهم الـصرع، الحاجـات حواليه كانت بتتحرك وهو في نوبة الصرع.. (حاتم) دور النشر كانت بترفضه الأول يا (دعاء).. (حاتم) كاتب تفاصيل مـن حياته الحقيقية"...

اتسعت عين (دعاء) وهي تراجع تفاصيل الرواية في عقلـها برعب.

الفصل الثاني عشر

قبل أن أعود لمنزلي كان يجب علـــي أن أذهـــب للـــسوبر ماركت القريب من المنزل كي أبتاع بعض الطعام لي، ولأنني لم أذق شيئًا منذ وجبة غدائي أمس.

مع كل هذا الحر في أغسطس أضطر لتناول الكـــثير مـــن العصائر والمشروبات الغازية باستمرار، لذلك اشتريت بعـــض علب العصير وزجاجة مياه غازية ولانـــشون وجـــبن رومـــي وزيتون للإفطار، ودجاجة مجمدة للغداء؛ فأنا أعشق الـــدجاج جدًّا.

أخذت كل هذا واتجهت لعمارتنا، ودخلت المصعد وأنـــا أضغط على زر الطابق الخامس.

دخلت الشقة ووضعت الأشياء التي أحملها على أقرب مقعد لي، ثم جلست على المقعد المفضل لي في الصالة.

أنا (خالد رضا)، أحلم بأن أغير مستقبل علم النفس، حلم يبدو أنه طفولي ولكنه كان حلمي الوحيد منذ الطفولة، ومنـــذ أن كنت أقرأ أي كتاب عن علم النفس تقـــع يـــدي عليـــه، اشتريت عشرات الكتب عن علم النفس من على الأرصفة، و لم أكن قد تعديت الثالثة عشر من عمري..

اشتركت بأكثر من مكتبة كي أقرأ ما يحلو لي ويتعلق بعلم النفس الجنائي والصناعي والتحليل النفسي وعلم النفس العسكري والبيولوجي وعلم النفس التطبيقي، وعشرات التخصصات وقعت تحت يدي في سن صغير، حتى أنني أتذكر أنني وقعت على مجلد نادر داخل مكتبة أحد مراكز الشباب المتواضعة يتكلم عن تاريخ علم الفسيونومي الفرنسي وتحليل دقيق لتطوره عبر التاريخ.

اجتزت المرحلة الثانوية، واتجهت إلى كلية الآداب لألتحق هناك بقسم علم النفس، وأعيش في جنة العلم التي حلمت بها، لا أعتقد أنني تركت كتابًا واحدًا في مكتبة جامعة عين شمس يتكلم من قريب أو بعيد عن علم النفس لم أطلع عليه وأقرأ داخله جيدًا.. طلبت من أساتذتي الاطلاع على الأبحاث القديمة لطلبة الماجيستير ورسائل الدكتوراه، في البداية تجاهلني البعض وابتسم البعض لي مشجعًا، ولكنهم صعقوا عندما لاحظوا أنني في السنة الأولى قرأت كل كتب السنين القادمة في الكلية وأنني أناقشهم في بعض أفكارها، عندها سمح لي البعض بالاطلاع على تلك الأبحاث.. تشبعت بأفكار علم النفس، وشعرت بأنني كلما غصت أكثر داخله كلما شعرت أكثر بالسعادة..

لم يكن النجاح في كل عام صعبًا عليَّ، وخاصة أنه من خلال طريقتي في الكتابة أصبح أساتذة القسم يعرفون ورقة إجابتي ويعلقون عليها بعد إعلان النتيجة..

عند السنة الثالثة اكتسبت حب واحترام الأساتذة وأحببتهم أنا أيضًا، وقد تنبأ الجميع بأنني سأعين معيدًا في القسم، ولكن بعد انتهاء الدراسة رفضت تقديم أوراقي، مما جعـل الجميـع يندهش من تركي لفرصة كبيرة كهذه، ولكني فكرت ألف مرة قبل الرفض، حيث أنني في كل الحـالات سـأقوم بتحـضير الماجيستير والدكتوراه..

ولكن الحقيقة تكمن في سعيي إلى حصولي على وقت كبير كي أتابع الماجيستير والأبحاث الخاصة التي أقوم بعملها منفردًا، معتمدًا على فكرة معامل التجارب النفسية التي أحاول تطويرها من خلال رصد الظواهر أثناء حدوثها وتـشريحها وتحليلـها، وليس أن آتي بمريض وأعزله عن مجتمعه لأراقب تفاعلاته.. بل أراقب المريض بدون أن يدري؛ كي أخرج بكل النتائج الـتي أريدها ويمكنني الحكم بموضوعية على الحالات الفردية.

مجنون أليس كذلك؟ لقَّبني زملائي بالقسم بتلك الصفة بعد أن كانوا يعلمون كل مرة بعد انتهائي من إحدى تجاربي الغريبة أنني أصبت أو تعرضت لمشكلة، جربت العيش مع البلطجيـة وفتوات الشوارع المصرية، وعاصـرت مـشاجراتهم العنيفـة وتضررت بسببها.

وفي بحث آخر مارست الشعوذة لمدة أربعة أشهر بـدون أن يعلم عني أحد، وادَّعيت صلتي بالجان، وأنني صاحب بركات،

وبدأ الناس يتوافدون عليَّ، وكنت أنا أصنف تلك الحالات التي تتوافد؛ لأعرف أن ٨٢% من تلك الحالات لم تكن مصابة إلا بأمراض نفسية أو أوهام أو هلاوس، أما النسبة الباقية فكانت بالفعل بعيدة عن المرض النفسي، وهذا ما جعلني أدرس تلك الحالات بدقة أكثر؛ لأؤمن في النهاية بوجود تلك الخوارق غير المفهومة وأكتفي بذلك في بحثي.. وربما لأن النتيجة التي خرجت بها في بحثي كانت تقوم على مبدأ أن هناك من ينخدعون بمبدأ الوهم بالفعل، ولكن هناك أيضًا من هم مصابون بأعراض غريبة تخرج عن علم النفس أو الطب البشري.

تلك النتيجة لن ترضي الجهات العلمية؛ لذا قررت الاحتفاظ بهذا البحث لنفسي وعدم إعلانه الآن.. جربت الكثير من الأبحاث على فئات كثيرة، حتى اتهمني زملائي بالجنون بعد أن اطلعوا على نتائج الأبحاث، وعلى كلٍّ.. توقفت أبحاثي بعدما فقدت الإرادة على تكملتها بعد ما حدث...

هذا بالنسبة لما يتعلق بحياتي العملية والدراسية..

أما فيما يتعلق بحياتي الشخصية.. فقد توفي والدي قبل مولدي بثلاثة أشهر، وترك والدتي في كنف أهلها، أو بالتحديد كنف جدي العزيز.. تربيت في تلك الشقة منذ الطفولة، وكان أول من أخذ بيدي في صغري هو جدي، ولأن والدتي كانت

تعمل في الشئون القانونية لشركة حكومية، فقد كانت تتغيب صباحًا وتتركني مع جدي.

علاقة غريبة نشأت بيننا نحن الاثنين، كان قليل الكلام كثير الابتسام، وقد كنت دائمًا أغرقه بالأسئلة عن الحياة والكون وعن الأشياء التي أراها، يبتسم لي عندما يسمع سؤالي الغريب أو المحرج غالبًا، ثم يعتدل ويتكلم بنبرته الواثقة وصوته الهادئ القوي الذي يحمل لمحة من الخشونة المريحة للأذن.

يجيبني عن كل ما في رأسي بلا خجل، يشعرني بأنني في مثل عمره، فقد كان يقول لي أكثر من مرة ما رأيك في ذلك القرار أو تلك المشكلة، وكنت أنا أعتدل في مقعدي مقلدًا جلسته الواثقة وأتكلم بنبرتي الطفولية قائلًا رأيًا مضحكًا، فيهز رأسه بمعنى أنه فهم وجهة نظري، وهو يحاول أن يداري ابتسامته عني.

هذا جانب من شخصيته، أما الجانب الأغرب فهو أنه كان شديدًا وعنيفاً لدرجة لا توصف، أرهبه بشدة، وأشعر برعشة تجتاح أطرافي عندما أسمع صوته يناديني.. نعم ليس فيما قلت أي تناقض، لقد كنت أخافه بشدة، وأفكر دائمًا بشكل العقاب الذي يمكن أن أذوقه لو أخطأت.

لن أكون متحاملًا وأقول أنه كان يضربني دائمًا، أو أكون مجاملًا وأقول أنه كان يقبلني فرحًا عندما أخطئ، بل أقول أنه

كان خليطًا من الحالتين بطريقة جعلتني أفكر سنوات وسنوات في حياته.

كيف أحبه بتلك الطريقة، وأخاف مجرد ذكر اسمه بـذلك الشكل؟ أشعر بالأمان بوجوده، وأرتجف من الهلع عندما يجلس بجانبي.. يغلبني النوم على قدميه وهو يربت على رأسي، وأخاف لو لمسني كي لا تكون تلك ضربة من ضرباته.. أريد أن أكون منصفًا معه وأقول أنني رأيته يتعامل مع خالاتي وخالي الأكبر بشدة ممزوجة بالحب، ولكنه كان صارمًا أكثر معهم وأقل صرامة معي..

إذا وبخني أحد أفراد عائلتي في صغري أجري إليه وأحتمي به، وهو يلف يده القوية على خاصرتي؛ فأخرج أنا لساني لهم بكل سماجة وكأنني أتحداهم أن يقترب مني أحدهم أو يرفع صوته.

كنت نموذجًا عجيبًا لطفل تلقّى تدليلًا، ولم يتلقّ في نفس الوقت، لا أتذكر أنني تعاملت بنوع من الأنانية في صغري، ولكن ليس لأنني ولد مطيع، بل لخوفي من جدي إذا لم يعجبه تصرفي، وفي نفس الوقت لا أتذكر تقريبًا أنه رفض لي مطلبًا ولو كان تافهًا.

أحببت والدتي بالطبع، وربتني هي من الصغر، وكانت المنبع الذي لا ينضب لحنان أغترف منه وقتما أريد، لدرجة أنني في

صغري لم أشعر بغياب والدي إلا عندما سمعت كلمة (بابـــا) يرددها زملائي في المدرسة، وأيضًا لم أفهم ما أهميته طالما الجد موجود والأم موجودة!!

شيء آخر غريب.. فبرغم أنني كنت أقضي جل حياتي مع جدي، إلا أنني لم أعلم الكثير عن حياته السابقة، كان قليـــل التحدث كما قلت سابقًا وخاصة عن نفسه.. عرفت مرة أنـــه كان بطلًا في رفع الأثقال في شبابه، ومرة عرفت أنه اختـــرع شيئًا ما يتعلق بموتور البواخر، حيث أنه كان مهندسًا في شيء يتعلق بالنقل البحري.

عشت حياة لم يؤرقها إلا قليل من المشاكل علـــى مرتـــب والدتي ومعاش والدي ومعاش جدي الذي كان يصر أن ينفقه على المترل، وقد باعت والدتي شقتها بعد وفاة والدي ووضعت نقودها في البنك كي تساعدها الأرباح على تربيتي.

كبرت حتى وصلت لسن العاشرة، وقد فوجئنـــا بإصـــابة والدتي بمرض ما لن أذكر اسمه.. لكنه عذبها كثيرًا قبل الموت.. لحظات أكرة أن أتذكرها وأنا أجلس وحيدًا في الشقة أنتظـــر وصول جدي ليطمئني بعدما منعوني من زيارتها..

كان الموضوع يتعلق بعدوى ما وخطرًا على حياتي، ظـــل الحال هكذا لعام كامل، حتى جاء جدي للشقة في مرة ومعـــه

رجال الأسرة ونساؤها.. النساء يحطن بي ودموع متجمدة في أعينهن تنتظر لحظة الانفجار، الرجال يتمالكون أنفسهم..

جدي يجلس أمامي وأرى يداه ترتعشان!! يا للهول!! منذ متى ويد جدي ترتعش؟! منذ متى وهو يلتقط أنفاسه بصوت عال ويبلع ريقه بتلك الطريقة؟! ابتسمت له.. فقال لي إن والدتي توفيت اليوم صباحًا، وإنهم استخرجوا تصريح الدفن ودفنوها.. ظلت ابتسامتي مرسومة على وجهي وقلت ببساطة: "يعني مش هاينفع أشوفها دلوقت خلاص؟"

سمعت عندها نحيب نساء أسرتي وتشنجاتهم، والدموع بدأت في الظهور في أعين الرجال. كررت سؤالي فهز جدي رأسه نافيًا، فقلت: "يبقى هاشوفها بعد ما أموت إن شاء الله، وأكيد هي مرتاحة".

توقفت بعض النساء عن البكاء، ونظر كل واحد إلى رفيقه بدهشة مغلفة بالعطف، ولكن جدي ابتسم قليلًا وهو ينظر في عيني وأنا أنظر في عينيه.. نظراتي كانت تقول له اطمئن فأنا لن أبكي، ونظراته تقول لي إنه يعرف أنني أتمالك نفسي أمام عائلتي.. ثم انتظرني جدي لأبكي، ولكنه لم يشاهدني وأنا أبكي منذ تلك الواقعة، والحقيقة أنني حاولت البكاء.. نعم حاولت البكاء.. فلم أفلح، المشكلة أنني أحاول البكاء على أمي التي

يصر عقلي على أنني لم أفقدها بعد.. آخر مرة رأيتها كانت ليلة أن جاء خالي من معمل التحاليل وأيقظها من النوم، حيث كانت تنام بجانبي، وسمعتها تتحدث هامسة معه كي لا توقظني...

قال لها إن العينة التي أخذوها منها موجبة، وإنها مصابة بهذا المرض فعلًا، فقالت له أن يخفض صوته قليلًا كي لا أستيقظ!! بالطبع كنت مستيقظًا أستمع لحديثهما، عندما قال خالي إنها يجب أن تحتجز في المستشفى من صباح الغد، ردت هي عليه بأن يجهز لها ملابس كافية ويتركها الآن كي لا أستيقظ من النوم.

خرج خالي من الغرفة وفتحت عيني لها، فسألتني عن سبب استيقاظي، وقد اندهشت عندما قلت لها أنني سمعت الحديث الذي دار.. ابتسمت وقالت: "تفتكر أنا خايفة من الموت؟"

فزعت عندما سمعت كلمة موت واتسعت عيني، فضمتني لصدرها وقالت لي: "اللي يزعل وهو رايح يقابل ربنا يا حبيبي ربنا يزعل من مقابلته هو كمان".

قلت أنا بصوت مكتوم: "وهو إنتي هاتموتي يا ماما؟"

- "لا يا حبيبي.. الموت دي كلمة وحشة، قول أني رايحة أقابل ربنا".

- "أمَّال هاتُخشِّي المستشفى ليه لو عارفة إنــك هاتقـابلي ربنا؟"

قلت العبارة الأخيرة ووالدتي تشعر بدموعي الساخنة تبلــل ملابسها، فقالت لي بهدوء:

- "يمكن ربنا يخليني كويسة ويأجِّل المقابلة شوية علــشان أكمل تربيتك وأجوزك وأشيل عيالك يا (خالد)، ويمكن ربنــا يحب يقابلني دلوقت زي ما أنا حابة أقابله".

- "وتسيبيني لوحدي يا ماما؟"

- "أسيبك لوحدك إزاي وأنا مطَّمِّنة إن ربنــا معــاك يــا حبيبي؟! مين عارف بكرة هاتكبر وتتجوز وتخلف عيــال زي القرود، وتعلمهم إنهم ما يخافوش من مقابلة ربنا".

محادثة غريبة.. كان من المتوقع مني أن أبكي بحرقة وأتشنج وأصيح وأصرخ، لكني وجدت نفسي هادئًا بــسبب هــدوء والدتي.. وفعلًا شعرت بأن الموضوع ليس صعبًا لهذه الدرجــة مع الابتسامة في وجه والدتي، وصوتها الهادئ الحاني، ويدها التي تتحرك على شعري بحنان.

- "نام يا حبيبي دلوقت وما تخافش".

رفعت رأسي الصغير عن صدرها ونظــرت لهــا بخــوف، فقالت:

- "إنت مش بتصدَّق كلامي؟"

- "آه".

- "يبقى صدّقني لما أقولك إني جنبك يا (خالد) في كل وقت ومش هاسيبك".

نمت على صدرها باطمئنان مرة ثانية، وبعد دقائق، وقبل أن أذهب في النوم.. سمعتها تهمس قائلة:

- "ما تخافش يا حبيبي.. لو مُت.. هاستناك عند ربنا عشان نبقى مع بعض".

وكانت هذه هي آخر محادثة دارت بيننا حتى هذه اللحظة، لأستيقظ فلا أجدها بجانبي، وأعرف أنها ذهبت للمستشفى.

هذا هو السر الذي جعلني لا أبكي ولا أفتقدها؛ لأنني أشعر بأنها سعيدة الآن، وبأنها معي في كل لحظة تنتظرني كي آتي لها.

ظل جدي ينفق عليَّ من معاش والدتي ووالدي ومن معاشه، بجانب الأرباح البنكية التي تركتها والدتي، وانتقلت الوصاية إليه، خصوصًا أن والدي بلا أقارب تقريبًا، دخلت المرحلة الثانوية ثم الجامعة وانشغلت بالجامعة..

مع الوقت كان يجب أعلم أن جدي ليس هو العملاق الذي لا يشيخ ولا يصاب بأمراض ولا يشعر بالألم، لقد كبر جدي حقًا، ولكن ابتسامته وقوة يده ونشاطه منعوني من تصديق ذلك.

كبر حقًّا، ولكن عقله الراجح وجلسته معي كل يوم صباحًا بعد صلاة الفجر، والتي كان يصر أن يصنيه حتى بعد أن وصل للثمانين في المسجد، وأن أرافقه أنا للمسجد، ثم ننتهي من الصلاة ونعود للمنزل، لنجلس في الشرفة ككل يوم منذ طفولتي يقول هو الأدعية ويستغفر الله على مسبحته الطويلة بصوت خفيض لا أتبين منه إلا همهمات ويتناول الشاي بلبن مشروبنا المفضل وأتناوله أنا معه وننظر للشروق ونتكلم معًا عن الحياة والناس.

لم أشعر بسنه حتى توقفت تلك الجلسات من جانبي، بالطبع بعد تخرجي وتحضيري لرسالة الماجيستير والانشغال بأبحاثي الغريبة صرت أنام ساعات النهار وأسهر ليلًا حتى قبل الفجر ليغلبني التعب وأنام قبل أن يستيقظ هو... فوجئت بعد حصولي على الماجيستير بأنه أصيب بالسرطان !!!!

لم أكن أعرف شيئًا عن السرطان سوى بعض المعلومات البسيطة لذلك ظللت متخوفًا ونحن نجري على الأطباء ونقوم بالتحاليل وقد علمنا أنه يجب أن يجري تلك العملية لاستئصال الورم، الورم الذي أصبح خبيثًا ويجب علينا التسريع بالعملية.

كان يطلق النكات على ليسري عني خوفي الواضح على وجهي، ويقوم بالسخرية من الأطباء الذي يعالجونه ويضحك بصوته القوي.. لكن ذلك لم يخدعني: أنا أقرب الأشخاص إليه

وأعرف جيدًا أنه ليس من تلك النوعية التي تواجـه المـرض بالسخرية..

كانت سخريته ونكاته وضحكاته ليبث داخلي الاطمئنان، لقد أراد أن تظل صورته في عيني كما هي عن الرجل الذي لا يخشى الألم.. الألم يمزقه ولكنه يأبى أن يصرح به في وجودي.

تمت العملية وارتاح جدي كما كان يقول لنا جميعًا ونحـن نقف حوله بعد خروجه من المستشفى، خالاتي يتناوبن خدمته يومًا بعد يوم حتى استرد عافيته بعد شهر وأمر بـأن لا تـأتي إحداهن مرة ثانية للمنزل وتترك بيت زوجها.

فرحت وأنا أرى العملاق يعود من مرقده مرة ثانيًا ليقـف شامخًا أمامي.

داومت معه على الذهاب لجلسة العلاج الكيميائي وعلـى أخذ الدواء اليومي حتى لا تنشط الخلايا السرطانية في جـسده ويعود السرطان، بعد المداومة على إيصاله للمستـشفى بـضع مرات رفض بعد ذلك أن أذهب معه مؤكدًا علـي أن أعـود للتحضير لرسالة الدكتوراه مرة ثانية، بعد مناوشات لم أكـن لأكسر له كلمة بعدما أكد خالي أنه سيـصطحبه في سـيارته لمواعيد العلاج الكيميائي وأكدت خالاتي على أنه سيداوم على الأدوية.

عدت أنا بقوة لرسالة الدكتوراه ولكن زادت أبحـاثي وزاد جنوني هذه المرة وأصبحت أتغيب عن المترل بالأيـام وأعـود منهكًا لأنام، ولأول مرة منذ أن ولدت لا أشـاهد جـدي إلا كل فترة مع الاطمئنان عليه من خالاتي وعلى رعايته..

قررت السفر للمنيا لمدة عشرة أيام لأغطي مجموعة حالات في المستشفى الجامعي ستكون نتـائج تغطـيهم مفيـدة لي في الرسالة، وفي اليوم العاشر تلقيت الهاتف الذي يقول لي بفزع " جدك بيموت "

تركت ملابسي في غرفتي بالفنـدق وحـتى أوراق بحثـي وحاسبت الفندق ورجعت القاهرة مستقلًا القطـار، عنـدما عدت لمترلي فوجئت بالكارثة، أدخل الشقة فأجد الجميع يجلس بالصالة حزيني الأوجه، أقارب لم أرهم منذ أعوام وأقـارب لم أعرف وجوههم والكثير من الأطفال.

نظرت في أعينهم جيدًا وأنا أتمالك أعصابي وأغلقت بـاب الشقة واتجهت لباب غرفة جدي وفتحتها.. فراش جـدي في آخر الغرفة الواسعة وبجانبه الدولاب العتيق القديم الضخم الذي يحتفظ به جدي بجانب الفراش كنوع من الـذكرى لزوجتـه الراحلة، خالاتي يجلسن بجانب الفراش على المقاعـد الخـشبية وخالي يقف أمامه ينظر إليه..

اقتربت من الفراش وأنا أنظر لهم قبل أن أقف أمام جـــدي النائم وجسده يرتعش، لا ليس هذا جدي الحبيب، نحل جسده وظهرت عظامه وضاقت عيناه؟!!

نظرت بحدة لإحدى خالاتي فتكلمت بين الدموع أن جدي توقف عن أخذ الدواء منذ أسابيع وأنه قال لهم ذلك منذ أيـــام لأنه كان يكره الدواء بسبب شعوره بالغثيان عنـــد تناولـــه.. اتسعت عيني في غضب، أكملت قائلة بأســـى أنـــه منـــذ أن سافرت أنا وهو يكره تذوق الطعام ويشرب المـــاء بـــصعوبة ويشتكي من ألم بمعدته، وعندما غصبوه أكثر من مـــرة علـــى تناول الطعام تقيأ ما في معدته بسرعة..

كل هذا وهو يردد في كل ثانية لهم " محدش يقول لخالد ".. تسارعت دقات قلبي وأنا أتخيل ما حدث، قال خالي بدون أن يلتفت لي أن جدي أوهمه أنه سيذهب إلى جلـــسات العـــلاج الكيميائي معي واعتقد خالي أنني أذهـــب بـــه للجلـــسات في موعدها، ولكنه فوجئ به يخبره أمس أن ذلك لم يحدث.

قلت بصوت مبحبوح:

- " حد جاب دكتور "

ردت إحدى خالاتي بأن الطبيب قد أتى منذ ساعات وهو يقول أن جسده صار مليئًـــا بـــالأورام الـــسرطانية ونقلنـــاه

للمستشفى وقد انفرد ثلاثة من الأطباء بخالي وقـالوا لـه أن المريض يموت الآن ومن الأحسن نقله للمترل حتى لا يواجهـوا مشاكل في استخراج الجثة من مشرحة المستشفى.

أنا فقدت القدرة على الوقوف ، أريد أن أجلس.. تحسست بيدي أقرب مقعد لي فقربه أحدهم مني وجلست عليه أنظـر لجدي.. ها أنا أنظر الآن لجدي الراقد يرتعش.. قدمه تتحـرك قليلًا وصوت أنفاسه يعلو وكأنه يتـنفس بـصعوبة وصـوت حشرجة يتعالى من حنجرته.

نهضت ووقفت أمام فراشه وطلبت من الجميـع مغـادرة الغرفة للحظات، لم يسمعني الجميع في البداية لكـني كـررت طلبي بنبرة أعلى فأمرهم خالي بأن يغادر الجميع الغرفة ثم تبعهم للخارج.

أغلقت باب الغرفة وعدت لأجلس علـى الفـراش وأنـا متمالك نفسي وأتكلم مع جدي مغمض العينين قائلًا:

- " مش عارف انت سامعني دلوقت ولا لا، أنا (خالد) يا جدو، حفيدك اللي كل اللي حواليك بيقولوا عليه ابنك، يااااه بقالي كتير ما اتكلمتش معاك زي زمان، كوباية الشاي بلـبن والبقسماط اللي كنت بحب أكله وأعمل صوت ببقي وانـت تضحك علي وتقولي أنت فاكر نفسك فار... أنا هاكلمـك دلوقت وعايز أسألك على حاجة، انت ليه ما أخدتش الدوا يا

جدو؟ ليه ما روحتش جلسات الكيمياوي؟ أقولك أنا ليـــه.. انت أكيد زعلت مني الشهور اللي فاتت دي، زعلـــت مـــني علشان مش حاسس بيك.. مبقتش أقعد معاك زي زمـــان ولا باتكلم معاك ولا بسأل كل يوم عن الدوا والعـــلاج.. خـــالتو بتقول إنك كنت بتتعب من الدوا علشان كده بطلته.. بطلتـــه ليه يا جدو؟ بطلته علشان بتتعب منه بس والا علشان حاسس إنك مش فارق معايا؟ لما بطلته السرطان انتشر في جسمك يـــا جدو، أكيد انت ما كنتش تعرف، كنـــت فـــاكر الموضـــوع بسيط.. "

قلت حركة جدي ورعشاته بينما وجهي يحافظ على جموده

- " أنا اللي عملت فيك كده.. سيبتك وما اهتمش بيك، أيوه أنا ما اهتمتش بيك ونسيتك وكنت أنـــا الوحيـــد اللـــي المفروض أسأل على الدوا ومواعيده وأعرف حاسس بإيه كـــل يوم. أنا دلوقت واقف قدامك وانت بتموت ومـــش عـــارف أعمل إيه دلوقت؟ يا ترى لـــو انـــت ســـامعني يـــا جـــدو هاتسامحني؟؟؟ أنا أسف "

حركة جدي قلت تمامًا ووجدته ينقلب على جنبه الأيمـــن فساعدته ببطء، انتظم تنفسه وخفت حركته فقبلته على جبينه وابتسمت وأنا أعود لأجلس تلك المرة على مقعدي..

تحدثت مع جدي، تكلمت معه، قلت له النكات، من وقت لآخر يفتح أحدهم الغرفة لينظر لنا فتقابله نظراتي القوية تـــأمره

بإغلاق الباب فينظر لجدي وينظر لي ويطمئن أنه مازال على قيد الحياة ويغلق الباب بعدها، ظللت ساعات أجلس في الغرفة ومن وقت لآخر يتقلب جدي بصعوبة فأساعده على التقلب حتى انتصف الليل وبدأ الجميع يغادر الشقة ما عدا خالاتي وخالي ونام الجميع في الخارج وظللت أنا ساهرًا حتى وجدت جسده وهو نائم على ظهره ينتفض على الفراش، وقفت على قدمي بسرعة محاولًا تهدئته لكنه فتح عينيه ونظر لي والتقت عينه بعيني.. وشعرت بقلبي ينقبض، نظرته لي لم ينظرها لأحد في حياته، نظرة يستنجد بي بها وأنا أشعر بقلبي ينقبض أكثر.. يدي على جسده تحاول تهدئته وهو ينظر لعيني وجسده يتحرك حركة بسيطة لا إرادية منه ويرتعش ويده ترتفع وتنخفض وأنا أحاول أن أمسكها

- " ما تخافش يا جدو أنا هنا "

أقولها بصوت متهدج فيزداد جسده في الارتعاش وتقع عيني على قدمه فأجد أنها تتصلب فجأة وتتوقف عن الحركة فأنظر لعينيه وأنا ألقنه الشهادتين بصوت عال واردده بسرعة وهو يجذب يده من يدي فاتركها ولكنه أمسك رسغي بعدها وقبض عليه ثم هدأت نظرة عينيه فجأة وهدأ جسده ورأسه يميل يمينًا على الوسادة وبعض قطرات من الدماء تتساقط من جانب فمه.

ما هذا؟ هل مات؟ أين هو الآن؟ أين أنت يا جدي..

ماذا شعرت وأنت في سكرات الموت؟

ماذا شاهدت؟ لماذا نظرت لي هكذا؟ هل تألمت أمي مثلك وهي تموت؟ لقد كنت أنا السبب المباشر في موتك.. أنا أعرف أنه قدرك ولكن الأمور تجري بأسباب وأنا كنت السبب، أنا قاتلك يا جدي، أنا قاتلك يا من ربيتني.. نهايتك كانت على يدي أنا.

غطيت وجهه بهدوء والدمع يأبى الخروج من عيني، وفتحت باب الغرفة ليقابلني من استيقظ من النوم من صوتي وأنا اردد الشهادتين يتسألون فقلت لهم بهدوء أن جدي مات ومن الأحسن ألا أسمع أي أصوات صراخ والا استخدمت يدي لاسكت من يصرخ.

لم تصدقني خالتي في البداية ولكن عيني كانت صادقة وهي تنظر لهم بحدة وخالي يقتحم الغرفة في حين قلت أنا من يريد أن يلقي نظرة عليه يدخل منفردًا أما من يريد الصراخ فسأطرده بهدوء قبل أن يفكر في الصراخ..

حاولت إحدى بنات خالي المتواجدات الصراخ ولكنها اصطدمت بعيني تنظر لها بغضب وأنا اقترب منها فخافت أن استخدم يدي بالفعل فكتمت صرختها بصعوبة.

دخلت غرفتي وأنا أجلس على فراشي أفكر مات والدي ووالدتي وجدي، آخر من يربطني بأسرتي الحقيقية لحق بعائلتي،

والدتي أشعر أنها بجانبي لذلك لست حزينًا بهذا القدر عليها، أما والدي فأتمنى أن أراه لمرة واحدة فقط، اريد أن احتضنه وأقبلـــه وأنام على صدره.. أما جدي فهو من أتمنى أن أتحـــدث معـــه لثانية واحدة فقط.

أريد أن أتكلم معه لثانية، أريده أن يسامحني على ما فعلـــت بحقه، أريد أن أبكي أمامه وأطلب الصفح منه.

حاولت البكاء وأنا في هذا الوضع فلم استطع.. أعتقـــد أن حياتي ستنتهي بموت جدي وعلي انتظار موتي أنا الآخر لألحق بأسرتي للعالم الأخر.. وأن أمر بنفس المراحل التي مروا بها.

***

الفصل الثالث عشر

الساعة الواحدة ظهرًا

صرخة الأم تخترق الحارة الجانبية الهادئة لتعلن عن وفاة ابنها الأكبر ذو الستة عشر عامًا.. الرجال في الدكاكين يهرولـــون للمنزل الذي خرج منه الصراخ، هذا صبي الميكانيكي الـــذي أرسله سيده ليستطلع الأمر، وهذا الشاب الذي يعمل في محـــل البقالة الصغير على أول الحارة وهـــذا وهـــذا وهـــذه وهـــذه والكثيرين يركضون إلى هذا المنزل المكون من ثلاثـــة طوابـــق ويصعدون إلى الطابق الأخير وهم يسمعون باقي الـــصرخات تخرج منه..

لا حول ولا قوة إلا بالله

لقد توفي (علي) ابن (سيد محروس) السائق لعربة إســـعاف تلك المستشفى التي لا يعرفون اسمها، تقول والدته أنه لم يستطع الاستيقاظ باكرًا وطلب من والدته أن تتركه لينـــام وبالفعـــل حاولت إيقاظه الآن ولكنها اكتشفت أنه فارق الحياة، حاولت النساء تهدئة الأم والرجال يتأكدون من الجثة والأشقاء يحاولون الدخول للغرفة والرجال يهدئون من روعهم، ظل الحال بهـــذا الارتباك حتى قال أحد الأشقاء:

- " حد يكلم بابا بسرعة "

قالها الشقيق الصغير فهرع الجميع يستفسر عن رقم الهاتف المحمول للأب، من كان يتخيل أن هذا الأب قد شارك الليلة السابقة في دفن ثلاثة جثث لفاقدي الأهلية، من كان يتخيل أنه بيده أدخل الجثث للمقبرة وقبض ثمنهم.. ترى كيف سيتقبل خبر موت أحد أولاده؟

***

وقفت (داليا) و (دعاء) في المطبخ وتلك الأخيرة تقول بابتسامة صافية:

- " ما تخافيش يا بت أكيد (حاتم) كويس بس انتي اللي خايفة على الفاضي "

توقفت (داليا) عن متابعة الطبخ ونظرت لوجه شقيقتها الذي طغى اللون الأحمر عليه وزادت الهالات السوداء تحت عينيها وهي تجاهد لتفتحهما كي لا تنام وتترك شقيقتها لحيرتها.

- " بطلتي قراية ليه يا (دعاء) في الرواية؟ "

- " قلت أرتاح شوية وأعمل معاكي الغداء علشان بابا وماما لما يجيوا، أكيد مش هاسيبك لوحدك "

قالت (دعاء) العبارة السابقة ثم تبعتها قائلة بعد ثوان وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- " هو انتي ليه فضلتي مصممة أقرأ الرواية بعد ما الصور اللي صورتهالك طلع فيها لون اسود؟ "

- " لما تكملي قراية هاتعرفي كل حاجة؟ "

فجأة سمعت الفتاتان صوت طرقات عالية على باب الشقة فانتفضت (داليا) وهي تشهق وعينيها تتسع مما جعل (دعاء) تنظر لها مندهشة وكادت أن تقول لها شيئًا لولا أن (داليا) أمرت (دعاء) بأن تفتح باب الشقة..

حاولت (دعاء) أن تفتح فمها للكلام ولكن صوت الطرقات عاد مرة ثانية... كانت ثلاثة طرقات يفصل بين الطرقة والأخرى ثانية واحدة فأصبحت بطيئة.

ذهبت (دعاء) لتفتح الباب واقتربت منه فعاد صوت الطرقات قبل أن تفتحه بثوان فانتظرت حتى انتهى الطارق من الطرق وفتحت جزء صغير من الباب لأن هناك سلسلة تتصل من الباب للحائط حتى لا يسمح للباب بأن ينفتح للنهاية بل تعطله السلسلة كي تتأكد من الطارق أولًا.. فتحت الباب قليلًا لتشاهد من وراءه من يطرق الباب ولكنها وجدت الفراغ !!!!

دارت بعينيها جيدًا، لا يوجـــد أي شـــخص؟؟؟ نزعـــت السلسلة وفتحت الباب بالكامل ونظرت جيدًا وهي تقـــول في نفسها من هذا الذي يستطيع أن يطرق الباب وفي خلال جزء من الثانية يختفي من أمامه؟

أغلقت الباب وعادت مرة أخرى للمطبخ شاردة ولكنـــها قبل أن تتخطى باب المطبخ سمعت (داليا) التي تقـــف منـــشغلة أمام الموقد تقول لها:

- " لما فتحتي الباب ملقتيش حد، صح؟ "

فتحت (دعاء) فمها مندهشة فقالت (داليا) وهي مازلـــت تعطي ظهرها لها:

- " الباب هايخبط دلوقت تاني، أوعي تفتحيه لانك مـــش هاتلاقي حد وراه "

هنا دوى صوت الطرقات على الباب فتصلبت (دعـــاء) في حين أن (داليا) أدارت وجهها لها وهي ترتعش ودموع تتكون في عيناها.. ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعي.

***

- " لو مش مصدقني شوف بنفسك "

قالتها (دينا) لشقيقها الذي يقف بالقرب من الباب، بلع ريقه وقال:

- " ازاي عرفتي إن محدش ورا الباب قبل ما أفتحه؟ "

وضعت يدها بين كفيها و(أحمد) يقف متجمدًا عند مكانه بالقرب من الباب، لم تمر فترة كبيرة إلا وقالت (دينا) وهي مازالت تضع رأسها بين كفيها:

- " دلوقت الباب هايخبط لأخر مرة "

عندمنتصف العبارة عادت الدقات القوية على الباب فجرى (أحمد) ليفتح الباب مرة ثالثة ولم يجد من يطرقه!!!! عندما نظر لشقيقته الجالسة وجدها تتناول من على المنضدة الجانبية رزمة الورق التي أصبحت لا تفارقها وهي تقول:

- " (حازم) عايز يكلمني "

اتسعت حدقتا عين (أحمد) وهو يتأمل شقيقته قائلاً:

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

المقبرة.. الظلام الرهيب والجو المقبض، الجثث المتناثرة.. جميع الجثث تحولت لعظام متناثر أو عظمة وحيدة أو أشياء غريبة لا تعرف ما هي، الجثتان الوحيدتان اللتان قد كفنا بالكفن الأبيض إحداهما للشاب مفصول الجسد ذو اليد

المشوهة والوجه المحروق المدمر والذي كان يمسك بيده اليمنى علبة الخاتم قبل أن ينتزعها منه (هادي)، أما الآخر ذو اليد اليمنى والوجه المحروق وعينه اليسرى التالفة.. هذا هو الذي كان على قيد الحياة قبل أن يدخلوه القبر.. إنه الآن يتحرك بصعوبة زاحفًا على تراب القبر وهو يصدر من حنجرته صوت مكتوم يجاهد لينال الهواء وذاكرته لا تعيد إليه التفاصيل الكاملة.

ظلام يحيط به فلا يرى بعينيه الوحيدة، رائحة ثقيلة لا يتحملها جهازه التنفسي، لا يشعر بيده اليسرى ولكنه في نفس الوقت بدأ يشعر بضغط على كتفه الأيسر في موضع القطع، يده تتحسس التربة بلا فهم وهو يجاهد ليتذكر ماذا حدث له، زحف لجزء بسيط لجانبه ولكنه استغرق دقيقتين ليزحف بضعة سنتيمترات، اصطدمت يده بملمس قماشي فأمسكه بعنف محاولًا تمييزه وكأنه وقع على كنز سيفسر له أين هو الآن ويمكنه أن يتوقع المكان الذي يزحف داخله.

تحسس بيده الوحيدة الشيء القماشي بروية حتى وصل إلى جزء ليس قماشي !! ملمس طري جعل يده تنتفض لأول وهلة، عادت يده لاستكشاف نفس المنطقة فشعر أن هناك شيء لزج يلتصق بيده من ذلك الجزء الطري، فجأة وصلت المعلومة لرأسه وكأنها صاعقة كهربية سرت في جسده.

إنه يتلمس وجه إنسان مليء بالدماء، ظلام وتراب من حوله وملمس قماشي داخله رجل.. إنه داخل القبر الآن ، لم يتحمل الفكرة وفقد وعيه في الحال.

***

الفصل الرابع عشر

لقد طمعت في الغداء بدلًا من الإفطار كما كنت أنـــوي، قمت بإعداد الدجاجة المجمدة التي اشتريتها وحشوتها بالبـــصل والطماطم والفلفل وبعض التوابل وأدخلتها الفرن وقمت بسلق المكرونة وأنا بين الحين والآخر أتوجه لغرفة نومي كي أبـــدل ملابسي وأعود سريعًا لمتابعة عمل الصلصة وهي تنضج علـــى النار.

كنت أفكر في الطعام وبجانبه أفكر في موضوع المصحة التي سأذهب إليها اليوم كما قال لي د / مصطفى، فكـــرت فيمـــا سأفعله عند الرجوع من المصحة وفي شكل بحثي تلـــك المـــرة حيث أنني سأقوم بالبحث على مرضى في مصحة وليس مرضى في ظروف طبيعية أي أن البحث سيتأثر بظروف الضغط الذي يتعرض له المريض من خلال جو المستشفى.

لا يوجد حل إلا أن أحاول مراعاة شـــكل الأســـئلة الـــتي سألقيها على المرضى وطريقة التعامل التي ستحدد صدقهم من كذبهم معي، ظللت أفكر في تلك الأمور وأنا أقـــوم بمتابعـــة الطعام من وقت لآخر وأجلس في الصالة أمسك ببعض الأوراق أخط عليها بعض الأسئلة كي لا أنسى وفي نفس الوقت أذكر

نفسي بطرق المعاملة التي سأعاملها للمرضى عن طريق كلمات أتركها في أماكن معينة بالورق ترشدني لطرق التعامـــل ومـــتى أبدلها أو أتوقف عن العمل بها مع المريض إذا اتخذ نـــوع مـــن الحيل الدفاعية.

نضج الطعام فنقلته للمائدة وحاولت أن أفتح التلفاز كـــثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدوا أن الكهرباء لا تصل مـــن الأســـاس لدوائره الداخلية، لا يهم أخرجت من مكتبتي كتابًا لـــدكتور مصطفى زيادة رحمه الله ولكني تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام فأخرجت كتابا آخر قديمًا لدكتور / فرج عبد القادر طه الذي كنت أشتري كتبه منذ طفولتي..

كان كتابًا عن مبادئ علم النفس فتحته لأنشط معلومـــاتي بلغة الكتاب السهلة الممتعة وأخذت الكتاب وجعلته بجانبي أقرأ قليلًا من الصفحة ثم أمضغ بعض الطعام حيث أن تلك الطريقة كنت استخدمها في صغري وأنا أتناول الطعام بدلًا من مشاهدة التلفاز..

انتهيت من الطعام فرفعته من على المائدة ودخلت الحمـــام لأغسل يدي من أثر الطعام أغلقت الباب على نفسي ووقفت على حوض الغسيل ومددت يدي لأفتح الصنبور ولكن مـــرآة الحمام جذبتني قليلًا.

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا.. أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثـة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، يالـلـهول يالهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن.. أم أن ماذا؟

ابعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف ممـا فهـم.. حـاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة.

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟؟؟؟؟؟؟ توقفت لدقيقة أنظـر للمرآة بنوع من التركيز محاولًا تأمل السطح المصقول وهل بـه مشاكل في التنظيف !! لا جدوى من ذلك فانعكـاس بـاب الحمام يظهر بالمرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر.

فتحت الصنبور بشرود وأنا أغسل يدي بالصابون والمـاء.. انتهيت وخرجت على الصالة وأنا أفكر في المرآة؟؟ لماذا لا يرى شخصًا ما انعكاسه في المرآة، لقد مر علي قبل ذلك نوع مـن هلاوس الفصام واضطراب الشيخوخة جعل المـريض يـرى انعكاسات صور لأشخاص أخرين عندما ينظر للمرآة.

وفي حالة أخرى وجد المريض صورة طفل صغير ينظر إليـــه من الجانب الآخر للمرآة.

هل أصبت بمرض نفسي؟؟ هل هو إجهاد؟ ربما لأنني أسهر الليل في القراءة والبحث وأنام في بعض ساعات النهار فأصبت بتلك الهلاوس، بالطبع لن أصرخ وأقول أنـــني مجنـــون وأنـــني مصاب بمس من الجان أو العفاريت، لقد قابلت حالات مـــن الجنون التي يرى المريض فيها أشخاصًا يتحدثون معه كل ليلـــة فلن أفزع من هلاوس بصرية، ولكن يجب علي معرفة سرها.

على كل حان الوقت لأنام قليلًا حتى أكون في كامل وعيي عندما أذهب للمصحة.

هل أنظر لمرآة غرفة نومي قبل أنا أنام؟ لا لن أفعل سأحاول تمالك أعصابي لأنام قليلًا.. دخلت لفراشي وأنـــا أردد بعـــض أدعية النوم، قبل أن أنام شعرت ببعض الألم في عيني .. أعتقـــد أن عيني تأثرت هي الأخرى بالإجهاد.

***

(دعاء) بدأت تفقد أعصابها فعلًا، عدم النوم، شقيقتها الـــتي فقدت وعيها أكثر من مرة، الرواية الغريبة.. كل ذلك يدعوها لأن تفقد أعصابها ولذلك فقد بدأت بنقل شقيقتها من المطـــبخ وهي تنادي على شقيقها الأصغر الذي أصابه الرعـــب وهـــو

يشاهد شقيقته (دعاء) تحاول أن ترفع (داليا) من على الأرض لتسند جسدها وتجرها لغرفة النوم.

صرخت (دعاء) في شقيقها بأن يحضر لها زجاجة العطر من الغرفة بسرعة.. جرى الصغير للغرفة وهي تحاول أن تجر شقيقتها بصعوبة وقد تذكرت أنها طلبت من شقيقها أن يحضر زجاجة العطر من غرفتها وهي ذاهبة بداليا إلى الغرفة الآن.. لقد فقدت عقلها.

نادت على الصغير بأن يظل بداخل الغرفة، وبالفعل استطاعت نقلها إلى فراشها ووضعتها على الفراش وجلست هي تلهث على الفراش الآخر ثم تذكرت شقيقتها الراقدة على الفراش فهرعت تأخذ زجاجة العطر من الصبي الصغير وتحاول إفاقة (داليا) برائحتها، نجحت بعد ثوان في تنبيه (داليا) مع بضع ضربات خفيفة باليد على خديها كي تفيق.

جلست بجانبها وهي تشعر بالإجهاد يتملكها ولكنها تحاملت على نفسها وطلبت منها تفسيرًا لما حدث فتذكرت (داليا) الأحداث وكاد وجهها ينقلب مرة أخرى لولا صرخة من (دعاء) أفزعتها، لقد بدأت (دعاء) تخرج عن شعورها بالفعل وهي تطلب تفسيرًا لما يحدث حولها:

- " انتي قولتي إنك وقفتي لغاية فين في الرواية "

قالها (داليا) بنوع من الإرهاق فردت (دعاء) نافذة الصبر:

- " لغاية ما مات الكاتب وأهله دفنوه "

- " كملي بعديها هاتفهمي "

صاحت (دعاء) بغضب:

- " أنا اتخنقت هاتقولي وألا لا "

قالت (داليا) بإصرار:

- " اقري وانتي هاتشوفي بنفسك "

كان الصبي ينظر لهم برعب فنظرت له (دعاء) وأمرته بـأن يلعب في الخارج فجرى الصبي وتركهم بالغرفة، ثم قامت (دعاء) من على الفراش وأخذت الرواية من على الكومود الخاص بها وجلست على فراشها هي وفتحتها لتكمل قراءة و (داليا) تنظر لها وتقول:

- " قبل ما تقرأي أي كلام لازم اقولك أنا شوفت إيه امبارح بليل خلاني أصرخ "

- "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

- " العروسة اللي لابسه فستان فرح كانت هدية من (حاتم) بعد ما خلصنا امتحانات السنة دي، العروسة دي شوفت دم نازل من عنيها على الأرض والدم بيرسم شكل قلب جواه سهمين عكس بعض، الرسمة دي كان دايمًا بيرسمها

(حاتم) في الكشاكيل وكنت أنا بأقلده وبأرسمها في كل مكان
"

***

على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتـــدي فستان زفاف، العروس يترل سائل من عينيها يشبه الـــدماء !!! يترل ليغطي فستانها الأبيض ثم يكمل نزوله بغزارة حـــتى تترل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهـــي تـــشهق والقطرات تتجمع على الأرض لتكون رسمة مهزوزة المعـــالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. ياللهول إنهـــا هـــي تلـــك الرسمة، إنها هي.

***

مترل (سيد محروس).. شقته خالية إلا منـــه هـــو بعـــدما استدعوه وفوجئ بوفاة ولده، وبجانبه وقف أحد أقربائه وهناك زوج شقيقته ولكنه في الحمام يملأ طشت كبير بالماء ويتأكد من خلط الماء البارد بالساخن ليصبح الماء فاترًا كي لا يؤذي الجثة.

نعم فهذا هو غسل جثة (علي) ابن (سيد).. قرر الجميع أن اكرام جثة الصغير دفنه وبالتالي كان يجب أن يبدأ غسل الجثـــة وفي أثناء ذلك يذهب الـــبعض لاســـتخراج شـــهادة الوفـــاة

والأوراق اللازمة والتي ليست هامة لدفن الجثة فهـــو ســـيدفن بمدافن الأسرة بالقناطر.

بعد فترة حزن وبكاء من الأب بعدما عاد ملهوفًا على ولده استجمع شجاعته وقرر أن يقف في أثناء غسل جثة ولده.

لذلك وضعوا منضدة الطعام القديمة وسط الصالة ورفعـــت السجاجيد ونقل الأثاث ووضعت جثة الفتى الشاخصة المتصلبة قليلًا على المنضدة، وتطوع أحد أقاربهم بأن يغسل الجثة بنفسه لأنه يعرف قواعدها الشرعية، بكل رفق خلع ملابس الـــصبي وهو يقول الأدعية و(سيد) يساعده بنوع من الانقياد وكأنه لم يفق من الصدمة بعد ثم يغطي عورته بقطعة قماش تداري مـــا تحتها .

جاء الماء وتأكد المغسل من ملمسه قبل أن يأخذ منه بكوب نحاسي ويبدأ بصبه على جسد الفتى ووالده يقف ناظرًا إلى الفتى بنوع من الشرود ومن وقت لآخر يساعد المغسل بأن يرفع يد والده أو يسند جسد ولده أو يناول المغسل الكـــافور الـــذي أحضره الرجل معه ووضعه على هذا المقعد البعيد..

فجأة تدوي صرخة لفتاة من الخارج فيسمع الجميع الرجال يصيحون فيها بأن تصمت وتظل الصرخات تنفلت من وقـــت لآخر لدرجة أنهم سمعوا صوت صفعة قوية أسكتت إحـــداهن و لم يسمع لهن صرخة لمدة طويلة.

(سيد) ينظر لولده بشرود وأفكار متخبطة تـأتي لعقلـه لا يجمعها خيط تفكير منطقي، ذكرى قديمة لإمـام المـسجد في خطبة الجمعة يقول بأن الميت يشعر بكل من حوله ويشعر بمن يلمس جسده بل ويتوجع ألمًا إذا أذاه أحدهم، لذلك المغـسل يعامل جثة ولده برفق.

يتخيل (سيد) كل الأحداث القادمة لأنه يعرفها ويشعر أنها يجب أن تحدث، الكفن الأبيض الذي سيلف به، الصلاة الـتي ستصلى عليه في المسجد، نقل النعش إلى القبر ثم....... توقف عقله هنا مرة أخرى وكأنه لا يعلم بحق ماذا سـيحدث بعـد الوصول للقبر.

بدأ المغسل يتلو دعاءًا بصوته الرخيم وهو يستعد ويطلـب من زوج شقيقة (سيد) أن يملأ الطشت للمرة الأخيرة ليتوضـأ الفتى قبل أن يكفن.

***

الفصل الخامس عشر

الساعة الرابعة عصرًا

استيقظت من نومي مفزوعًا وأنا أنظر للمنبه، لم يرن برغم أنني ضبطه على الرابعة ولكن جيد أنني استيقظت مـــن تلقــاء نفسي، هناك حلم ما حلمت به في أثناء النوم ولكن تفاصـــيل الحلم غريبة.. هناك مقبرة مظلمة وجثث وأشياء بلا معـــنى !!! تحاملت على عقلي وأنا أتذكر بعض التفاصيل عن جثة تتحرك في مقبرة وتستغيث؟ واسم مكان يتردد في ذهني .. أشـــعر أني سمعت ذلك الاسم قديمًا أو مررت عليه وأنا اســـتقل إحـــدى المواصلات، تذكرت إنه اسم منطقة مقابر معروفة؟ لماذا يتردد في ذهني مع هذا الحلم كأنني أشعر أنني أريد الذهاب لهنـــاك، ابتسمت رغمًا عني عندما نسج خيالي قصة مضحكة تـــصلح للأفلام الهابطة، تخيلت أن رجلًا دخل المقبرة وهو حي ويحاول أن يستغيث بي عن طريق الاتصال العقلي، ارتفعت ضـــحكتي فجأة وأنا أقول في نفسي أنه يحاول ارسال رسالة من داخـــل القبر لي، لماذا لا يستخدم إحدى عروض الهاتف المحمول خاصة أن الرسائل مجانًا من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حـــتى الثامنة صباحًا وسعر الدقيقة لأي محمول عشرون قرشًا فقط.

أكملت ضحكاتي وأنا أنهض بتثاقل من على الفراش، حان الوقت لارتداء ملابسي والذهاب إلى المصحة النفسية.

انتهيت من ملابسي سريعًا وغادرت المترل وأنا استقل تاكسي قديم جدًّا أشرت له، قلت له أن يذهب لفيصل وبالتحديد شارع العشرين، ابتسم لي السائق العجوز وانطلق بدون كلمة، نظرت للطريق في الخارج وأنا أفكر في شكل هذا المرض الذي أنا ذاهب لفحصه لأن المريض من المحتمل أن يرفض الحديث باعتباره جثة وأيضًا يرفض الطعام فيضطر الممرض إلى إطعامه، ولكن هل تم تجربة الجلسات الكهربية على تلك الحالات؟!!

جاء لي خاطر مضحك عن الأفلام الساذجة التي تصور الجلسات الكهربية للمرضى النفسيين كنوع من التعذيب أو على أساس أن الطبيب النفسي يعمل كهربائيًا بعد الظهر ويسري وقت فراغه بكهربة المرضى عن طريق جهاز مرعب الشكل والمريض يتأوه ويصرخ.

لقد حضرت أكثر من جلسة علاج بالصدمات الكهربية وأعرف مدى دقة ذلك العلاج الذي يستخدم في علاج بعض حالات الفصام والهذيان وجنون العظمة والوسواس القهري وبعض حالات الصرع النادرة جدًّا والتي يضطر فيها الطبيب لضبط كهربة المخ عن طريق الجلسات الكهربية التي تحتاج لأشعة على المخ وقياسات عديدة.

وأخذ موافقة من أهل المريض أو من المريض نفسه إذا كان على درجة من الوعي وبعدها يقوم طبيب التخـــدير بتخـــدير المريض كليًا فلا يشعر المريض بأي ألم أثناء الجلسة كما يتصور البعض.

تلك الجلسات التي يقوم فريق عمل برعاية المريض قبل وبعد الجلسة وحتى الأذن بالعلاج بالجلسات يتم تحت إشراف طبيب استشاري يراجع حالة المريض والأدوية التي لم تؤت ثمارها معه وهو من يحدد عدد الجلسات ومواعيدها.

أعتقد أنني يجب أن أخذ في الاعتبار السؤال عـــن تعـــرض الحالات التي سأزورها للعلاج بالصدمات الكهربية أم لا.

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

- " مال ايدك يا باشا؟ "

نظرت له باستغراب فأشار إلى يدي بدهشة فنظرت فلـــم أجد شيئًا !!!

طلبت منه التوضيح أكثر فأشار بيده مرة أخرى؟؟ ثم نظـــر لي متسائلًا بعينيه عن غبائي وعدم وملاحظتي..

لم أملك إلا أن أشكره على اهتمامه كي يهدأ برغم أنني لا أفهم لما يشير بالضبط؟؟؟

يتناول الوالد اللقيمات ببطء وهو بين الحين والآخر ينظر لغرفة نوم ابنتيه ثم ينظر للأم فتنظر هي الأخرى له بحسرة:

- " أنا قلبي مش مرتاح على البنتين "

قالها الأب وهو يتوقف عن تناول الطعام فتقول الأم وهي تمسح بعض الطعام الذي سقط على ملابس الصغير:

- " أنا لما دخلت من ساعة ولقيت (داليا) نايمة و(دعاء) قاعدة تقرأ وتقولي إن (داليا) تعبانة شوية وهاتكمل نوم وإنها مش هاتقدر تقوم تاكل استغربت "

ثم أشارت للصغير وقالت:

- " وحمادة بيقول إن (داليا) أغمى عليها في المطبخ النهاردة الصبح "

- " ما هو علشان كده قلتلك نجيب دكتور لداليا "

- " اصبر بس الموضوع مش هايحتاج لدكتور "

لن يتخيل الأبوين ما يحدث الآن داخل غرفة نوم الفتاتان.

(داليا) تنام على ظهرها مغمضة العينين و(دعاء) تنظر للرواية بعنين زائغتين وهي تضعها على الفراش أمامها مفتوحة على إحدى الصفحات.

استيقظت (داليا) ونظرت لشقيقتها وقالت بصوت حزين متقطع العبارات:

- " فهمتي خلاص "

انتفضت (داليا) من الصوت ونظرت لشقيقتها تلومها على تلك المفاجأة.. هدأت وقالت بعدها بصوت تجاهد كي يخـــرج سليمًا بسبب النوم الذي يغلبها:

- " (حاتم) كتب ليه الكلام ده؟ "

أغمضت (داليا) عينيها وتساقطت دمعة فجأة سالت علـــى خدها ثم اختفت، فقالت (دعاء) بعدم تصديق:

- " لما يموت الكاتب أرملته هاتشوف في ليلـــة دفنـــه إن العروسة اللي لابسة فستان فرح اللي اشتراها ليهـــا في عيـــد ميلادها أيام الجامعة غرقانة دم والدم اللي نازل ده بيكون بركة كبيرة بتكتب كلمة حبيبي، نفس الكلمة اللي كان بيكتبها ليها في كل مكان لما يتخاصموا، ونفس خط ايده " .

أخذت أنفاسها وأكملت:

- " الأرملة هاتفتكر قصة (نصف ميت) القصة اللي كـــان دايمًا يتكلم عليها قبل ما يموت.. تلاقي إن جوزها ساب ليهـــا وسط القصة تحذيرات من حاجات بتحصل في وقت معـــين، هاتلاقي البطلة اللي في الرواية عندها عروسة شبة اللي عنـــدها وبيحصل فيها نفس اللي حصل عندها.. ده معناه إن الكاتـــب بيعلن ليها عن وجوده معاها.. ومعناه إن فيه حاجة عايز يقولها

ليها لكنه مش عارف يكلمها.. الكاتب مكنش عنده صرع بس، الكاتب كان بيقدر يحرك الحاجات عن بعد ويكسرها بسهولة من خلال كهربة مش طبيعية في مخه.. بعديها هاتشوف رقم جوزها بيتصل بيها على موبايلها فتفتح الموبايل ماتلاقيش حد لكن المراية اللي قدامها هاتشوف فيها صورة واحد بتتكون من الدخان!!!! في الرواية الصورة اللي ظهرت ليها دي صورة (النصف ميت) ودة شخص مهم لازم تحفظ شكله كويس لو ظهر ليها تاني في أي مكان، تاني يوم الأرملة هاتجيب أخوها صاحب جوزها علشان تحكيله عن الحاجات اللي بتحصلها وأخوها معاها الباب هايدق عليها تلات دقات ورا بعض ببطء ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه، الرواية اللي مع الأرملة بتفسر صوت الدقات وتسميها (الرمز) وإنها هاتسمع الرمز ده تاني.. "

فتحت (داليا) مرة أخرى وقالت:

- " تفتكري كل اللي حصل ده صدف؟؟؟ "

كانت (دعاء) تنتظر ذلك السؤال وتخاف منه فقالت بسرعة مستنكرة:

- " فال الله ولا فالك يا شيخة.. انتي تقصدي إن (حاتم) حصل ليه حاجة وحشة "

ابتسمت لها (داليا) بارهاق ونهضت بتثاقل واقتربت من فراش (دعاء) ثم أخذت منها الرواية برفق وهي تقول:

- " نامي يا حبيبتي دلوقت "

حاولت (دعاء) المقاومة ولكن شقيقتها ربتت على شعرها بحنان وهي تعدل لها وضع المخدات فأغمضت (دعاء) عينيها وأراحت رأسها على الوسادة وهي تغيب في النوم.

أما (داليا) فوضعت الرواية على الكومود وأطفئت ضوء الغرفة وعادت لفراشها تفكر في آخر أيامها مع حبيبها عندما انتهت الامتحانات وصار عليها أن تسافر للاسكندرية في خلال يومين على الأكثر.

المفاجأة أن (حاتم) لأول مرة منذ عرفها أعد لها برنامجًا ليومين قاما فيه بزيارة حدائق ودخول السينما مرتين وتناولا في اليومين الإفطار والغداء والعشاء في مطاعم كبيرة حتى عندما تمنت أن تزور الحسين قاما بالتجوال فيه ودخول المسجد والصلاة فيه، ثم تناولا الطعام عند مطعم شهير فوجئت هي باسمه الغريب (بحة)..

ثمان وأربعون ساعة قضتها في سعادة وفعلت كل ما تمنته وجلست في كل مكان سمعت عنه أو لم تسمع عنه، وفي النهاية قبل أن تغادر القاهرة جلست على المقهى الذي يحتفظ بعثات الذكريات لهما.

- " كان نفسي نكون متجوزين يا (داليا) دلوقت "

احمرت وجنتيها من الخجل وقالت بصوت خافض:

- " وأنا كمان "

فجأة تذكرت شيئًا فعاد وجهها للحدية وقالت:

- " أنا ما رضتش أكلمك طول اليومين اللي فاتو على الرواية زي ما طلبت مني "

- " آه "

- " دلوقت أنا أقدر أتكلم، انت عارف رأيي يا (حاتم) في الرواية دي من ساعة ما قريتها وأني قولتلك عليها إنها عبقرية ورعبتني جدًّا لدرجة أني قعدت ليالي ما نمتش من الخوف من المقابر وأشكالها ووصفك ليها "

- " أنا عارف أنتي عايزه تقولي إيه "

- " لا مش عارف، انت ليه خليت الذكريات المشتركة اللي في الرواية بين البطل والبطلة تبقى ذكرياتنا وأحلامهم أحلامنا.. دا حتى دبلة الخطوبة اللي كنا بنحلم بشكلها إنها تكون مكتوب عليها حروف اسمنا من برة الدبلة بشكل بارز.. خليت البطل والبطلة يلبسوها "

- " يا حبيبتي ما أنا قلتلك إني حطيت فيها كل مشاعري وأفكاري وكل... "

قاطعته (داليا) قائلة بنبرة حادة:

- " لية مش عايز تجاوبني وتقولي البطل بتاع الرواية يبقى عنده نفس المرض زيك ونفس الرواية اللي بيألفها.. لكن الحاجة اللي معرفهاش عنك.. انت بتحرك الحاجات اللي حواليك بارادتك؟ "

- " ده موضوع كبير مش زي ما انتِ متخيلة "

- " وكمان العروسة اللي اشتريتهالي امبارح ومارضتش أتكلم معاك فيها، عروسة لعبة لابسة فستان فرح، زي العروسة اللعبة اللي لابسة فستان فرح في الرواية "

كادت أن تكمل كلماتها لولا أن قاطعها هو قائلًا:

- " الرواية دي هي أنا يا (داليا)، انتِ قولتيلي اثبت نفسك وأنا أهو كتبت رواية حطيت فيها مشاعري ومخاوفي وذكرياتي، الرواية دي لو فشلت يبقى أنا فشلت ولو نجحت يبقى أنا نجحت، لأن الرواية دي هي أنا.. لو بتحبيني صحيح حبي الرواية دي واقريها كويس "

- " إيه ده؟ انت بتقول نفس كلام البطل في روايتك "

- " بلاش الكلام ده يا (داليا) واسمعيني.. أنا من بكرة هارجع أكمل مشواري مع الناشرين يمكن ألاقي اللي يقبل

ينشر لي، وفي نفس الوقت عايز اطمنك وأقولك الرواية دي خيالي أنا "

برغم تلك العبارة لكن (داليا) شعرت بالخوف ينمو داخلها

***

توقف التاكسي أمام أحد محلات البقالة وهو يسأل عن شارع حسن حماد ولكن البقال كان مشغولًا مع فتاة صغيرة فقلت أنا له:

- " هو انت ما تعرفش فين شارع حسن حماد "

- " لا والله يا بني أنا أول مرة أعرف إن فيه شارع اسمه حسن حماد جوه شارع العشرين، مع أني من الطالبية أصلًا "

- " طب نتمشى شوية يا حاج جوة شوية يمكن نلاقي حد يعرفه "

- " نتوكل على الله.. بس يمكن الحكومة غيرت اسم شارع من الشوارع زي عادها وسمته حسن حماد ده "

سار سائق التاكسي بي قليلًا وفجأة أشرت له عند شارع علقت أمامه لافته زرقاء لامعة كتب عليها شارع حسن حماد فابتسم لي سائق التاكسي العجوز وتوقف وهو يضغط على الفرملة فاندفعت للأمام قليلًا وانفتح تابلوة السيارة لتقع على

قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يعلق.. صورة لفتاة حسناء تبتسم.

- " دي بنتي "

قلت أنا بابتسامة:

- " ربنا يخليهالك يا حاج "

أخرجت حافظة نقودي وأخرجت ثلاثون جنيهًا منها وأعطيتهم له ولكني شعرت أني أعرفه، رأيته قبل ذلك ولكن متى لا أتذكر، قبل أن أغادر التاكسي قلت له:

- " احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟ "

ابتسم الرجل الطيب وقال:

- " أنا كمان باشبة عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني أني خليتك توصل متأخر "

فتحت باب التاكسي وأنا أودعه بأدب سار بعدها بعيدًا ودخلت أنا الشارع أبحث بعيني عن المصحة وقد نسيت أنني لم أخذ رقم المصحة، ها هي ذا عبارة عن عمارة كبيرة علقت عليها لافتة كبيرة عليها اسم المصحة وكلمات عن وعد المريض بالاسترخاء والراحة النفسية التي سيلاقيها داخل المصحة.

دخلت المصحة التي تتكون من سبعة طوابق بعدما عرفت بعد ذلك، الاستقبال عبارة عن بهو كبير أنيق يجلس به ممرضان يرتدي أحدهم ملابس عادية قميص وسروال أما الثاني فقد

ارتدى ملابس المستشفى التي تتكون من قميص وسروال من نفس اللون الغامق وهناك بادج معلق على جيبه كتب عليه الاسم الذي لم استطع قراءته لصغره.

تمشيت خطوات بسيطة داخل البهو ذو الإضاءة الخافتة المريحة للعين ووسط بعض أواني الزرع الذي أعتقد أنه للزينة، توقفت أمام الكاونتر الذي يجلس خلفه الرجلان، تنحنحت وأنا أسأل عن مدير المستشفى فقال لي أحدهم وقد كان أسمر قليلًا حزين الوجه متسع العينين لا يبتسم:

- " فيه مع حضرتك مريض؟ "

- " لا.. أنا جاي أقابله لأمر شخصي "

نظر الممرض لزميله الآخر بشوش الوجه الذي ابتسم لي وقال:

- " والله ده مشي من ساعتين لكن هو قال إنه هايرجع على الساعة ٨ بليل، حضرتك تقدر تستناه هنا لو تحب لغاية ما يجي "

قال لي ذلك وهو يشير إلى المقاعد الجلدية في آخر البهو فشكرته واتجهت لهناك وجلست.. استمرت جلستي لدقائق قبل أن أجد رجلًا يجلس بجانبي، إنه ممرض يرتدي نفس ملابس طقم الممرضين هنا، لكن من تلك المسافة القريبة قرأت الاسم الذي نحت بحروف انجليزية صغيرة على البادج المعلق على جيبه

(ثابت عيد) هذا هو ما استطعت قراءته من الاسم الثلاثـــي المكتوب على البادج.

شعرت أن (ثابت) هذا ينظر لي بين الحين والآخر فبادلته أنا أيضًا النظرات الخاطفة لأتفرس ملامحه، وسيم برغم سنه الذي أعتقد أنه وصل للأربعين أو في أواخر عقده الثالث.

كان ضخم الجثة حتى وهو جالس ذو وجه أبيض ممتلئ قليلًا وشعر ناعم برغم مقدمه رأسه الخالية من الشعر.. هذا الرجـــل كان وسيمًا جدًّا في شبابه على ما يبدو لي من عينيه المتوســـطة وأنفه المستقيم وشفتاه المتناسقتان.

- " محسوبك (ثابت) يا باشا، أؤمرني "

قالها لي فاندهشت من عرض المساعدة الغريب هذا وهو لا يعرفني فقال هو كأنه يرد على استفساري الذي مازلت أفكـــر فيه

- " أنا شوفتك يا باشا من شوية وقفت تسأل هناك عـــن حاجة وبعديها قالولك تيجي تستنى هنا، أؤمرني يا باشا وأنـــا أخلصلك أي حاجة "

بحكم زيارتي لأكثر من مصحة تعلمت أن هنـــاك بعـــض الممرضين يستطيعون بالفعل صنع المعجزات من خلال معرفتهم بكل كبيرة وصغيرة في تلك المصحات فقلت له بحذر:

- " عايز أقابل مدير المستشفى "

أخرج من جيب قميصه علبة سجائر وعرض علي واحـــدة فرفضتها شاكرًا فأخذ هو واحدة وأشعلها وقال بذكاء:

- " الباشا شكله جاي علشان حاجة معينة، أكيــد مـــش جاي تسأل على مريض أو تستفسر عن نظام المستشفى،صح "

- " صح "

- " طب ما تقولي يا باشا انت عايز إيه وأنا ممكـــن أوفـــر عليك المشوار لمدير المستشفى "

- " مش هاينفع يا (ثابت) علشان أنا محتاج المدير يمضي لي على ورقة معينة.. حاجة كده زي تصريح "

فتح فمه مبتسمًا وقال:

- " بعد إذنك يا باشا ما تقولي تصريح إيه وأنا أفيــدك دا المدير ده في حكم ابني الصغير، وانت سيد العارفين انبا بنبقـــى عارفين كل حاجة عن المستشفى أحسن من مديرها بنفسه "

شعرت أن اللعبة ممتعة وقررت أن أكملها مع هذا الممـــرض فقلت:

- " أنا جاي هنا أعمل بحث عن حالات مرضـــية معينـــة موجودة في المصحة دي، أنا بأحضر دكتوراه في علم الـــنفس وهايفدني البحث ده أوي في اللي أنا بأعمله "

- " يبقى ده التصريح اللي أنت عايزه من الدكتور علشان تقدر تعمل البحث بتاعك صح؟ "

رددت عليه مبتسمًا:

- " صح يا (ثابت) "

أخذ (ثابت) نفس طويل من السيجارة وقال لي بنبرة خافتة:

- " مش هايديك التصريح "

- " ليه؟؟؟؟؟ "

- " خدها مني كلمة يا دكتور، أنا أعرف المدير أكتر منك وعارف إنه مش هايديك التصريح علشان تشوف المرضى وتعمل عليهم بحث، من سنة باين جه طلاب في خدمة اجتماعية وطلبوا تصريح برضه زيك وهو رفض على طول وقعد يقول إن دي هيافة لما شوية عيال بيدرسوا عايزين يقفوا قدام المرضى ويلعبوا في عقولهم"

توقعت أنا شيئًا مشابهًا ولكني كنت أعتمد على لباقتي معه لأقنعه بأهمية هذا البحث، إذن ضاعت أمالي في البحث.. إلا إذا:

- " انت محتاج البحث ده أوي يا دكتور؟ "

قال (ثابت) العبارة السابقة وهو يفكر بعمق فقلت أنا وقد فهمت مقصده:

- " أكيد محتاجه يا (ثابت).. تقدر تساعدني؟ "

- " طبعًا يا دكتور بس انت ما فهمتنيش حالات إيه دي اللي بتتكلم عليها "

نظرت باتجاه الممرضين الجالسين خلف الكاونتر فوجدهم منشغلين تمامًا في الحديث

- " عندكم يا (ثابت) فيه مرضى عندهم حالة غريبة.. فاكرين نفسهم جثث، أو بمعنى تاني هما فاكرين إنهم ماتوا وإنهم جثث دلوقت وفيهم اللي لا بياكل ولا يشرب لوحده وفيهم اللي بيتكلم، تعرف حد منهم "

نظر لعيني وهو يهرش أعلى رأسه:

- " لكن انت عرفت منين يا دكتور إن فيه حالات بالمواصفات دي هنا؟؟ "

- " أنا مش قلتلك أني بأحضر دكتوراه في علم النفس، الأستاذة بتوعي في الجامعة هما اللي دلوني على هنا يا (ثابت).. بس شكلك بيقول إنك تعرف الحالات دي "

أخذ (ثابت) آخر نفس في السيجارة ثم أطفئها في كعب حذائه وابتسم لي:

- " كلك نظر يا دكتور "

- " ماتخافش يا (ثابت) أنا حبيتك من أول ما شوفتك وهاريحك على الأخر بس طمني انت الأول "

- " بص يا دكتور انت تخرج من المستشفى دلوقت وتقول للي قاعدين هناك دول إنك هاتيجي للمدير بكرة وتجيلي الساعة ١١ ونص الليلة، أوعى تيجي قبل كده علشان دي

الوردية بتاعتي، هاتلاقيني قاعد هناك على الكرسـي ده، ولمـا تيجي أنا هاظبتك على الأخر، بس ماتنسناش احنا بقى "

ابتسمت أنا أيضًا له وأنا أنهض لأستعد لمغادرة المصحة.

***

- " هاهاهاهاها مبروك يا (فضل) "

- " الله يبارك فيك يا (مصطفى) عقبال بنتك "

- "ما قلتلك نجوز العيال لبعضهم انت اللي تخننت دماغك "

- " القلب وما يريد يا شقيق "

شرب (عبد الحي) آخر جرعة من كوب الشربات وهو ينظر لأبنتـه وهـي تجلـس بجانـب عريـسها والأغـاني تخـتلط بأصوات الشباب الذي يهلل للعريس والفرحة تملأ المكان، أغمض عينيه بسرعة والألم يتزايد في صدره وشعوره بالغثيان يعاوده خاصة بعدما شرب من الشربات الذي يقدم في الفرح، ابتسم وفتح عينيه مقاومًا الشعور بالغثيان كي لا تلاحظ ابنته الوحيدة ألمه.. ما أجمل عين ابنته، تأملهما والأفكار السوداء تعاوده عن لحظات موته التي اقتربت، ربما كانت تلك هي آخر مرة يرى فيها عين ابنته، وربما

ظل بضعة أيام ليتمكن من أن يودعها جيدًا، ولكن الآن يجب أن تستمر فرحتها ولا يعرف باقتراب موته أحد.

نهض فجأة وهو يصفق بيديه محاولًا الاندماج مع الشباب وهو يغني مع الجميع.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل السادس عشر

الساعة الثامنة ليلاً

مقاعد الفراشة الحمراء يجلس عليها الرجال أمام المترل ينتظرون خروج الجثة والبعض يسأل في داخله عن سبب عدم دفنها منذ ساعات، ولكن وكنوع من الأدب يجب عليهم السكوت والانتظار وخاصة وأهم متأكدين أن (علي) سيدفن الليلة.

أما داخل المترل ستجد أن الشقق في الثلاثة طوابق مفتوحة الأبواب وداخل كل شقة ينتظر المعزين لأن جيران (سيد) تطوعوا باستضافتهم لأن شقة (سيد) لن تسع بالتأكيد كل هذا العدد وخاصة النساء كي لا يختلطوا بالرجال، ولكن برغم كل تلك الشقق المفتوحة الأبواب ستجد بين الحين والآخر بعض الرجال يقفون على السلم لتدخين سيجارة.

في شقة (سيد) في الطابق الثالث يجلس بالداخل بعض الرجال فقط بجانب (سيد) وقد اتفق الجميع على عدم وجود النساء في نفس الشقة التي تحتوي على جثة (علي) كي لا تتأثر إحداهن وتطلق الصرخات والعويل.. في الصالة يجلس (سيد) صامتًا وأحد الرجال يتحدث مع من بجانبه بصوت عال.

- " صلاة العشاء هانتزل نصليها كمان شوية ولازم نصلي على الجثة بعد العشاء على طول علشان المصلين اللي في المسجد يصلوا معانا، لو فاتت صلاة العشاء علينا تبقى خسارة كبيرة "

- " ماهو احنا مستنيين باقي قرايب (سيد) من البلد علشان نلحق ندفنه"

- " كده مش هانلحق واحنا قدمنا مشوار طويل للقرافة في القناطر وهانتعب أوي بليل واحنا بندفن "

دخل الشقة فجأة رجل يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق وهو يقول بلهفة أن الرجال وصلوا من البلد وهم وراءه على السلم الآن، العبارة جعلت من بالشقة ينهض استعدادًا لمصافحة الرجال ومن ثم نقل الجثة للمسجد للصلاة عليها.

***

تلفت (داليا) حولها جيدًا وهي تنظر بحذر ثم تفتح هاتفها المحمول وتبحث بين الأرقام وهي تقول في نفسها أن تلك هي المرة الألف التي تتصل بهاتف (حاتم) وتجده مغلق.

لم يبق أمامها إلا صديق (حاتم) الحميم (علاء) الذي أخذت رقمه منذ أيام دخول (حاتم) للمستشفى، هي تعتقد أنها مازالت تحتفظ برقمه حتى الآن، ظلت تبحث بين الأرقام في هاتفها

المحمول حتى وجدته فضغطت زر الاتصال وانتظرت حتى سمعت الجرس المنتظم:

- " ألو.. (علاء) معايا؟ "
- " أيوه يا أفندم مين معايا؟ "
- " أنا (داليا) يا (علاء) زميلتك في الكلية "
- " يااه أخبارك إيه يا (داليا)؟ عاملة إيه؟ أكيد بتتصلي بيا علشان تشكريني "
- " أشكرك على إيه؟ "
- " على الدبلة بتاعتك، ألف مبروك يا... "

قاطعته (داليا) وهي تقول بسرعة:

- " ممكن تفهمني فيه إيه؟ "
- " الله !!! مش (حاتم) عندك من أول امبارح؟ "
- " عندي فين؟ احكيلي بالتفاصيل لو سمحت "
- " (حاتم) كلمني في التليفون يوم الأربعاء اللي فات وقال لي إنه عايز يعمل دبلتين مخصوص بشكل معين علشان أسماءكم تبقى بارزة عليها من برة وأنا قلتله سيبلي الموضوع وكلمت قريبي اللي عنده محل دهب والراجل في خلال تلات أيام بالظبط كان مخلص الدبلتين وجه (حاتم) من القاهرة وهو فرحان وبيقول إن ربنا

كرمه أوي وفيه ناشر قبل ينشر أول رواية ليه وإنه أخد مقدمة من الناشر ده، ودفع فلوس الدبل وأخدهم وقال إنه نازل القاهرة تاني علشان يتابع حاجات قانونية مع الناشر وهايسافر بعديها على اسكندرية علشان يخطبك.. هو ما جاش لغاية دلوقت؟ "

دبلة منقوش عليها أسماءهم !!! إن (حاتم) يصر على تنفيذ ما في قصة (نصف ميت)...!!!!!!!!!!!!!

***

يرفع الناس أصواتهم بالدعاء وهم يقفون قريبًا من القبر..

(هادي) يقوم بتسوية الأسمنت بعد أن أدخل هو والرجال جثة تلك الزوجة الصعيدية الشابة وفتى صغير لم يتعد الثامنة يقف ممسكًا بيد والده ينظر للقبر الذي يحوي جثة والدته غير مصدق والكشافات البيضاء تتوجه ناحية (هادي) وهي ترسم له الظلال الضخمة على الأرض والعرق يتجمع على جبينه وهو يزيح بعض التراب عنه ويقف أمام القبر يقول بعض الأدعية وهو يرفع يده أمام عينيه..

هناك شعور ينتابك في بعض الأوقات بأن عليك أن تنظر باتجاه معين فجأة، انتابه هذا الشعور فنظر على يساره بعيدًا عن تجمع الرجال وهو مازال يرفع يديه ويقول الأدعية..

وسط الظلام (علي) يقف هناك ينظر إليه..

استمر فم (هادي) في ترديد الدعاء بطريقة آلية وهو مـــازال ينظر بعينيه لعلي الذي نظر له بثبات، لا تلـــك النظـــرة ليـــست طبيعية، إن (علي) ينظر إليه بنوع من الاتمام هذه المرة، نعم نـــوع من الاتمام وإلا لماذا رفع (علي) يده وأشار بها ناحية قبر الـــسيدة التي انتهى (هادي) من دفنها للتو؟!!! (علي) ينبه (هـــادي) أنـــه يعرف أنه سيتصل بطاهر الليلة مرة أخرى.

***

نار، نار تشب في ذراعه اليسرى أو بالتحديد مكـــان قطـــع ذراعه الأيسر، لقد عاد له الألم مرة ثانية ليستيقظ من الغيبوبة وهو يحرك يده بحركة عشوائية خائفة.. هناك بعض الإدراك عاد له مرة ثانية وهو يرفع يده ويتحسس وجهه ويرتجف مما يشعر به.

لقد تغيرت ملامح وجهه تمامًا من تلك الزوائد التي تكونت في وجهه وهو بالطبع لا يعرف أنها تكونت من الحروق التي تعـــرض لها وجهه، وحتى عينيه التالفة التي شعر بألمها وتوقع أنها مصابة، لم يتوقع أنها تلفت للأبد من إحدى الشظايا التي اخترقتها.

صور مشوشة تعود لذاكرته عنه وهو يجلس في مقعد بحافلـــة تتجه إلى مكان ما، بجانبه شاب يبتسم وهو ينظر لعلبة حمـــراء ثم

يختفي المشهد بسرعة لتتداخل بعد ذلك مشاهد كثيرة لأصـــوات صراخ وانفجار ونار وأصوات ثم ظلام تام.

يجب أن يصرخ.. أخذ نفسًا من فمه فشعر بـــألم في صـــدره ولكنه تحامل وحاول الصراخ فخرج صوت من حنجرته غريب.. إن عدم دخول مياه لجوفه مدة كبيرة كان له تأثير على صـــوته، ولكنه الآن لا يفكر في العطش بل يفكر في الخوف، إنه في المقبرة ينتظر مصيره أن يموت ولن يشعر به أحد، مد يده اليمنى السليمة وحاول الزحف بها ولكنه فشل، محاولة أخرى و.. وأظلمت الدنيا في عينيه.

***

شركة (t.m.devon) للنقل إحدى شركات مجموعة (طاهر محمد مصطفى)

خطت العبارة السابقة على لافتة كبيرة علقت على سور كبير ضخم بأحد أحياء مصر الجديدة، السور ينتهي ببوابـــة حديديـــة ضخمة وقف عليها رجال الأمن ومن الداخل في الساحة توقفت عربات نقل وحافلات وبعض الأوناش مختلفة الأحجام.

من الداخل ثلاثة مباني كل مبنى منهم يتكون من طابقـــان إلا مبنى واحد يتكون من أربعة طوابق، وفي الطابق الرابع تقبع غرفة

مكتب مدير الشركة (طاهر مصطفى) الذي جلس في مكتبه أمام شاشة الحاسب الآلي ينظر له ويتحدث مع شخص يجلس أمام المكتب وهو يضحك ويشير للشاشة.

يأخذ نفسًا من سيجارته ويتكلم مع الرجل الجالس أمامه بخصوص شيئًا ما وهو يضحك بين الحين والآخر.

جرس هاتفه المحمول يرن فينظر بلا مبالاة على شاشة الهاتف ليعرف من المتصل.

ولكنه يهتم فجأة من تغير ملامح وجهه ويطلب من الرجل الجالس أمامه أن يغادر المكتب لدقائق، فينهض الرجل بتثاقل وهو يقول له:

- " أنا جايلك كمان شوية "

يغادر المكتب ويغلق بابه خلفه فيرد (طاهر) على الهاتف ويتحدث بصوت خافض، إنه (هادي) يخبره بأن هناك مفاجأة جديدة تنتظره الليلة عنده، ابتسم (طاهر) وهو يستمع لهادي الذي طلب منه الحضور كما كل ليلة في نفس الموعد..

ولكن (طاهر) أبلغه أنه سيكون عنده الليلة حوالي الساعة الثالثة صباحًا لانشغاله الليلة بعمل ما.

أغلق الهاتف وضغط على زر التكتافون المجـاور لـه وهـو يستدعي الرجل الذي هو في الحقيقة صديقه الشخصي ونائبـه في مجموعة الشركات، جاء الرجل وهو يبتسم وقبل أن يجلس علـى مقعده قال له وهو يغمز بعينيه:

- " شكل الموضوع فيه حريم الليلة "

أطلق (طاهر) ضحكة عالية وهو يومئ برأسه ويقول:

- " عندك حق يا أبو علي، فيه حريم الليلة، وشك حلو علي"

***

الفصل السابع عشر

الساعة الحادية عشر والنصف تمامًا

وصل المشيعون للمقابر متأخرين بعدما انتظروا باقي العائلة بعد الصلاة على الميت وسيارتهم تتوقف أمام منطقة المقابر، من داخل المقابر جاء ثلاثة رجال من العائلة يهرولون كانت مهمتهم هي انتظارهم عند المقابر وفتح القبر وتهويته قبل وصولهم بساعات وتنبيه عامل المقابر على وصول الجثة الليلة، الرجال يسيرون والكشافات الضخمة تنير لهم الطريق بين المقابر، تلك المقابر بنيت بنظام مخالف للمقابر الطبيعية حيث بنيت على شكل غرف فوق الأرض وليس تحت الأرض لأن الأرض في تلك المنطقة طينية وبمجرد حفر الأرض لمسافة تتعدى أقل من متر يقابلك الطين والمياه الجوفية تبدأ في الصعود .. لذلك قرر الأهالي منذ سنوات بناء مقابرهم على شكل غرف فوق الأرض ترص الجثث في كل غرفة بجانب بعضها مع وجود اللحد الذي يصففه التربي من الأحجار حول الميت بعد ما يحفر حفرة بسيطة جدًا لا تصل حتى لنصف متر، لم يبدأ الناس في بناء المقابر بهذا الشكل إلا بعد أن أخرجوا فتوى من الأزهر عن صلاحية دفن الجثة فوق مستوى

سطح الأرض محاطة باللحد المصنوع من قوالب الطوب بسبب الأرض الطينية التي ستغرق التربة لو حفر بها .

توقف الرجال أمام قبر عائلة (سيد) وأنزلوا الخشبة بهدوء .. باب القبر الصغير المبني على ارتفاع متر عن الأرض والذي لا يزيد عرضه عن متر وطوله عن متر أو يزيد قليلًا مفتوح، دخل التربي القبر ومعه الكشاف بعد أن قفز داخله بصعوبة وتبعه إليه أحد الرجال .

فجأة وقف عند باب القبر رجل من أقارب زوجة (سيد) له لحية خفيفة ويرتدي جلبابًا بني اللون، نظر له (سيد) وقد عرف أنه سيلقي موعظة ما عن الموت، الحقيقة أن (سيد) بدأ يستعيد عقله مرة أخرى ويتخيل ما سيحدث الآن .. بدأ الرجل يتكلم ويعظ الناس و(سيد) يفكر بسرعة وكأنه استعاد ملكة التفكير الآن فقط

- " يا أخواني نقف اليوم على قبر أخينا (علي) رحمه الله، نقف لندعو له بالمغفرة .. "

- " أمين "

نظر (سيد) إلى جثة ولده الملفوفة في الكفن الأبيض وهو يقول لنفسه

(هنا ترقد جثة ولدي)

- " ندعو له بالرحمة والعتق من النار "

- " أمين "

(سيدخل ولدي الآن للقبر، ونضعه في الحفرة التي يسمونها اللحد سنكشف وجهه ونسنده كي يبدأ الحساب)

- " اللهم خفف عليه ظلمة القبر "

- " أمين "

(سنترك ولدي في الظلام وحيدًا في القبر)

- " لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر "

سقطت الدموع من عين سيد

- " اللهم ثبته عند الحساب "

- " أمين "

رفع (سيد) عينيه الدامعة إلى القبر .. فرأى التربي يقف داخل (القبر) ينظر للجثة ويحمل الكشاف !!!! توقفت دموع (سيد) عن النزول وهو يتفرس في ملامح التربي

- " اللهم بدد ظلمة القبر عليه "

- " أمين "

تلك العينان، تلك النظرة .. لقد رأى مثلها أمس، رأى مثلها أمس على وجه (هادي) .

- " اللهم ثبته عند السؤال في القبر "

- " أمين "

(هادي) الذي كان ينظر للجثث الثلاثة بنوع من الاشـــتهاء، هذا التربي ينظر نفس النظرة لولده !!! نظر (سيد) لجثة ولـــده ثم نظر للتربي الشاب الذي يقف ناظرًا للجثة .

- " اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خير من أهله "

- " أمين "

اتسعت عين (سيد) وهو يقول بداخله

(هذا الرجل سيسرق جثة ولدي)

(سيتسحب بعدما يغادرون القبر ليبيعها مثلما يفعل (هادي))

- " اللهم ادخله جنتك واعصمه من نارك "

- " أمين "

(لا لن يحدث هذا لن يحدث هذا لن يحدث هذا)

- " ادعوا لأخيكم (علي) بما يعتل في صدوركم "

رفع الناس أكفهم وهم يدعون بصوت منخفض إلا (ســـيد) الذي توقف وهو ينظر للجثة طويلًا حتى أن أحد أقربائه لاحـــظ

ذلك فحاول أن يقترب منه ويقلل انفعاله الذي بدأ يظهر على وجهه، انتهى الرجال من الدعاء واقترب رجلان من الجثة ليرفعاها

- " سيبوا (علي) مكانه "

قالها (سيد) بحدة يأمر الرجلان بأن يبتعدا عن الجثة، فهم الناس ما يحدث وقد توقع البعض أن ينهار (سيد) الآن ولكنه لم يعط فرصه لهم وذهب عند الجثة ونزل على ركبتيه والأيدي بدأت تمسك بملابسه لتمنعه وهو مازال يقول للجميع بصوت قوي

" ابعدوا عن (علي) "

رفع جثة ولده قليلًا وهو يحتضنه والرجال الآن يفصلونه برفق عن ولده والعبارات تنهال عليه بالصبر والهدوء وعن قضاء الله وهو يصيح ويصيح والدموع تترل من عينيه حتى فجأة قال وهو يصيح بصوت جهوري:

- " التربي عايز يبيع جثة ابني زي ما بعت أنا الجثث امبارح "

توقف الناس فجأة ثم تعالت الاستفسارات وبدأت النظرات الغريبة توجه للتربي الشاب الذي أنكر بشدة و .. حاول الناس التكلم مع (سيد) الذي يحتضن جثة ولده ولكنه لا يجيب !!! نادى عليه الجميع ولكنه سكت فجأة ومال رأسه للأمام فأصبح

هو جالسًا على ركبتيه ويحتضن ولده ورأسه على كتف ولده ..

هزه الناس فسقط هو وولده .

تعالت الشهقات .. لقد مات (سيد) .

***

القبر مرة أخرى، مد يده اليمنى ليمسك بها أي شيء ثم يزحف، تلك المرة استعاد جزء كبير من وعيه وشعوره بالألم، واستعاد أيضًا شعوره بالعطش والجوع الشديد وربما لأن شعوره الآن اقترب من الشعور الطبيعي عادت عزيمته تشتعل مرة أخرى ليحاول الخروج من هذا القبر بأي طريقة، تلك المرة زحف كثيرًا حتى اصطدمت يده بحائط، تلمس الحائط جيدًا ثم غير اتجاه زحفه لليمين أكثر .. دقائق يسرقها الزمن وهو يزحف أكثر باتجاه اليمين، يزحف أكثر وأكثر حتى اصطدمت يده بملمس حجري مرة أخرى فتحسسه هو أيضًا محاولًا تخيل شكله .

درجة سلم، الحمد لله ولكن كيف يزحف ليصعد هذا السلم؟!!! حاول أن يصرخ ولكن صوته خرج متحشرجًا ككل مرة حتى أن حنجرته ألمته فقرر ألا يصرخ بهذا الشكل الآن .

ذراعه اليسرى التي لا يشعر بها تعطيه شعورًا مرعبًا لأنه حاول استخدامها بطريقة لا إرادية حتى يستند عليها ولكنه تذكر عدم

وجودها، ثنى ذراعه الأيمن تحت جسده ثم ثنى ركبتيه وهو يشعر باحتكاك جسده بالتراب ويشعر بجروح جسده التي لا يراها تلسعه ألمًا، ها هو استطاع أن ينصب جسده على ركبتيه ويده اليمنى تسنده .. قدم ركبته اليسرى للأمام ثم اليمنى ثم حرك يده ببطء لترتكز على أول درجات السلم ليبدأ الصعود الهادئ .

لماذا يشعر فجأة بألم في ذراعه اليسرى الآن و .. أتلك عينيه التي تحرقه، لا يهم الألم يأتي من كل قطعة في وجهه وجسده فليس هناك وقت لتحديد اتجاه الألم الآن، درجة ثم الثانية ثم الثالثة ثم، ما هذا؟ صداع قوي يمسك رأسه بقبضة حديدية وأصوات كثيرة تتكلم، من شدة الألم رفع يده التي يرتكز عليها ليمسك رأسه فوقع على السلم لتصطدم رأسه بالدرجات مرة ثانية ويغيب عن الوعي .

***

فتحت (دعاء) عينيها في ظلام الغرفة وهي تشعر بنوع من ارتخاء الجسد بعدما نامت فترة لا تعلم مدها ولكنها كانت كافية لتشعر بلذة الاسترخاء، ولكن من الواضح أنها مازالت في المساء، فجأة تذكرت شيئًا هامًا .. موضوع (حاتم) والرواية، نهضت من على فراشها بسرعة حتى أنها شعرت بدوار لحظي بسبب انخفاض

ضغط الدم البسيط الذي يحدث نتيجة النهوض المفاجئ من وضع النوم .

تحسست طريقها في الظلام باتجاه باب غرفة النـــوم لتفتحــه وتخرج للصالة المظلمة ولكن ضوء النافذة الذي يدخل فيــسقط على الأثاث ينير لها الطريق، حانت منها التفتت للنافذة فلمحــت شخصًا يجلس بها فتوقعت بالطبع إنها (داليا) .

فتحت باب النافذة الزجاجي ورأت بالفعل (داليا) تجلس على مقعد خشبي تعطيها ظهرها لتنظر إلى الشارع، تنحنحت فلم تنظر لها (داليا)، اقتربت منها وهي تضع يدها على كتفها ولكنــها لم تتأثر أيضًا !!!! نادتها باسمها فنظرت (داليا) هـــذه المــرة لهــا .. أطلقت (دعاء) شهقة وهي تنظر لوجه شقيقتها الذي لوثته الدماء حول عينيها اليسرى؟؟؟؟؟

قالت (داليا) بهدوء:

- " ماتخافيش ده مش دمي "

لم تشعر (دعاء) بنفسها إلا وهي تــنحني وتــضم شــقيقتها لصدرها وكادت أن تبدأ بالبكاء لولا صوت شقيقتها تقول:

- " كملي قراية نصف ميت "

- " إيه اللي حصل لعينك "

- " كملي قراية نصف ميت "

- " فيها إيه الرواية تاني "

- " كملي قراية نصف ميت "

نهضت (داليا) وشقيقتها مازلت تحتضنها وابعـدت (دعـاء) برفق عنها وهي تربت عليها بحنان فنظـرت (دعـاء) في عـين شقيقتها تتأمل بقعة الدماء المرتسمة حول العين على شكل دائرة .

- " دي آخر علامة يا (دعاء) "

- " يعني إيه؟ "

- " (حاتم) مات خلاص "

كانت تقولها بنوع من التقرير وملامح وجهها متجمد فقالت شقيقتها بحدة:

- " بتقولي إيه؟؟؟؟؟؟ "

- " اقري وانتي تعرفي إيه اللي حصل "

تركتها (دعاء) وخرجت تتحسس طريقها للـصالة بحـدة ثم تدخل غرفة النوم وتفتح الأضواء ثم تأخذ الرواية الموضوعة علـى الكومود بغضب وتفتحها على الصفحة التي توقفت عندها وتبدأ القراءة .

***

لم تصدق نفسها وهي تقرأ الورقة، تركتها جانبًا وأكملت بحثها في مكتب زوجها وهي بين الحين والآخر تنظر إلى صدرها ولبقعة الدماء التي تجمعت عليه، فجأة شعرت بدوار وبأن....

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

(مدافن عائلة أبو العنين ١٩١١) تأمل (علي) اللافتة الرخامية المكتوب عليها تلك العبارة بعدم فهم، كان جالسًا أمام الحائط الذي يعشقه ينظر له وسط الظلام .. مع عين اعتادت الظلام أصبح يرى جيدًا وخاصة ليلًا، كان ينظر للحائط ثم ينظر للأرض بخزي وهو يتذكر تفاصيل الليلة السابقة الذي دعاه فيها الرجل الطيب كما كان يقول إلى أن يذكر الله، نظر للحائط مرة أخرى ثم أخرج صوت من حنجرته كأنه يكلمها، صوت مبحوح، الغريبة أنه ظل يخرج هذا الصوت كأنه يكلم الحائط لدقائق ويشير بيده المتسخة يمينًا ويسارًا حتى توقف فجأة وعينيه تتسع وثغره يبتسم ويسكت قليلًا وهو يتأمل الحائط طويلًا .

فجأة نهض وهو يبتسم للحائط ودموع تتساقط من عينيه وكأنه سمع خبرًا سعيدًا أو كأنه شعر بشيء أراح مشاعره، نظر للحائط نظرة أخيرة ثم غادر حوش الشيخ أبو العنين وهو يبتسم .

الفصل الثامن عشر

دخلت المصحة النفسية ولكن هذه المرة بعد الساعة الحادية عشر والنصف كما قال لي (ثابت) الممرض الذي يعمل بالمصحة، تخطيت الباب المفتوح قليلًا في نفس الإضاءة الخافتة وأنا أندهش من شيء لا أتذكره ولكنه أثار دهشتي جدًّا .. (ثابت) يجلس خلف الكاونتر مكان الرجلين السابقين فاتجهت إليه رأسًا وأنا أصافحه وهو يقول لي بصوت خافض:

- " في ميعادك يا دكتور "

- " أنا قولت أجيلك الساعة ١٢ إلا ربع علشان تكون في الأمان "

- " الله ينور عليك يا دكتور "

أريد أن أضحك من ذلك التفخيم الذي يمارسه معي (ثابت) عندما يلقبني بدكتور برغم أنني نبهته أنني أحضر الدكتوراه و لم أحصل عليها بعد .. ذلك هو الذي يدرسه أشهر خبراء المبيعات في العالم عندما يعلمون رجل المبيعات استخدام الألقاب الشرفية أثناء اتمام الصفقات بطريقة معينة لرفع شأن العميل ولكن تستخدم الألقاب بطريقة محترفة كي لا يشعر العميل بأنه يخدع من قبل رجل المبيعات، قام من خلف الكاونتر وهو يدور حوله حتى أصبح أمامي وكنت أنا قد

أخرجت النقود من جيبي وهو يغادر الكاونتر فبمجرد أن وقف أمامي مددت يدي أضعهم في يدي وهو يقول لي:

- " ما تخلي يا دكتور، والله أنا مرتاحلك لله في لله مـش مسألة فلوس "

- " وأنا كمان مرتاحلك يا (ثابت) "

نظر (ثابت) حوله وهو يقول:

- " قولتلي بقى يا باشا عايز تزور أهمي مريض؟ "

- " يا (ثابت) انت عارف كويس أنا أقصد أهمي حـالات أنا عايز أشوفها "

سعل وهو يمسك صدره من قوة السعال ثم قال لي:

- " بس أنا خايف المرضى يعملوا مشاكل أو .. "

- " أنا هاقولهم أني دكتور ماتخافش، ثم نوعية المرضى اللي أنا عايز أشوفها مش هاتعمل أي مشاكل "

- " انت قولتلي إنك عايز تشوف اللي عندهم فوبيا الموت"

توقف عقلي لحظة من الدهشة من لفظة فوبيا الموت لأنهـا أولًا ليس الاسم العلمي لوصف الخوف المرضي من الموت ثانيًا أنا لم أقل تلك الكلمة فكيف عرفها، وكأنه شعر بما يـدور في عقلي فابتسم وقال:

- " أنا خريج حقوق يا دكتور واشتغلت كتير مع الدكاترة وعارف أمراض كتير أوي، وأقدر أصنفها كمان لو عايز "

ابتسمت رغمًا عني وقلت له:

- " لا يا (ثابت) أنا قلتلك الصبح أنا عايز أهمي نوع من المرضى، أنا عايز المرضى اللي فاكرين نفسهم جثث .. معتقدين أنهم أموات أو ماتوا في حوادث "

لماذا يراودني احساس أن (ثابت) يعرف من البداية عما أتكلم لكنه يلاوعني لسبب ما

- " تعالى ورايا "

قالها فجأة بدون تفاهم وهو يسير بخطى واسعة باتجاه السلم، فتبعته بسرعة قبل أن أفقده وأنا أقول داخلي تلك المصحة غريبة لأنني لم أشاهد مصحة بنيت بذلك الشكل وكأنها مستشفى عادية لاستقبال المرضى وبلا ساحة صغيرة أو حديقة خلفية !!! صعدنا طابق واحد فوجدت نفسي في ممر طويل ملئ بالغرف على الجانبين والممر نفسه مضاء بإضاءة خافتة جدًّا تكاد تتبين طريقك وأنت تسير .

- " فيه عنبر فيه طلبك يا دكتور ... إلا أنا ما اتشرفتش باسم حضرتك "

قالها (ثابت) وهو يسير وأنا وراءه فرددت:

- " اسمي (خالد)، لكن ما قلتليش إيه حكاية العنبر ده "

- " العنبر ده فيه حالات بتتعالج من زمـــاااااان وأنـــا مـــا اشتغلتش مع المرضى هناك لكن أعرف إن حالاتهم غريبة وفيه ناس جربت عليهم كل حاجة "

- " طب تعرف الأدوية اللـــي اســـتخدموها أو أخـــدوا جلسات كهربية مثلًا "

- " مش عارف لكن سمعت إن اتجـــرب علـــيهم أدويـــة الاكتئاب، بس الجلسات الكهربية ما أظنش حد جربها علـــيهم أو أنا ما أعرفش يمكن اتجربت "

لحظة .. عنبر يحتوي على مرضى من نفس نـــوع المـــرض، استخدام عنبر ليجمع عدد من المرضى أمر صعب ولا يحدث إلا في المصحات الكبيرة التي تخضع لاشرافات طبية ومتابعة دقيقـــة أو بعض المصحات الضخمة جدًّا والتي يمكنها متابعـــة تلـــك العنابر حتى لا يحدث اختلاط بين المرضى وأفكـــارهم فيـــزداد المرض تعقيدًا، كيف لتلك المصحة أن تجمع نفس الحـــالات في هذا العنبر المنفرد؟؟!!

- " انت شغال هنا من امتى يا (ثابت)؟ "

رد علي (ثابت) بدون أن ينظر لي وهو يجتاز الممـــر وأنـــا وراءه

- " من زمان أوي، من قبل ما المدير الحالي يمسكها "

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته ثم ممر أيمن أيـــضًا، ثم أيسر ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق وهو يقول:

- " قربنا نوصل خلاص "

نظرت لساعة يدي فوجدتها الحادية عشر وخمسون دقيقة

- " ١٢ إلا عشرة يا دكتور "

قالها (ثابت) عندما لاحظ أنني انظر لساعتي ولكن كيـــف لاحظ وهو ينظر أمامه؟

توقف فجأة عند غرفة بلا رقم !!!!!! كدت أن أقول شيئًا ولكن صوت بسيط سمعناه ثم انقطعت الكهرباء .. فوجئـــت بالظلام و لم أخف فليس هناك وقت للخوف أنا متسلل لتلـــك المستشفى ولكن صوت (ثابت) قطع حبل أفكاري

- " اسمع يا دكتور أنا نازل أشوف إيـــه الحكايـــة كـــده الممرضات والعمال والنبتشية هايتجمعوا تحت، عقبال ما أرجع الكهربا تاني لازم تخش دلوقت العنبر علشان لو رجعت وحـــد كان هنا في الطرقة ما يشوفكش، وأنا لما هـــارجع الكهربـــا هاجيلك العنبر تاني أشوفك عايز حاجة وألا لا .. ماشي؟ "

لم يكن أمامي اختيار فلا أستطيع التراجع كـــي لا تعـــود الكهرباء فجأة ويراني من بالمصحة وتبدأ المشاكل ولا أســـتطيع الوقوف هنا حتى لا أفاجأ أنا بمن يسأل عن سبب وجودي أمام العنابر ليلًا

- " ماشي بس حاول ماتتأخرش عليا "

شعرت به يقبض على ملابسي ويجرني للأمام وصوت باب يفتح وأنا أشعر أنني أجتازه

- " ما تخافش "

كانت تلك آخر كلمات (ثابت) قبل أن أسمع باب الغرفـــة ينغلق من الخارج .

***

ظلام .. لم أخف يومًا من الظلام، عنـــدما مـــات جـــدي الحبيب وأوصلته عند القبر ووضعت جثته داخـــل التـــراب لم أخف ظلام القبر، و لم أخف عليه من الظلمة لكن خفت عليـــه من الوحدة ومن عدم وجودي بجانبه مثلما تمنى، لماذا أخاف من الظلام وفيه أنام وفيه أفكر وفيه أتذكر، بل ربما شعرت براحـــة في الظلام عندما يكون باختياري، الشيء الوحيد الذي يؤرقني هو وحدتي في الظلام .

عندما أموت فلا يشعر بي أحد، عندما أمرض ولا أستطيع الحركة فلا يسمعني أحد، ولكن هنا في ذلك العنبر لم أكن وحيدًا، عندما دخلت وسمعت الباب يغلق علي تحسست بيدي الطريق وتمشيت للأمام حتى اصطدمت بشيء أصدر صوتًا معدنيًا عند الاصطدام به، تحسسته إنه مقعد .. تأكدت منه مرة أخيرة بيدي ثم جلست عليه .

تنحنحت فخرج صوتي عاليًا في الظلام:

- " السلام عليكم؟ "

قلت التحية وأنا انتظر ردًا وأنا أخاطر بأن يصاب المرضى بالفزع ويهللون لو شعروا بالخطر مني، لكن برغم كل شيء فسلوك هؤلاء بالذات لا يمكنني توقعه، مرت فترة طويلة جدًا من الممكن أن تكون دقيقة أو دقائق لكنها لا تزيد عن خمسة دقائق وسمعت صوتًا رفيعًا لشاب يقول:

- " انت مين؟ "

طريقة حديث الشاب جعلتني أعرف بسرعة أنه يعاني من إدمان على المخدرات أو أنه مصاب بمرض ما في المخ يجعل طريقته في الكلام تشبه طريقة كلام الشخص المتعاطي للمخدرات، ولكن كيف يجلس شخصًا سواء أكان مدمنًا أو مصابًا بمرضًا في المخ وسط هذا العنبر .

- " أنا عيان جديد "

كانت تلك الطريقة الوحيدة لكسر الحاجز الـــذي كنـــت سأصنعه لو قلت لهم أنني طبيب كما أوهمت (ثابت)، أعتقـــد أنهم سيتقبلوني قليلًا لو اعتقدوا أنني مريض مثلهم .

الصوت الرفيع: " مفيش هنا عيانين ولا تعبانين "

أنا: أمال فيه إيه هنا؟ "

الصوت الرفيع: " فيه هنا ميتين مقتولين، فيـــه هنـــا نـــاس مستنين يوم القيامة "

يا الله كلماتهم تقبض القلب واقتناعهم الزائد بفكرة كونهم جثث رهيب

أنا: " يعني أنا ميت زيكم "

الصوت الرفيع: " أنا ماقولتش عليك ميـــت، انـــت ادرى بنفسك"

أنا: " هو فيه كام واحد في العنبر هنا؟ "

الصوت الرفيع: " عنبر إيه؟ دي تربة واحنا ميتين فيها "

ندمت أن الكهرباء مقطوعة ولن يمكنني تدوين ملاحظـــات هامة عنه وعن إجاباته

أنا: " انتوا كام واحد "

الصوت الرفيع: " كتير "

أنا: " أمال أنا مش سامع حد غيرك ليه؟ "

الصوت الرفيع: " الجثث حواليك يا ... "

أنا: " خالد، وانت اسمك إيه؟ "

الصوت الرفيع: " رفاعي "

قلت له بطريقة عادية:

- " انت ميت يا رفاعي من أمتى؟ "

رد علي بنفس الطريقة العادية البسيطة:

- " من ٦ شهور "

فسألته بحذر:

- " ينفع أعرف انت مت ازاي؟ "

سكت (رفاعي) وأنا أفكر هل أكون اقتحمته عندما ألقيت هذا السؤال الذي يبدو أنني تسرعت في ...

- " هاحكيلك كل حاجة، انت أول واحد يسمعني "

قالها (رفاعي) ليوقف استرسالي في التفكير ويجعلني استمع له بكل جوارحي .

وبصوت (رفاعي) الرفيع البطيء العبارات استمعت لما قاله:

***

الفصل التاسع عشر

حكاية رفاعي

أنا (محمد رفاعي) يدعوني الجميع برفاعي اختصارًا لاسمي، ولدت في حي الشرابية في منزل والدي (رفاعي الحوت) الذي كان فتوة كبير في الشرابية أو (قبضايا) كما كان يجب أن يطلق على نفسه، وليس كما ستعتقد أنه فتوة يرتدي الجلباب ويمسك النبوت، لا بل كان أحد الفتوات الأقوياء بالشرابية في الأربعينات والخمسينات من القرن السابق حيث أن والدي أنجبني وهو في الستين من عمره عام ١٩٧٧ .

كان والدي عملاق الجثة يدخل المشاجرات حتى وهو في هذا السن ويضرب بكفه الضخم يمينًا ويسارًا فيقع من يقف أمامه بمجرد أن يتلقى ضربة واحدة من يده القوية، لم يحمل سلاحًا قط حيث أن من يدخل المشاجرات يجب أن يحمل سلاحًا يدافع به عن نفسه ضد العصا أو السكين أو السيف الصغير الذي نسميه نحن (سنجة)، لكن والدي كان يدخل تلك المشاجرات بقلب ميت لدرجة أن من يمسكون بتلك الأسلحة يتراجعون للخلف وكثيرًا ما يهربون من أمام قبضته المرعبة، يقولون أنه تعلم القتال في الجيش المصري _ أو الجهادية

كما يطلق والدي عليه _ عندما التحق به وظل هنـاك حتى رتبة شاويش وشارك في معركة العلمين ضد قـوات المحـور ويقولون أن والدي تعلم القتال بالأيدي العارية من خلال رفيق له في الجيش، وظهرت ثمرة ما تعلم بعد رجوعه مـن الحـرب وعمله عندما فتح ذلك المقهى وأصبح فتوة يحكم الكثير مـن حارات الشرابية بقوته، ولكن الشرابية كان لها أكثر من فتـوة يحمونها بدون مقابل مادي ووالدي كان أحدهم لذلك كـان هؤلاء الفتوات محبوبون وسط الشرابية وتذكر سيرهم بكل خير في المجالس .

لم أرث عن والدي قوة الجسد ولا القدرة على القتال بيدي العارية مثله عندما يضرب هذا ويرفع هذا في الهواء بيد واحدة ويرمي هذا ويكسر ذراع هذا .. لم أرث عنه إلا القلب الميت كما يقول الناس عني، قلبًا ميتًا جديرًا بولد (رفاعي الحـوت) الوحيد بعد أن رزقه الله بالخلف في سنه الكبير هـذا، المقهـى يدير علي مبلغًا جيدًا كل شهر، وأنا لا أقرب النساء في الحرام ولا أشرب الخمور لأن كل هذا حرام، ربما بعـض سـجائر الحشيش التي أرى أنها ليست حرامًا لأن عقلي لا يذهب عـني أو لو شعرت بأنني أريد بعض المشاعر البسيطة التي تخرجني من أي حزن أتناول بعض الحبوب (ترامادول) هو أحسنهم عندي

.. تزوجت في سن صغيرة حيث طلب مني والدي قبل موته منذ عشرين عامًا أن أعف نفسي وفعلت كما أمر وأنجبت ثلاثة أولاد .

تبدأ الحكاية منذ عام تقريبًا عندما جاء أحد الشباب الذي يعتقد نفسه أنه بمجرد أن أمسك سيجارة واشترى زجاجة (بيرة) فقد أصبح مؤهلًا لأن يكون بلطجيًا، في البداية جلس على المقهى عندي كأي زبون عادي وكثرت جلساته وكان يدفع الحساب بانتظام .

حتى جاء اليوم الذي اعتذر عن دفع الحساب للقهوجي الذي يعمل عندي، وقال له أن يؤيد الحساب على النوتة والمرة القادمة يحاسب على مشروباته، جاء القهوجي بجانبي وأنا أجلس عند المكتب الصغير الذي اتخذته لنفسي بعيدًا عن الزبائن داخل المقهى بجانب مخزن الشيشة والشاي والسكر والقهوة، قال لي بصوت خافض عن هذا الشاب الذي يريد أن يفتح حساب له هنا، خرجت معه ونظرت للشاب الذي أشار له القهوجي وعرفته فورًا فقلت للقهوجي أن يفتح له حسابًا كما أراد، وإن كنت بذلك أختبر هذا الشاب، مر أسبوع جاء فيها الشاب الذي عرفت من كشف الحساب أن اسمه هو (وليد) جاء للمقهى أربعة مرات وكل مرة يطالب بإضافة مشروباته على حسابه القديم، حتى اليوم الذي سمعت فيه أحد عمال

المقهى يتكلم مع شاب صغير السن وصوت الشاب الغاضب يعلو رويدًا رويدًا، تركت الشيشة من يدي وخرجت لصالة المقهى وأنا أسأل الشاب عن سبب حنقه وصوته الغاضب فقال لي الشاب أنه تعرض للسرقة بالاكراه في ذلك المقهى، صدمتني عبارته فهذه أول مرة أسمع فيها عن تلك الحادثة داخل المقهى.

- " جه واحد على القهوة أول امبارح وقال لي إنه عايزني في حاجة قومت معاه وأخدني على الشارع اللي ورا القهوة وراح مطلع مطوة وأخد مني فلوسي بالعافية وقالي لو اتكلمت هايقتلني بالمطوة دي "

قال الشاب هذا الكلام وأنا أغلي من الغضب حتى قلت له:

- " أخد منك كام؟ "

- " ٦٠ جنيه "

أخرجت من جيبي المبلغ وأعطيته للشاب الذي رفض في البداية ولكني حلفت أمامه أكثر من مرة حتى قبل بالمبلغ وأخذه وطلبت منه أن يخبرني عن شكل الذي فعل هذا .. فوصف لي وصف تفصيلي لوليد، كما توقعت من أول يوم عن هذا الحقير، طلبت منه أن يجلس في المقهى ولا يخف فأنا سأتعامل مع الموقف

مر يوم و(وليد) لم يأت للمقهى ولكن تكرر الموقف مع زبون آخر حكى نفس الحكاية تقريباً عن (وليد) بل وقال أن (وليد) عندما لم يجد معه مال كافي سبه وحذره من الجلوس على تلك القهوة لأنه سيقتله لو فعل ذلك، اليوم الثالث تكرر البلاغ وعرفت كيف يأتي (وليد) كل مرة ويسحب زبونًا من على القهوة بدون علم عمال المقهى، لقد قال الثلاثة الذين تعرضوا للسرقة على يده أنه أتى في الصباح الباكر عند الساعة العاشرة، أي أنه يأتي في الوقت الذي لا أتواجد فيه في المقهى وفي نفس الوقت لا يوجد في المقهى سوى عامل واحد لأن ضغط الزبائن يبدأ بعد صلاة الظهر .

اليوم التالي انتظرت في المقهى من الصباح الباكر وعيني على المقاعد المواجهه للشارع والتي يأتي إليها (وليد) ليأخذ الزبائن من عليها، وفعلًا أتى (وليد) بوجهه الأسمر وشعره الأكرت وشفاهه الغليظة، ابتسمت وأنا أقول أن تلك الملامح التي يعتقد أنها ستدب الرعب في قلب من يتعارك معه لا تدل على قوته أو على قدرته على الدخول في مشاجرة، نهضت وأنا أضغط على جيبي الأيمن وأتأكد من السكين الصغيرة التي احتفظ بها في جيب سروالي، كان (وليد) يتحدث مع رجل جالس يدخن الشيشة حتى فوجئ بخروجي من داخل المقهى.

ـ " بتعمل إيه يالا؟ "

قلتها بصوت عال فارتبك وهو يقول:

ـ " ما بعملش حاجة "

ـ " تعرف ياد لو شوفتك هنا تاني، أنا هاطلع عين أمك "

ـ " ماتقدرش، ولو راجل وريني نفسك يا ابن المرة الـ.."

لم يكمل عبارته عندما وجد يدي تصفعه على وجهه لدرجة أنه ترنح للوراء من شدة الصفعة، فجأة أخرج مطواة من جيبه وفتحها وظل يلوح بها في الهواء وأنا قاربت على الضحك من مظهره الطفولي الذي يعني أنه لم يقتل أحدًا من قبل بتلك المطواة، رفعت قدمي في الهواء أضرب بها عضوه التناسلي كما كنت أرى والدي يفعل في المشاجرات حيث كان يرفع قدمه ليضرب بها قدم من يتعارك معه أو يكسر له ركبتيه من ضربهما في الاتجاه المعاكس، تأوه (وليد) وهو يتراجع بسرعة وفعل ما لم أتوقعه !! رفع المطواة من بعيد وقذفها علي فاخترقت المطواة فوق سرتي تمامًا، ولكن لم يدخل منها لبطني سوى اثنين سنتيمتر أو أقل .

لم أصدر صوتًا ولكني أخرجت المطواة ببطء وصوت خوار يتصاعد من فمي ولكنه خوارًا غاضبًا .. تصلب (وليد) في مكانه وهو يراني أسير إليه وأنا أطوح بالمطواة بعيدًا وأخرج من

جيبي سكيني الصغير ثم أمسك بملابسه بيدي اليسرى وباليد اليمنى التي تحمل السكين اشرح وجهه بها .. صوته وهو يتوجع يوقظ الشارع وأنا اكمل ما أفعله بسرعة حتى وضع هو يده على وجهي محاولا ابعادي عنه ففعلت بيده ما فعلت بوجهه ثم نال جسده الكثير من الجروح وفي النهاية ألقيت السكين من يدي وأنا أكيل له اللكمات لوجهه الذي اختفت ملامحه من كثرة الدماء، فجأة وقع مغشيًا عليه على الأرض فتركته وأنا أضغط بيدي على الجرح في بطني ليقف النزيف ودخلت مقهاي غير عابئ بالشارع الذي التف حول (وليد) الملقى على الأرض ولا الرجال الذين حاولوا نجدته .

استندت على القهوجي كي يدخلني للداخل وهو يجري على الهاتف ليطلب الاسعاف ولكني أوقفته وأنا أعطي له الأمر بالذهاب للدكتور / بيشوي الذي يقطن بالعمارة المقابلة للمقهى وهو سيفعل اللازم، حمل الرجال (وليد) بعيدًا عن المقهى ذاهبين به إلى المستشفى أو إلى أهله لا أعلم المهم أن دكتور / بيشوي نزل جريًا بعد أن شرح له القهوجي المشكلة ومن حسن الحظ احتفاظه بخيط جروح أغلق به جرحي وأصر على إبلاغ الشرطة ولكن رفضي القاطع منعه من مناقشتي كثيرًا، قررت الذهاب للمترل للراحة وبالفعل كنت في مترلي بعد نصف ساعة لأنام من الاجهاد ومن الدم الذي نزف مني، وبرغم أن زوجتي كادت تموت من المفاجأة عندما رأت الدماء

إلا أنني استطعت أن أنزع من قلبها الشك في أن هـذا الولـد الذي أذيته سينتقم مني، أنا واثق أنه بعد تلك العلقة لن يقـرب المقهى ولا الشارع من الأساس .. نمت وزوجتي بجانبي تخفـف عني ثم استيقظت على صوت زوجتي تطلب مني تناول الطعـام الذي أحضرته على صينية ليمكنني تناوله وأنا جـالس بجـانبي على الفراش .

تناولت الطعام ونمت مرة ثانية من الاجهاد ولكن تلك المرة استيقظت على يد قوية تهزني ففتحت عيني لأجد ثلاثة رجـال يمسكون السكاكين الضخمة ويلوحون بها في وجهي وأحدهم يجذبني من ملابسي لانهض وهو يشهر السكين بجانب رقبتي .

نظرت بسرعة للفراش في الظلام الذي يقطعه الضوء القادم من النافذة المفتوحة فوجدت آثار دماء؟؟!!! ثم جثـة زوجـتي مقتولة، بدأت المقاومة ولكن شيء ثقيل هبط علـى رأسـي شعرت معه بألم وعدم وضوح في الرؤيا ثم لم أشـعر بالـدنيا بعدها و .... استيقظت في شقة غريبة وأنا مقيـد إلى فـراش وجرحي ينزف والألم يقطعه، من وسط الرجال الذين تراصـوا حولي وجدت الكلب (وليد) يقف يضع ضمادات على وجهه ورقبته، عرفته من شفتيه الغليظتين وشعره الأكرت، تبينت بعد ذلك في يده سكينًا طويلًا مسنون يتحسسه هو بتلذذ ويقول:

- " بقى يا ابن الكلب تقولي امشي وما أجيش هنا تـاني انت ما تعرفش أنا من عيلة مين من الشرابية، أنا مـن عيلـة

(سلامة) يا روح أمك، ودلوقت أنـا مكتـوب ابي مقـيم في المستشفى وقت ما مراتك اندبحت وانت اختفيت، يعني مفيش تهمة عليا، لأن طالما جثتك مش موجـودة يبقـى انـت مـا ماتقتلتش يا حلو ، ومراتك مدبوحة وانت مش موجود يبقى هاتلبسها انت لغاية ما يلاقوك .. دلوقت بقى أنا هاوريك مين فينا الراجل، أنا هاحرق قلب أمك عليك زي ما حرقت قلبك على مراتك "

انتهى من جملته واقترب من الفراش ثم رفع السكين عاليًـا وانهال بها على رقبتي مرارًا وهو يفصلها عن جسدي وأنا اتحرك يمينًا ويسارًا حتى أمسك أحدهم بشعري كي يمكن لوليـد أن يفصل رأسي جيدًا، بعد أن خلعوا رأسي من جـسدي أخـذ (وليد) يعبث في جسدي بالسكين محاولًا تشويهه ليخرج ذلك الغضب المتولد من ضربي له، الشقة التي ذبحوني بها هي شـقة أحد أعمام (وليد) ومكانها بالدقي نقلوا جثتي بعـدها حـتى وصلت لتلك المقبرة، أعطوني للتربي الذي قبض منهم خمسمائة جنيه مقابل دفن جثتي في مكان أمين، عرض التربي جثتي علـى أكثر من زبون ليبيعها لكنهم رفضوا بسبب رأسي المفصولة عن جسدي وبسبب الجروح التي ملأت جسدي وأحشائي الـتي خرجت من معدتي بعد بقر بطني، ولذلك رماني التربي في ذلك القبر غصبًا عن ارادتي، وقيد حادث زوجـتي ضـد مجهـول ومازلت الشكوك تحوم حولي أنا يبحثون عني أو عـن جـثتي ليثبتوا عدم تورطي في قتل زوجتي .

صوت (رفاعي) الرفيع كف عن الكلام فناديته باسمه لم يجب، كررت ندائي أكثر من مرة ولكن سمعت صوت جعلني أقف على قدمي من الدهشة، صوت رقيق لفتاة !!!!!!!!!!!!!

- " (رفاعي) مش هايرد عليك "

صوت فتاة؟؟؟؟؟؟ قلت بعد أن جلست مرة أخرى على مقعدي

- " انتي بنت؟ "

- " أة "

- " ازاي تيجي هنا عنبر الرجال؟؟؟؟ "

بالطبع بدأت الظنون تلعب برأسي عن وجود فتاة في عنبر الرجال ذلك لا يعني الكثير

- " انت فاكرني مرتاحة هنا .. "

- " !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! "

- " أنا تعبانة أوي، تعبانة أوي "

- " اسمك ايه؟ "

- " مريم "

بلعت ريقي محاولًا اختيار كلماتي:

- " وإيه اللي جابك وسط الرجالة يا (مريم)؟ "

تنهد الصوت الرقيق وقال:

- " أنا ما جيتش بمزاجي يا استاذ "

كادت الدهشة تجعل عيني تقفز من وجهي ولكني تحليت بالصبر وأنا أحاول استدراجها

- " (مريم) انتي تعبانة من إيه؟ "

أجابني الصوت الرقيق بعد تنهيدة حارة:

- " أنا بنت .. ميتة وسط رجالة، عايزني ارتاح ازاي "

هذا غير ممكن بأي مقياس، هناك شيء خاطئ ولو لم يكن هناك شئ خاطئ فبالتأكيد أنا المجنون هنا .

- " انتي مين اللي جابك هنا؟ "

- " التربي "

- " وليه جابك هنا "

- " عايز تعرف ليه؟ "

- " يمكن أساعدك تخرجي من هنا "

شعرت بصوت الفتاة يتغير بحق وتضاف السعادة على نبراتها

- " بجد .. أنا هاحكيلك بس خرجني من هنا، أنا زعلانة "

الفصل العشرون

حكاية مريم

اسمي (مريم سامح سليم) سني ستة عشر عامًا، أنـــا أكـــره منزلي جدًّا، هذا لو كنت أمتلك منزلًا من الأساس، ماهو المنزل في رأيك؟ أهو جدران ووسقف وأرضية؟ أم غرف نوم ودورة مياة؟ أم اسرة دافئة؟!!! لو كان اختيارك الأخير فانت في صفي وستفهم موقفي حتمًا، وستفهم لماذا أكره منزلي، أو للتحديد أكثر فأنا أكره أسرتي لأنني أعتبر أن المنزل هو الأسرة ليس أكثر أو أقل ولكن أهلي لم يوافقوني الرأي، أعيش بمنطقة في شــبرا تسمى (المظلات) في أحد أحياءها أقطن مع أبي وأمي وشقيقتي وبقية أشقائي الرجال الثلاثة .. لم يمنع والدي عني شيء يتعلق بالطعام أو الملابس أو النقود، ولكنه منع عني كل الحريات .

فوالدي يمتلك مطبعة بأحد أحياء شبرا ودخله من المطبعـــة يجعلنا نعلو قليلًا عن الطبقة المتوسطة ولكننا لا نقترب بـــالطبع من طبقة الأغنياء، تحتوي سفرتنا يوميًا على أنواع كثيرة مـــن الطعام ونبدل ملابسنا كثيرًا ويحمل بعضنا حواسب آلية محمولة من باب المظاهر لا أكثر، ووالدي يعطي الجميع مصروفًا ليس قليلًا بل ويزيده إذا كرر طلب النقود وخاصة لي أنا وشقيقتي،

فهو ينفق علينا بسخاء لغرض ما في نفسه، شقيقي الأكبر تخرج من كلية الهندسة وأصبح مهندسًا معماريًا وساعده والدي ليفتتح له مكتبه الهندسي بمدينة نصر، شقيقي الأصغر منه تخرج من التجارة ويعمل مع والدي في المطبعة ويعتبر هو عصا والدي التي يتكأ عليها في أعماله .

شقيقي الثالث ترك المدرسة الثانوية وصمم أن يعمل في التجارة والتي لا يعلم أحدنا ما نوع تلك التجارة التي تغيبه عن المترل تلك الساعات ولا يعود إلا لينام فقط، حان الوقت لتعرف لماذا ينفق علينا والدي بذلك السخاء ولماذا يدللني أنسا وشقيقتي في بعض الأحيان وما هو المقابل الذي يريده، في الغالب ستقول أنه يريد مصلحتي ويريد أن يراني بأحسن حال وهذا هو ما في عقله ولكن بطريقة أخرى .

يريد أن أدخل كلية الطب، وبالطبع شقيقتي الصغرى التي مازالت في المرحلة الاعدادية يجب أن لا تقل عن الطب أو الهندسة، ينفق علينا فيما يخص التعليم والدراسة والكتب بطريقة غريبة، هل تعرف أن داخل شقتنا مكتبة كبيرة تمتلئ بالكتب العلمية والموسوعات الأدبية والعلوم والفنون وتواريخ الحروب، كتب كبيرة لامعة الأغلفة كثيرة التكلفة، هو لم يقرأ كتابًا في حياته برغم عمله في طبع الكتب، وأشقائي لا يقرأون الكتب، إنما اشترى كل تلك الكتب لأنه اعتقد أنه بتلك الكتب

سيجعل عقولنا أكثر تفتحًا ومداركنا أكثـر علمًـا وبالتـالي ستصبح الأطباء أو المهندسين كما أراد، ولكن الحقيقـة أنـي أكره التعليم، ما المشكلة في تلك الفكرة، أشعر أنني اكتفيـت من التعليم وأريد الاستقرار في المترل، أريد أن ألتقي بـشريك حياتي الذي سأخدمه بكل الطرق وانتظره بعد عودته من عمله والغداء جاهز .. أخلع ثيابه وأحممه بنفسي وأناوله الطعـام في فمه فلا يتعب هو يده بمشقة تناول الطعام، أعطيه كل الحنـان الذي أدخره في قلبي ولا انتظر منه حتى كلمة شكر .

ستتهمني بالجنون يا استاذ ولكن كل الفتيات يتكلمن عـن أهمية التعليم والمستقبل وأهمية الحفاظ على المساوة بين الـزوج والزوجة والكثير من الكلام المحفوظ، ولكن الجميع نـسى أو تناسى أنني من حقي أن أختار بكامل حريتي أن أكمل تعليمي أو لا أكمله وخاصة أنني وصلت لسن النضج الذي يمكنني من اختيار طريقي القادم لا أن يفرضه أحدهم علي، وحـتى لـو أخطات فسأتحمل نتيجة خطأي لأني اخترت حريتي وتلك هي المشكلة الحرية .. والدي يضربني عندما يشتم في حديثي معـه تلميح بأنني أكره المذاكرة أو أنني لا أريـد دخـول الجامعـة وسأكتفي بالثانوية العامة، لا ليس ضربًا .. هل تتخيـل فتـاة يمسكها والدها من شعرها ويجرها وراءه علـى الأرض وهـي تصرخ ثم ينهال عليها ضربًا بيده الخشنة من أثر التعامـل مـع ماكينات الطباعة، ثم يستهل الحفل بفاصل من الركلات الـتي تصيب جسدي ببراعة وكأنه يصوب على المناطق التي تؤلم ولا

تؤذي، وتصل ذروة الحفل عند مقطوعة الصفعات التي يعزفها على وجههي وتكون في الغالب أسرع من أن يتحملها رجــل طبيعي، لدرجة أنني حاولت مرة أن أحصي عــدد الـصفعات السريعة فما أحصيته منها كان اثنان وعشرون صفعة وأعتقــد أن هناك صفعات لم احصها، وينتهي الحفل البهيج غالبًا ببعض الضربات المركزة على الظهر أو لكمة خفيفة كنوع من الختام، كل ما سبق كان بدون استعمال أدوات كحزامه الجلــدي أو حذاءه ذو الكعب أو العصا أو الحبل الملفوف، وهذا الحفل من الممكن أن يقام ثلاثة مرات أسبوعيًا ولا يقيمه في الأجـازات الرسمية وبعض الأعياد وفي نهار رمضان كي لا يفقــد ثــواب صومه علي .

هل تعرف لماذا يفعل كل هذا .. إليك الحقيقة، والدي كان فقيرًا منذ صغره ولم يكمل تعليمه فاضطر إلى العمل في المطبعة منذ طفولته التي لم يعشها، وبالتالي كما قــال هــو في أحــد المشاجرات مع والدتي أنه تمنى لو يتزوج امرأة متعلمة جامعيــة تربي أولاده بطريقة أفضل من تربية والدتي لنا، في البداية كــان شقيقي الأكبر المهندس الذي كان يتلقى الضرب منذ صغره لو أهمل لحظة في عدم المذاكرة أو فكر لحظة أن يلعب مع زملائــه أو يجلس ليشاهد التلفاز، وانتهت مشاكل شقيقي بمجرد تخرجه من الهندسة، ثم شقيقي الأوسط الذي تلقى نفس ما تلقاه مـــن سبقه إلى أن دخل جامعة أقل من هندسة أو طــب كمــا أراد

والدي فلم يعره والدي اهتمامًا بعد ذلك وابتعد عنــه تمامًــا وبالتالي شقيقي الأصغر الذي ترك المدرسة فتركه والــدي، ولم يبق غيرنا نحن أنا وشقيقتي .. لذا فنحن نمر بأصعب مما مر بــه جميع من سبقنا لأنه وضع أمله فينا تلك المرة، يتكلم دائمًا عن العريس الذي لن يقبل به لبناته إلا لو دفع كذا وكــذا وكــان طبيبًا كبيرًا أو مهندسًا أو صاحب شركة ضخمة أو ... أو .. أو ... ويتكلم عن الفرح الذي سينفق عليه عــشرات الألاف وعن جهازنا الذي سيكلفه من المال ما لم ينفقه أب على بناته من قبل، هل تريد الحقيقة يا استاذ .. والدي يشعر بعقدة نقص رهيبة تجلعه يريد أن يرانا نحن نأكل وندرس ونرتدي ما لم ينله هو في حياته، نصبح أطباءًا لأنه فشل في ذلك، نقــرأ الكتــب الضخمة المكتوبة بلغات أجنبية لأنه تمنى أن يفعل ذلك، نتزوج زيجات ناجحة ونقيم فرحًا أسطوريًا لأنه تزوج فتاة ريفية طيبة غير متعلمة ولم يقم فرحًا كما كان يحلم لأنه لم يكن يمتلــك مالًا في صغره، وأنا لن أتحمل كل هذا، لن أتحمله .. أنا أبحــث عن .. عن رجل بمعنى الكلمة .. صفاته .. للحق لم أفكر فيها كثيرًا ولكني تعرفت عليه بمجرد رؤيته .

كنت أغادر مدرستي وأنا أسير وحيدة أفكر بالمشاكل الــتي ستقابلني لو علم والدي أن مدرس التاريخ سيشكوه مني غــدًا عندما يحدثه على الهاتف، كنت أفكر حين وقفت أمام المكــان

الذي سيأتي فيه الميكروباص لاستقله وأنزل أمام شارع منزلي، طويل وسيم طيب الملامح يرتدي نظارة طبية بدون اطار جعلته أكثر وسامة وأكثر رجولة ورزانة، اقترب مني هـذا الـشاب وسألني بابتسامة عذبة عن أحد الشوارع القريبة .. ارتبكـت وأنا مازلت أنظر إليه بدون أن أنطق فكرر السؤال وابتـسامته تزداد، أنا في الغالب لا أتحدث مع أي شاب أو ولد وأتجنـب حديثهم فأنا أعرف أنهم يتسابقون على الفوز بالفتاة ذات الزي المدرسي لينالوا منها قبلة أو لمسة وفي النهاية ينتقلون لغيرهـا، ولذلك أتجنب الحديث معهم كي لا أظهر من النوع الـسهل مثل الباقي، لكن هذا الشاب كان يجب أن أجيبه، نعم يجب أن أتكلم معه

- " آخر الشارع ده هاتلاقي ميكانيكي تكسر يمين في يمين وتلف حوالين بيت قديم مكتوب عليه شا.... "

توقفت عن شرح بقية الطريق وأنا أرى في عينيه نظرة عدم الفهم المختلطة بالخجل فعرضت عليه أن يسير معي حتى نهايـة الشارع وسأصف له الطريق من هناك لاسهل عليه، لا أعرف كيف عرضت هذا العرض وقد ظهر الندم على وجهي وأنـا أقول داخلي أنه سيعتقد أنني فتاة لعوب و ... ولكنه وافق مع عبارة بسيطة يرجو أن لا يعطلني .. ابتسمت وسرنا والجميـل أنه كان صامتًا طوال الطريق وكأنه يخجل من التحدث معـي، ياالله هذا هو الرجل الذي أردته، لم يحاول أن يستغل وجـود فتاة تسير بجانبه ويفتح معها حوارًا لكي يتودد إليهـا، كنـت

سأموت وأحدثه حتى جائت لي فكرة أن أسأله عـن المكـان الذي يريد الوصول إليه بالتحديد فأجابني بخجل ثم سكت قليلًا وسألني إن كنت أسكن قريبًا من هنا فأجبته بـصدق بمكـان منزلي وسألته عن منزله فأجابني وهكذا وجدت نفسي أسـير بجواره يسألني بخجل وأسأله بخجل ونحن نبطئ في خطواتنا كي لا نصل لأخر الشارع، وحتى بعد أن وصـلنا إليـه أكملنـا الطريق، هل تعرف كم من الوقت ظللنا نسير؟ نصف سـاعة بدون أن نشعر حتى عدنا مرة أخرى إلى المكان الذي سأستقل منه الميكروباص إلى منزلي، أنا لست فتاة لعـوب والله ولكـني شعرت تجاه هذا الرجل بشعور مختلف، كأنني أريد أن استأمنه على أسراري وحياتي ونفسي، يمكنك أن تتخيل أننـا تبادلنـا أرقام هواتفنا المحمولة بعد أن حكى لي عن عملـه وطموحـه وحياته وحكيت أنا بدوري عن معظم حياتي بصدق وكأنني لم أحك لشخص من قبل .

هو يعمل مهندسًا متخصص في الشبكات بشركة اتصالات مشهورة ويبلغ من العمر خمس وعشرون عامًا، اسمه (عبد الله) اسمه جميل مريح به نبرة من السكينة تنزل على قلبي عندما انطق اسمه، والآن تطور الموضوع بسرعة لدرجة أننا لمدة اسبوعان لم نفوت ليلة واحدة لم نتحدث فيها لساعات .. كان دائمًا مـا يتصل هو بي ويظل يتحدث ويسألني عن حيـاتي وأحلامـي وطموحي وأنا أجيبه بسعادة وأندهش من لهفته علي وأنا الذي اعتقدت أنني أنا التي أتلهف عليه وليس هو، يمكنني أيـضًا أن

ألاحظ أنه ميسور الحال وهو يحدثني كل ليلة بالساعات من هاتفه الشخصي بدون أن يسمح لي أن أهاتفه أنا، يا له من شاب مؤدب متدين لا يفوت فرض صلاة ويسألني كل يوم عن صلاتي هل أديتها أم لا وينصحني بطريقة مهذبة رقيقة لا تجرحني، هذا غير أنه طوال الأسبوعان ابتعد تمامًا عن الحديث عن أي ما يخدش الحياء في كلماته ..!!! هذا هو الرجل الذي أردته يا أستاذ صدقني .

لدرجة أنه طلب مني ألا أخبر أي من صديقاتي عنه كي لا ينظرن لي على أنني فتاة سيئة السمعة تصادق الشباب وتحدثهم في هاتفهم ليلًا وأن أنتظر حتى .. حتى يأتي لمترلي ليتقدم لخطبتي.

كدت أقفز من الفرحة وأنا أسمعه يقول أنه سيأتي لمترلي بعد شهر على الأكثر ليتقدم لخطبتي، ستبدأ السعادة من الآن وسأغادر هذا البيت الكئيب وأكون في كنف رجل آخر يحميني من بطش والدي بي ويعطيني حرية اختياري والتي سأختاره بها بالتأكيد لأنه أعطاني تلك الحرية، عندما خرجت من مدرستي ذلك اليوم وجدت اسمه على هاتفي المحمول يتصل بي، ابتسمت ورددت عليه فسمعته يقول لي يجب أن أسير في الشارع الجانبي الموازي لشارع مدرستي، فلما سألته قال لي أن هناك مفاجأة تنتظرني، يتحدث معي على الهاتف وأنا أسير بعد أن تركت

زميلاتي بحجة أنني سأشتري شيئًا وأعود لهم مرة أخرى، سرت في الشارع حتى وجدته أمامي يحمل علبة هدايا حمراء كـبيرة وعليها وردة حمراء، ابتسمت وأنا أقترب منه وهو يغلق هاتفه ثم يتناول الوردة ويعطها لي ..

أخذتها وأنا أشتم رائحتها بنشوة، تلك الرائحة الدافئة لأنها من يد حبيبي (عبد الله)، أعطاني الهدية الكبيرة وطلب مـني أن أفتحها، فتحتها فوجدت دمية كبيرة على شكل قطة جميلـة، فرحت بها جدًّا وزادت فرحتي بعد أن طلب مني أن أسير بجانبه في هذا الشارع قليلًا ليتحدث معي لدقائق قبل أن أعود لمنزلي .

سرت بجانبه حتى نهاية الشارع نتكلم وأنا أشـعر بنعـاس بسيط يثقل جفوني، اتخذنا منعطفًا جانبيًا مليئ بالأشجار الجميلة وسرنا قليلًا حتى سمع (عبد الله) هاتفه المحمول يرن استأذن مني بخجل في دقيقة يتحدث فيها على الهاتف، أقاوم النعاس و(عبد الله) يبتعد عني وهو يتحدث على الهاتف بانفعال .. النعاااااااس، أريد أن أنام يا (عبد الله)، لماذا تبتعد هكذا؟ لماذا تدور الدنيا بي .. صوت من خلفي أعتقد أنه باب سيارة يفتح !!! حاولـت النظر خلفي بدون أن أقع بسبب الدوار ولكـن يـد رجـل وضعت على فمي ويد أخرى طوقتني وسحبتني لمكان ما أعتقد أنه سيارة، حاولت الصراخ ولكن شعور بالنعاس جعل لـساني ثقيل جدًّا حتى شممت رائحة تشبة رائحة الوردة الجميلة الـتي

أهداني إياها حبيب قلبي، ولكن الرائحة أقوى تلك المرة و ...
لم أشعر بشيء، استيقظت وعصابة على عيني تجعلني أسمع ولا أرى، اشتم رائحة منفرة كنت أشمها وأنا أزور خالتي في المستشفى منذ ثلاثة أعوام، ربما هي مطهرات طبية أو أدوية، أصوات كثير تتكلم، حاولت النهوض ولكني لا أشعر بجسدي !!! ثم عدت إلى النوم فجأة واستيقظت مرة أخرى وأنا أسمع هذه المرة حوارًا ميزت فيه صوت (عبد الله) ورجالًا آخرين .. لا أصدق ما أسمع، (عبد الله) يعمل في بيع الأعضاء البشرية؟؟؟؟؟؟؟ يتحدث عن جسدي وعن القرنية التي سيستخرجوها مني الليلة ليبيعوها؟!!!!

أحاول النهوض مجددًا فلا أشعر بجسدي .. (عبد الله) لم يحبني ولم يكن يحدثني إلا لاستدراجي، الوردة .. الرائحة الجميلة منها .. صوت السيارة .. ابتعاده عني وهم يأخذوني كي ينفي أي شبهه عنه لو رأه أحدهم، غبت عن الوعي تمامًا، ظللت في تلك الحالة إلا أن مررت بثلاثة عمليات لاستئصال أجزاء من جسدي، أشعر بهم ينتزعوا عيني وكبدي وشيء آخر يؤلمني وفي العملية الرابعة وأثناء تخديري شعرت براحة كبيرة، لقد مت وحان وقت دفني بعد أن أخذوا بعض الأشياء من جسدي كقطع غيار احتياطية وتركوا جسدي خاليًا، مستشفى (جولدن بادي) لجراحات اليوم الواحد بمدينة نصر، هكذا ينطقون الاسم، هذا هو المكان الذي أخذوا فيه أجزاء جسدي،

و(عبد الله) اسمه الحقيقي (محمد صابر محمد) وعمله الحقيقي مدرس ثانوي بمدرسة بالجيزة ويعمل مع مدير المستشفى في اجتذاب الفتيات وخطفهم لسرقة أعضاهن، وفي ليلة باردة نقلوني إلى تلك المقابر البعيدة ودفعوا لذلك النجس الذي يعمل تربي مبلغ من المال ليخفي تلك الجثة كبقية الجثث التي يخفيها، وكان نصيبي تلك المقبرة والتي لم يراع حتى حرمة دفني مع رجال.

***

انتهت (مريم) من كلامها فقلت لها بسرعة:

- " انتي هنا من امتى يا (مريم)؟ "

- " من سنة ونص، بابا وحشني أوي، ماما وحشتني أوي، كنت عايزة أتجوز، كنت عايزة أحلف، حرموني من كل ده "

هؤلاء المرضى يمتلكون عقلًا منظمًا يشبه عقل مريض جنون العظمة أو لأنهم .. لحظة مرة أخرى كيف تأتي فتاة لتجلس في عنبر كهذا في المستشفى؟؟؟؟؟؟؟؟ عنبر للرجال؟؟!!!!! ناديت على (مريم) ولكني لم أسمع صوتها، قدرت أنها ستصمت الآن ولكن صوت ثبت الدماء في عروقي دوى في الظلام .. صوت أطفال تبكي !!!!!!

- " تقدر تقول يا استاذ انت مين؟ "

صوت رجل عجوز أو على الأقل تعدى حاجز الخمسين قال العبارة السابقة، مازل صوت الأطفال يبكي في الظلام

- " أنا مريض جديد معاكم "

ضحك الصوت العجوز فقلت له:

- " انت مين ومين الأطفال اللي بتعيط دي؟ "

صمت طويل داخل الظلام قطعة الصوت العجوز ثانية:

- " أنا راجل فقير على باب الله دخلوني هنا من باب الشفقة مش أكتر، أخدوا فيا ثواب ودخلوني هنا .. أنا ميت من زمان أوي من سنين طويلة، أنا أول واحد جيت المكان ده، والكل نسيني، أتفرجت على الناس اللي دخلت وخرجت من هنا "

- " ومين الأطفال دول؟ "

- " دول حكايتهم بسيطة أوي "

الفصل الواحد والعشرون

حكاية الأطفال

قال الصوت العجوز:

منذ سنتين جاء رجل للتربي الذي أدخلنا كلنا هنا ، وهو يحمل شيئًا صغيرًا ملفوفًا في قطعة قماش وموضوع في كيس بلاستيك .. هل تريد أن تعرف من أتى بالشئ الملفوف بالقماش الأبيض؟ إنه ممرض في عيادة طبيب نساء خلصة، طبيب تخصص في إجهاض النساء الذين تكون الجنين داخل أرحامهم، وبالتالي فهم الآن جثث، يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العاهرة القاتلة، ثم يعطيه لممرضه ليذهب به إلى هذا التربي .

هناك ما يشبه العقد بين الممرض والتربي، عقد قديم جدًّا، عقد مصالح لتوريد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجثث كبار وكل شيء بحسابه، ولكن يا استاذ أحدثك الآن عن جثث الأطفال الصغيرة التي تأتي هنا في بعض الأحيان بحجم قبضة اليد .

الأطفال الذين لا يعلمون لهم ذنب في الحياة سوى أن هناك أم وأب لا يريدون وجودهم، أو لنقل الهم وقت الجسد غير

راغبين فيهم كأنهم اشتروا علبة جبنة من السوبر ماركت ثم أصبحوا غير راغبين في الجبنة فتخلصوا منها في صندوق القمامة، داخل هذا المكان ما يزيد عن ثلاثون طفلًا دخلوا إليه بغير ارادتهم ودفنوا هنا بغير ارادتهم، ينتظرون يوم القيامة ليأخذوا حقوقهم منه ولو أردت أن تتأكد من صدقي فزر ٢٣ ب شارع محمود علم مصر الجديدة، د / سامح حسان اخصائي نساء وتوليد.

***

فجأة توقف الصوت العجوز عن الحديث واكمال القصة؟!! تعلمت ألا أنادي على أحد ولكن صوتًا ما تحدث معي بطريقة مريبة، صوت شاب.

الصوت الشاب: " خالد، أهلًا بيك معانا "

جاء الصوت من على يساري تمامًا وكأن صاحبه يجلس بجانبي الآن، ولكن بلا خوف أجبته:

ـ " أهلًا بيك انت، انت عرفت اسمي منين؟ "

- " أنا عارفك كويس "

- " اسمك إيه؟ "

جاء الصوت في الظلام يقول

- " (حاتم) وسيبني أحكيلك حكايتي "

الفصل الثاني والعشرون

حكاية المؤلف

أنا (حاتم)، لن أتكلم عن تفاصيل حياتي سوى أنني سببت الكثير من الدهشة لمن حولي، الدهشة ثم الاستنكار ثم الرعب ثم الرضا بالأمر الواقع، هذا هو حال والداي بعد أن اكتشفا ما أنا عليه في الطفولة، عند غضبي يشعر جميع من بالغرفة بالالم أما عند شعوري بالنعاس يشعر أقرب الأشخاص لي بنفس الشعور بالنعاس، وصلت سن الخامسة ووالداي يخفون عن الجميع ما يحدث معهم، أجوع فيجوع أقربهم لي، أخاف من شيء بسيط كما يخاف أي طفل آخر فيشعر أقربهم لي بالخوف بلا سبب .

في ليلة ما كانت والدتي تضع العشاء لنا أنا ووالدي على المنضدة وفزعت هي حيث وجدت طبق الأرز الذي وضعته أمامي أصبح أمام والدي، بالطبع والدي تسمر من الرعب .. وأنا أكمل ما أفعل وأطباق المائدة تتبدل أماكنها وتتحرك على المنضدة حركة مهزوزة.

كنت أفعل ذلك لأحصل على اعجاب والداي معتقدًا أن ما أفعله هو حالة طبيعية يفعلها جميع الناس وأنني يجب أن أصل لها، ولكن والداي كان لهما رأيًا آخر، تحدثا معي تلك الليلة

وهم يطلبون مني أن أريهم ما أستطيع فعله .. أعتقد أن الفزع الذي ارتسم على وجوههم كان تعبير غريب علي أو على أقل تقدير لم أتوقعه من والداي عندما يراني أحرك أقلامي الرصاص وأكسرها من على بعد خمسة أمتار .

حاول والدي أن يتمالك أعصابه ولكن والدتي ابتعدت عند ركن الغرفة وهي تشاهدني وأنا أمسك القط الصغير الأسود الذي أحضره أبي منذ عام وأضعه أمامي وأنظر له بابتسامة طفولية فيتثاءب القط ثم ينام على الفور، سألني والدي وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه عن كيفية جعلي القط ينام هكذا! فقلت له ببراءة أنني لاحظت أن عمو (محمد) وطنط (سامية) يفعلان مثلما أفعل والكثير من أقربائنا حتى انتم تفعلون مثلما أشعر تمامًا فعندما أريد تناول الطعام وقبل أن أنطق ينطق من يجلس بجانبي أنه جوعان ومثل ذلك في النوم والحزن والشبع والغضب وكل ما أشعر به، فقلت في نفسي لما لا أجرب أن أتخيل أنني أشعر بشعور معين وأرى التأثير على من حولي، ونجح الموضوع فأصبحت أتخيل أي أفكار وأجد من بجانبي ينفذ ما أفكر فيه تمامًا، ثم انتهيت من إجابة سؤال والدي وسألته أنا بدوري ببراءة ودهشة أليس الجميع يستطيع فعل ذلك ..؟

لن أنس تلك النظرة وهو ينظر إلى والدتي المذعورة أولًا ثم ينظر لي بابتسامته ويقول أن الذي أمتلكه لا يمتلكه غيري وأنه يجب علي الحفاظ على سرية ما أملك كي لا يغضب مني هو

وأمي ومنذ هذا اليوم بدأت رحلات العلاج السرية لبعض الشيوخ لقراءة القرآن على رأسي اعتقادًا منهم أنني مصاب بمس من الجان أو لبس من العفاريت، واستمرت المحاولات الفاشلة لمحاولة اكتشاف ما يحدث لي حتى سن العاشرة الذي ظهر فيه علي أعراض مرض الصرع والنوبة الحادة التي أخافت من حولي فذهبوا بي للشيوخ مجددًا حتى وصلنا إلى شيخ المسجد القريب من بيتنا ولكنه نهرهم لتركي كل تلك المدة بدون استشارة طبيب عن حالات التشنج الغريبة تلك وأمرهم بالذهاب إلى الطبيب بسرعة . وعند د / أمجد فوزي جراح المخ والأعصاب الذي تبنى حالتي وطمأن أهلي علي؛ فعائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول، وفوجئ الجميع بتحرك الأشياء حولي أثناء نوبات الصرع مما جعل والداي يمثلون ملامح الدهشة أمام عائلتي كأنهم أول مرة يشاهدون ما يحدث .. وتابعت العائلة حالة الصرع الغريبة التي تنتابني وتتحرك من حولي الأشياء وحاول البعض مساعدة والدي بدله على أسماء شيوخ أو قساوسة حتى .

ولكن د / أمجد أنهى الموضوع عندما صارحناه بكل شيء وأريته الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية وخاصة بعد أن تحول زرع الأحاسيس في العقول إلى زرع ذكريات غير

موجودة في العقول .. قال أنه قابل أكثر من حالة خارج مصر مصابة بنشاط كهربي غير طبيعي في المخ يمكنها فعل العجائب برغم أنه لم ير حالة زرع ذكريات مزيفة مثلي في العقول ولكنه رأى حالات يمكنها تحريك المواد الصلبة أو تحريك الماء وحالة يمكنها التحكم في الأدخنة الناتجة عن الحرائق .

لكنه لم يعلم أن الذكريات التي ازرعها في العقول تمتلئ بالأخطاء والتي من الممكن أن يكتشفها الشخص الذي يفحص ذكرياته ، تلك الأخطاء علمت الها اهتزازت في طول الموج الكهربي الذي يصدر من مخي لمخ الشخص الذي أؤثر عليه وتلك الاهتزازات يظهر بها أخطاء بسيطة داخل الذكريات وتفقد بعض واقعيتها .

***

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة وتسمع من يقول أن فتاة تحكي عن (حاتم) بأنها شاهدته عندما كانا بالفرقة الأولى (السنة الأولى) بالكلية أثناء إحدى المحاضرات ينهض من المدرجات وينزل إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة ويعود لمكانه مرة أخرى ليكتب بالقلم بضعة أشياء ثم يعيد القلم أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الدكتور أو

يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة الـتي رأتـه، بالتأكيد الجان هم الذين يمكنهم فعل هذا .

***

خفت نوبات الصرع وتعامل معي الجميع طبيعيًا وتعاهدت أنا ووالداي أن نحتفظ بسر الإيحاءات النفسية التي يمكنني فعلها داخل اسرتنا كي لا أتعرض لمشاكل من حولي، دخلت الجامعة ونزحت إلى القاهرة وهناك تعرفت على فتاة أحببتها وتعاهدنا على الزواج، ولأنني أعشق كتابة الروايات فقد عرضت أعمالي على دور النشر التي رفضت جميعها قصصي، ولكن في آخـر عام لي في الجامعة اتخذت قرارًا أن أنجح في عالم الكتابة وأنـشر أولى رواياتي، ونسقت في عقلي قصة جديدة، رواية ضـخمة سميتها (نصف ميت) وضعت فيها شخصيتي وأفكاري الحقيقية وأحلامي وأسراري، وبدأت العمل عليها بكل ما ملكت مـن أفكار وجعلتها تحفتي الخاصة وقبل الانتهاء منها عادت النوبات الصرعية بسبب الضغط العصبي الجديد، فاضطررت إلى اخبـار فتاتي بموضوع تحريك الأشياء أثناء نوبات الصرع لأن الجميـع شاهد ما حدث أثناء نوبة الصرع التي حدثت لي في غـرفتي بالمدينة الجامعية .

المهم انتهت الرواية وأصبحت جاهزة للعـرض علـى دور النشر، بدأت بعرض نسخ منها وتلقيت الكثير من الرفض أيضًا بسبب ضخامتها ودمويتها ولأنها تـدور في أدب التـشويق

والإثارة، انتهت امتحانات آخر عام في الجامعة وعادت حبيبتي إلى الإسكندرية بلدها الأصلية تنتظر مني أي خطـوة للتقـدم لأهلها للخطوبة، وأنا مازلت أنتظر في القاهرة موافقة إحـدى دور النشر على الرواية، تعددت زياراتي لهم حتى أنني كنـت سأفقد الأمل مرة أخرى في قبول الرواية، حتى .. وافق هـذا الناشر المغمور على الرواية .. كان شابًا لم يغادر العـشرينات بعد، شاعر قديم قرر إنشاء دار نشر بفكر جديد، نشر مجموعة كتب حققت نجاحًا ليس بالقليل، تعرفت عليه عـن طريـق صديق لي حضر ندوة شعرية وقال بأنه سمع بهذا الناشر، قابلته وعرضت روايتي عليه .. وظل يناقشني بها مدة طويلة حتى أنني أعتقدت أنه سيرفضها بأدب كالباقيين، ولكنه قرر نشرها بل والمراهنة عليها، قال لي بأنه يريد أن يغير مفهوم الرواية عنـد الشارع العربي .. حلم مضحك هو أو علـى الأقـل جعلـني أندهش منه كيف يحمل تلك الأحلام في عقله، بعد أن توطدت صداقتي به عرفت أنه خريج كلية دار العلوم مثلي !!! وهو غير متزوج ويعيش وحيدًا ولذلك يمكنه المخـاطرة الآن قبـل أن يتزوج وتثقل أسرته كاهله .

كتب العقد معي ودخلت (نصف ميت) مراحل التنـسيق والطباعة واستلمت منه أول مبلغ في حياتي أحصل عليـه مـن كتاب، وذهبت على الفور طبعًا إلى المنصورة لاسـتلم دبـل

الخطوبة التي صممت أن أنقش عليها اسمي واسم حبيبتي بحروف بارزة خارج الدبل .

عدت للقاهرة لأرى بعيني النسخة النهائية من رواية (نصف ميت) تخرج لأعاينها من المطبعة .. الغلاف الثقيل الذي يحمل التصميم الذي صممه صديقي (عبد الرحمن فتحي) وبين دفتي الغلاف ترقد روايتي بلون الورق المائل إلى اللون البني .. احتفلنا أنا و(عماد خيري) الناشر الشاب على ذبك المقهى بوسط البلد بخروج الكتاب نشرب الشاي ونتحدث عن خطط التوزيع والرواية القادمة والمزيد من الأحلام .. (عماد) هذا من أطيب الشباب الذين قابلتهم في حياتي، دار النشر التي يمتلكها (dorcman) والتي اقتبس اسمها كما قال لي من اسم مطعم مشابه في اسبانيا عندما عمل بعد تخرجه وقبل عودته مصر.

ظللنا نتحدث عن الرواية وهو يسألني بطريقة خفية عن مغزى الرموز في قصتي والتفاصيل الدقيقة التي تشعره أن أحداثها حقيقية وأن شخصياتها من لحم ودم على حد تعبيره .

ثم تحدث معي عن مصادفة غريبة بخصوص أن بطل الرواية لم يجد ناشر لينشر له رواياته وقبل أن يموت بقليل وجد الناشر الذي نشر له الرواية .. ابتسم وقال ولكنك لم تذكر مصير الرواية ، فقلت له أنني بالفعل لم أفكر ماذا سيحدث للرواية

بعد موت صاحبها، فكرت قليلًا ثم ابتسمت له وقلت أنه لـو تلك الرواية واقعية فعلى الناشر أن يكمل ما بدأه المؤلف، تجهم وجهه قليلًا وكأنه فوجئ بكلامي فأكملت قائلًا بسخرية " لو أنا بطل الرواية وانت الناشر اللي في الرواية فأنا هاكون عايزك تنزل الرواية بعد ما أموت علشان أكون سايب ذكرى ليـا في الدنيا "

ظلت عينيه مندهشة برغم استمرار الحديث معي وقد كنت أشعر بأنه يفكر في آخر جملة قلتها من خلال نظرة عينيـه لي، الوقت أزف وحان وقت ذهابي إلى الإسكندرية الليلة لأكـون من الصباح هناك أقيم عند زميل والدي ــ الذي أوصاه علـى بالهاتف فهو يعرف أنني سأذهب لأتقدم لأسـرة حبيـبتي في البداية وعند حصولي على الموافقة أعود بوالدي للتقدم الرسمي ــ وفي المساء أذهب لمنزل أسرة حبيبتي لأتقدم لوالدها، غادرت المقهى سريعًا وأنا اتصل بحبيبتي وأبلغها أن لا تتصل بي الليلـة لأنني سأسافر لمكان هام وغدًا ستجد مفاجأة سارة، أغلقـت السماعة واستقليت الحافلة المتجه إلى الإسكندرية من عند محطة (……) وجلست داخلها.

جلست أفكر في الحلم القادم وبجانبي جلس شاب ارتسمت ملامح الحزن على وجهه، من وقت لآخـر يغمـض عينيـه وتنحبس الدموع في مقلتيه ويقبض على مسند مقعده بـشدة

كأنه يتألم من الحزن؟؟!! تسألت وأنا أقبض بيدي على علبـة الدبل عن هذا الشاب الحزين، تسألت عن مـا يفكـر فيـه، وسرعان ما تركته لأحزانه وعدت أنا لأفراحي أقرب الدبلـة الذهبية من فمي وأتخيل أن حبيبتي ترتديها ومن ثم أقبلها كأنني أقبل يد حبيبتي، فجأة شعرت بسرعة الأتوبيس تزيد وصـوت قطار و..

***

- " كفاااية "

قلتها بغضب وأنا أنهض .. لماذا قلتها بغضب؟ لماذا نهضت؟ لما زاد تنفسي؟ أطلقت صرخة طويلة، ألم .. ألم برأسي، كفى، سينفجر مخي من الألم، قطار يسير بـسرعة شـديدة، أههههههه صرخت وصرخت، لقد فهمت لقد فهمت القطـار وألم و... صوت باب الغرفة يفتح ثم صوت الكليك الناتج عن ضـغط مفتاح الإضاءة، والضوء يغزو المكان؟!!!!!!! وضعت يـدي أمام عيني بسرعة من شدة الضوء الأحمر الذي جاء من المصباح المعلق في سقف الغرفة، تعودت عيني على الإضاءة ففتحتـهما وأنا أحاول تمييز من ينظر لي من خارج الغرفة؟ إنهم الممرضان الذان قابلاني اليوم وكانا يجلسان خلف الكـاونتر ينظـران لي بذهول ثم ينظران لبعضهما؟!!! نظـرت حـولي .. مقاعـد مكسورة .. أخشاب .. ملابس مهرولة أين أنا؟

- " انت دخلت الأودة دي إزاي؟ "

قالها أحد الممرضان بدهشة ممزوجة بشك فنظرت أنا حولي مرة ثانية للغرفة الضيقة، أين المرضى؟ أين الأصـــوات؟ مـــاذا حدث؟ قلت وأنفاسي تتسارع من الخوف:

- " فين .. فين (ثابت)؟ (ثابت) هو اللي جابني هنا، فـــين الناس اللي كانت بتكلمني؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

نظرا لبعضهما مرة ثانية ثم دخل أحدهم للغرفة بحذر وقـــال وهو يساعدني على النهوض من على الأرض ــ أيـــن المقعـــد الذي كنت أجلس عليه ــ؟

- " مين (ثابت) ده؟ وانت ازاي وصلت لـــلأودة دي يـــا أستاذ،ومرضى إيه اللي انت بتتكلم عنهم، دي أودة كراكيب"

أمسك مرفقي وأنا أنهض بصعوبة وأنظر حولي، ثم أخرجني من الغرفة وأنا أجر قدمي وأنظر خلفي للغرفة مرة أخرى

- " صدقوني فيه واحد اسمه (ثابت) كان هنا وهـــو اللـــي دخلني العنبر ده و ... "

قاطعني أحدهم وهو يجرني بلطف كي أسير أســـرع معـــه قائلًا:

- " يا أستاذ قلتلك محدش اسمه (ثابت) "

توقفت أنا فجأة وتوقفوا هم معي، ما هذا الذي يحـــدث؟ لقد أخرجوني من الغرفة التي اتضح انها خالية وسرنا معًا في ممر صغير ثم نجد أنفسنا عند كاونتر الاستقبال الخاص بالمصحة؟؟؟ كيف هذا وأنا صعدت بجانب (ثابت) السلم وسرت في ممرات عديدة لأصل لتلك الغرفة !!!!!

- " استاذ أنا شوفتك النهاردة الصبح، مش انت اللي جيت تسأل عن مدير المستشفى؟ "

نظرت لقائل العبارة بارهاق وأشرت برأسي علامة الموافقة فقال الرجل عبارة لا أتذكرها ولكني تذكرت زميلـــه وهـــو يسأل:

- " انت دخلت الأودة ازاي يا استاذ؟ "

- " فيه حد وصلني ليها، هو مدير المستشفى جه؟ "

- " لا د / هادي مجاش النهاردة "

نظرت لعينيه قليلًا ثم شكرت من يمسك بيدي وأنا أحررها منه وأقف أهندم ملابسي .. كنت بدأت أشعر بشعور غريب، نظرت إلى الكاونتر ثم فوق الكاونتر هنـــاك ســـاعة معلقـــة.. ركزت عيني على الساعة المعلقة وأنا أقطب جبـــيني، عقـــرب الثواني في الساعة يدور عكس اتجاه عقارب الـــساعة، يـــدور لليسار !!!! نظرت للنتيجة المعلقة على الحائط تحت الـــساعة فوجدت الأرقام مكتوبة بالعكس كـــأنني أراهـــا في مـــرآة، صرخت بأعلى صوتي وأنا أمسك رأسي من الألم والأفكار .

الفصل الثالث والعشرون

رفعت (دعاء) رأسها من على رواية (نصف ميت) متسعة العينين، الدموع تتكون داخل مقلتيها من نهاية الرواية ومن الحقيقة المرعبة التي فهمتها، كانت تجلس على فراشها فنهضت من عليه وتركت الفراش وفتحت باب الغرفة متجهه إلى الشرفة التي تجلس شقيقتها بها منذ تركتها لتقرأ بقية الرواية .

فتحت باب الشرفة فوجدت (داليا) تجلس كما هي معطيه لها ظهرها، نظرت لها (داليا) وتأثير الدم لا يزال حول عينيها.. طالت النظرات بين الشقيقتين حتى تكلمت (دعاء) بنبرات بطيئة خافتة حزينة:

- " النصف ميت .. هايعمل الرمز ويتكلم عن المزيف.. هايكون معاه الدليل .. والمرافق هايوصله "

الدموع المتكونة في عين (دعاء) بدأت بالتساقط على الأرض وشقيقتها تنظر لها نفس النظرة الجامدة الطويلة .

***

الساعة الثالثة قبل الفجر

غرفة (هادي) وبابها المفتوح والعطر الذي انبعث منها، وداخلها يجلس (طاهر) على نفس المقعد يأكل شيئًا ما وهو ينظر إلى الشاب الذي يقف دائمًا بجانبه ويتحدث معه عن

جدول أعماله غدًا ويأمره أن يؤجل بعض المواعيد الصباحية لأنه سيستيقظ متأخرًا، ثم نظر الاثنان باتجاه باب الغرفة و(هادي) والرجلان يحملان الكفن ويدخل الجميع للغرفة، هذه المرة وضع الجميع الجثة على فراش (هادي) الذي فرش عليه ملاءة جديدة كما هي المرة السابقة .

نهض (طاهر) ووقف عند رأس الجثة ثم فتح الكفن لتظهر ملامح المرأة الشابة الممتلئة قليلًا جميلة الملامح قمحية اللون وقد ضفرت خصلات شعرها ثلاثة ضفائر، ضحك (طاهر) وهو يمسك أحد ضفائرها قائلًا:

- " حلوة أوي القوصة دي، طب ما كانوا يعملوهلها كيرلي أحلى علشان الموضة "

ضحك الجميع مجاملة لعبارة (طاهر) الذي نظر لهادي وقال له:

- " حلوة برضه المرة دي بس كفاية عليك اللي انت أخدته دا انت قابض ليلتين ورا بعض يا راجل "

ابتسم (هادي) وهو ينظر للأرض ويقول بنفاق واضح:

- " من غير فلوس خالص يا باشا، اتمتع انت بس واحنا تحت أمرك، ويارب تعجبك المرة دي "

ضحك (طاهر) وهو يضرب على جسد المرأة الميتـــة بيـــده على مناطقها الحساسة ويقول:

- " لا حلوة بجد "

ضحك (هادي) وحده هذه المرة واتجه إلى بـــاب الغرفـــة ليغادرها هو والحراس ولكن (طاهر) قال له قبل أن يغادر:

- " المرة الجاية هازودك ألف جنيه يا (هادي)، بس اتجدعن انت وخليها بسرعة "

قال (طاهر) العبارة السابقة لأنه خاف أن يغضب (هادي) فيؤخر عليه جثث جديدة فهو يعرف أن لهادي زبائن آخـــرين غيره ولذلك كان يجب عليه أن يطمعه كي يتصل به كلما جاء جديد، خرج الجميع وتركوا (طاهر) الذي أخرج من جيـــب قميصه علبة أقراص صغيرة وتناول قرصًا منها وهو يتكلم مـــع الجثة:

- " ايه يا حلوة مغمضة عينك ليه، مكسوفة مني وألا إيه "

مد يده يحاول أن يفتح عين الجثة ثم يخلع قميصه وســـرواله ويمسك بسكين صغيرة تناولها من على منضدة (هادي) ليقطع بها قماش الكفن من على جسد الجثـــة، في الخـــارج وقـــف الحارسان والرجل الذي يرافق (طاهر) على مسافة قريبة مـــن الغرفة ينظرون حولهم بين الحين والحين .

(هادي) يقف بجانب أحد الحراس ويناوله سيجارة فيلتقطها منه الحارس بقرف وهو ينظر إليه نظرة جانبية، أما الحارس الآخر فقد رفض السيجارة من يد (هادي)، ولكن (هادي) لم يعرض على الرجل الثالث المرافق لطاهر لأنه يعرف أنه سيرفض من البداية ولأن شخصيته ترعب (هادي) .. (علي الطيب) يتحرك وسط الظلام من الناحية الأخرى من الغرفة بمشيته البطيئة الهادئة وعينيه المتصلبة على نافذة الغرفة، وعقله .. العقل البسيط الطيب الذي استحق أن يحمله .

عقل تدور فيه الآن بعض الأفكار تنصب كلها حول الخطيئة، نعم فعقله قادر على تصنيف الخطيئة والصلاح، الطيب والشرير، الفعل الصحيح والفعل الخاطئ، وربما كان عقله أشد قوة في الحكم على الخطايا، صحيح أنه لا يعلم الكثير من التفاصيل عن الحياة والموت سوى قشور استنتجها عقله ولكنه يملك الاختيار .

عرف هذا منذ أول ليلة رأى فيها عملية بيع جثة، أول ليلة رأى فيها أحد هؤلاء المتأنقين يمارس الجنس مع الفتيات الصغيرات الذين فارقوا الحياة، أول ليلة وجد فيها (هادي) يقبض أموالًا من رجال أدى لهم خدمات مقابلها، يعرف الأموال جيدًا ويعرف أنها أداة المقايضة المستعملة ويعرف أسماء العملات أيضًا وبعض أشكالها، ويعرف أن (هادي) يقبض المال مقابل ما يحدث، اقترب أكثر من النافذة ومشاهد كثيرة تعود

لعينيه، عشرات الجثث وعشرات المقابر وعــشرات النعــوش، عظام، لحم، جثث، رجال يدفعون النقود، رجــال يغتــصبون الفتيات الميتات، و ... توقفت المشاهد عند الجثة التي دخلــت المقابر أمس، الجثة التي تحركت يدها قبل أن تدخل المقــبرة، أو بمعنى آخر الرجل الحي الذي دخل القبر .

انتبه هنا لطاهر العاري وهو يصدر الأصوات مــن شــفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شــفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتــئن مــن الألم.. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه .. لقد كان يرى منذ زمن أنه يملــك حق الاختيار بين الخير والشر .. والآن سيختار .

***

الفصل الرابع والعشرون

نظر لي الممرضان وأنا أمسك رأسي والأفكار تتسلسل في عقلي بسرعة .

نحن في شهر أغسطس فكيف يكون هناك دراسة في الجامعات؟

***

نظر د / مصطفى في ساعته ونهض بسرعة قائلًا:

- " نسيت أني عندي محاضرة لفرقة ثانية دلوقت، أنا هاكتبلك العنوان على ورقة واديهولك وبكرة تبلغني عملت إيه "

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها العنوان ثم ودعني

***

لا توجد في (فيصل) مصحات أو شارع بهذا الاسم .

***

(مصحة الأمل . فيصل . ش حسن حماد متفرع من ش العشرين)

***

د / مصطفى زيادة أحد أساتذة الطب النفسي في الجامعة توفى وأنا في العام الدراسي الأول فكيف يتحدث معي أصلًا؟

***

توقف دكتور / مصطفى لحظة وقال وهو يعدل وضع منظاره الطبي

***

نضج الطعام فنقلته للمائدة وحاولت أن أفتح التلفاز كثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدوا أن الكهرباء لا تصل من الأساس لدوائره الداخلية، لا يهم أخرجت من مكتبتي كتابًا **لدكتور مصطفى زيادة رحمه الله** ولكني تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام فأخرجت كتابًا آخر قديمًا .

***

جامعة عين شمس التي تخرجت منها وحصلت على الماجيستير في علم النفس من داخها كيف لي أن استقل مترو محطة (الدقي) من جانبها؟؟ ومحطة المترو التي تقابلها هي محطة (منشية الصدر؟؟؟)

***

توجهت إلى المترو ودخلت المحطة، دخلت لمحطة قطار المترو وسط الجموع وأنا أنظر بعيني على اللافتة التي علقت على المحطة (الدقي)، قلت في نفسي أنني لن أخذ وقتًا طويلًا كي أصل لمحطتي .

صورتي لا أراها في المرآة .

***

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا ..
أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!!

***

عيني اليسرى التي لا أرى بها جيدًا .

***

يدي التي تكلم عنها السائق .

***

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

– " مال ايدك يا باشا؟ "

***

كيف أسير بين ممرات عديدة وأنا خلف (ثابت) ثم عنـــدما أعود أسير في ممر واحد فقط؟

***

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته ثم ممر أيمن أيضًا، ثم أيسر ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق

سائق التاكسي الذي اعتقدت أنني رأيته من قبل قال لي أنه ربما قام بتوصيلي من قبل !!!!

***

– " احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟ "

ابتسم الرجل الطيب وقال:

– " أنا كمان باشبة عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني أني خليتك توصل متأخر".

***

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الأتوبيس متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محلات مأكولات كثيرة ويعلن للركاب أنه يمكنهم النزول لعشر دقائق لشراء ما يحتاجونه

***

وانفتح تابلوة السيارة لتقع على قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يعلق .. صورة لفتاة حسناء تبتسم .

– " دي بنتي الوحيدة "

عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالًا لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيـــام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه .

***

صرخت وأنا أتألم وأقول بأعلى صوتي:

- " كفاية يا (حاتم) "

فجأة اختفت قاعة الاستقبال في المصحة ووجدت نفـــسي أستيقظ في القبر .. أةةةةةةةةةةةةة الظلام والرائحة ودرجـــات السلم التي توقفت عندها وأنا أحاول الصعود إلى باب القبر .. صرخت فخرج صوتي متحشرجًا كما هو .. يـــدي الـــيمنى الوحيدة حركتها وأنا استشعر ملمس درجات القـــبر الترابيـــة وسط الظلام .. لماذا تفعل بي هكذا يا (حاتم) .. الـــذكريات تعود لي بقوة، الليلة التي قررت فيها السفر إلى الإســـكندرية، الحافلة التي استقليتها والشاب الذي جلست بجانبـــه، ذكـــرى جدي التي عادت لي وأنا استقل معه الحافلة في صغري ويجلسني على قدميه وأنام على صدره كعادتي في صغري في أي وســـيلة مواصلات استقلها معه .

الشاب الذي يمسك علبة صغيرة ينظر لها بين الحين والآخر ثم يقبل شيئًا ما داخلها، الدموع تتساقط من عيني وأنا أتـذكر جدي، صوت القطار ثم .. لماذا أشعر بالـدوار الآن، رأسـي رأسي أة .

***

عدت لأجد نفسي في الغرفة المظلمة مرة أخرى وأجلـس على المقعد وصوت (حاتم) الشاب يتكلم بجانبي .

- " (خالد) خليك معايا "

قلت أنا بصوت غاضب:

- " ليه بتعمل فيا كده يا (حاتم) "

***

فعائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول .

***

الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية وخاصة بعـد أن تحول زرع الأحاسيس في العقول إلى زرع ذكريات غـير موجودة في العقول ..

***

قلت بغضب:

- " انت اللي زيفت كل الذكريات دي يا (حاتم) وأنا لسة جوة القبر "

رد صوت (حاتم):

- " القبر اللي انت فيه دلوقت أنا جثتي جنبك وكل اللـــي كلموك هنا في الأودة دي جثثهم موجودة جنبـــك في القـــبر الحقيقي، الأودة دي اللي انت بتكلمني فيها عبارة عن ذكـــرى زرعتها في عقلك "

سكت قليلًا ثم قلت:

- " انت ميت؟ "

- " أة "

- " وأنا؟ "

- " حي "

أصبح صوته أكثر انفعالًا وهو يقول:

- " كان لازم أعرف أكلمك..كان لازم أعرف أوصـــلك اللي بيحصل حواليك،كان لازم استخدم ذكريات مخك وأبني عليها ذكريات جديدة كل ما تروح في غيبوبة،لكن أنـــا لمـــا بأزرع الذكرى في مخك عقلك بيرفـــضها ودة اللـــي بيخلـــي

الذكريات فيها أخطاء زي ما شكل الساعة والنتيجة كان غلط وزي ما صورتك في المراية مكنتش موجودة لأنك في الحقيقة لسة في القبر .. أنا أوحيت ليك بكل شيء شوفته، ودي الطريقة الوحيدة اللي أقدر اتصل بيك بيها علشان تسمعني أنا وباقي اللي في القبر .. كل مرة الذكريات كانت بتختل ويبقى فيها غلطات في الأماكن والأشخاص كنت بتفوق تلاقي نفسك في القبر مرة تانية .

***

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا .. أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، ياللهول ياللهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن .. أم أن ماذا؟ ابعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف مما فهم .. حاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة .

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟؟؟؟؟؟ توقفت لدقيقة أنظر للمرآة بنوع من التركيز محاولًا تأمل السطح المصقول وهل

به مشاكل في التنظيف !! لا جدوى من ذلك فانعكاس باب الحمام يظهر بالمرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر .

***

أكمل (حاتم):

- " أنا مكنش ينفع أوريك غير أشخاص ميتين، كل واحد شوفته واتعاملت معاه كان ميت ، استاذك في الجامعة وسواق التاكسي اللي هو سواق الاتوبيس اللي عمل الحادثة بينا، و(سيد) و(محمد) الممرضين اللي قابلتهم وانت داخل المصحة هما (سيد) و(محمد) اللي نقلوا جثثنا للتربي اللي اسمه (هادي) "

إذن فمدير المستشفى الذي سمعت أن اسمه (هادي) المقصود به أنه هو التربي .. والمصحة هي المقابر وبالتالي فمديرها هو التربي نفسه، ولكن من هو (ثابت) .

- " التربي اسمه (هادي ثابت عيد) يا (خالد) "

(ثابت) هو والد (هادي)، وهو من أدخلني لهذه الغرفة، إذن فوالد (هادي) كان يعرف بأمر تلك المقبرة منذ زمن وبالتأكيد هو ميت الآن لأني رأيته في الذكريات المزيفة، صوت (حاتم) يقول:

- " المصحة هي المقابر، وعينك الوجعاك هي عينك اللي انصابت في الحادثة، والايد اللي شاورلك عليها سواق التاكسي

هي ايدك اللي انقطع جزء منها، والساعة ١٢ الا عـــشرة لمـــا دخلت الأودة هي نفس الساعة والدقيقة اللي دخلنا فيها أنـــا وانت القبر امبارح، والممرضين الاتنين اللي شوفتهم دول اللي نقلونا ليلة ما دخلنا القبر"

يستحيل علي أن أصدق ما يحدث؟ الآن جـــسدي داخـــل القبر ولكن عقلي يسبح في ذكريات صنعها (حاتم) !!!

- " أنا بأقدر أزرع الذكريات والأوامر في عقـــول النـــاس القريبين من جسمي ، أي حد قريب من جسمي أقـــدر ازرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قدرت أعمل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو أمر أو ذكرى مش حقيقية "

سكت قليلًا ثم أكمل:

- " (خالد) الذكريات المزيفة هاتنتهي بعد دقايق خـــلاص ومش هاعرف أكلمك بعدها، لازم تخرج من هنا بأي طريقة، الأموات اللي كلموك عايزين منك تدل أهلهم علـــى جثـــثهم وتبلغ عن اللي عملوا فيهم كده "

بدأ الألم يعود لرأسي فسمعت صوت (حاتم) يقول:

- " عقلك بيرفض الذكريات اللي بحطها فيه خلاص، انت وعيك هايرجع ليك تاني .. اسمع لو خرجت من القبر ده وانت

عايش عايزك تروح مكان معين بعد ما تاخد حاجـــة معينـــة وانت رايح، وهاخلي أقرب واحد بقرب من قبري يـــساعدك، قولي يا (خالد) انت بتخاف من القطط؟ "

لم أفهم مغزى العبارة ولكنه أكمل كلامه ومن وسط الألم الذي اشتعل في رأسي سمعت عباراته الأخيرة وحفظتـــها عـــن ظهر قلب .. عن الرمز والدليل والمزيف والعنـــوان والميعـــاد والمرافق الذي سيرافق النصف ميت .. حفظت ما سأفعل ومـــا سأقول، أة الألم يشتد، أحرك رأسي يمينًا ويسارًا من شـــدته .. ارتعش وارتعش وأحاول الصراااااااااااخ.

***

لقد عاد وعيي ثانية .. أنا في القبر !!! على السلم الحجري كما أنا عندما كنت أحاول صعود درجاته، صرخت بقوة مرة أخرى لعل أحدهم يسمعني .

***

الفصل الخامس والعشرون

انتبه هنا لطاهر العاري وهو يصدر الأصوات مـــن شـــفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شـــفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتـــئن مـــن الألم.. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر، قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه، لقد كان يرى منذ زمن أنه يملك حق الاختيار بين الخير والشر .. والآن سيختار .

مد يده اليمنى يتحسس زجاج النافذة الذي يغلقه (هـــادي) دائمًا بدون أن يغلق مزلاجـــه، ســـحب الزجـــاج للخـــارج فانفتحت النافذة .. أمسك جيدًا بقاعدة النافذة ثم قفز بأقصى ما يستطيع ليتعلق بالنافذة ويحشر جسده ليدخل إلى الغرفـــة، العجيبة أن (علي) كان يحدث أصواتًا عند قفزه لداخل الغرفـــة فلم يستطع إخفاء صوت قدميه، ولكن الأغرب أن (طاهر) لم يسمعه وظل يفعل ما يفعله مع الجثة باستمتاع، سار (علـــي) داخل الغرفة مقتربًا من (هادي) الذي لا يشعر به وهو يعطيـــه ظهره، توقف بجانب المنضدة الموضوع عليها السكين، أمـــسك السكين بيده جيدًا .. شعر بقوة تسري في عروقه وهو يقترب من الفراش الذي يغتصب عليه (طاهر) المرأة .. يقف بجانـــب الفراش تمامًا.

الليالي التي نام فيها (علي) على الأرض داخل المقابر في البرد وعلى التراب والحصى صنعت من جسده النحيل كتلة حديدية خشنة، توقف (طاهر) عما يفعله ونظر ليساره ببطء لتـصطدم عيناه بجزع (علي) الذي يقف منتصب القامة أمامه.

رفع عينيه أكثر لتصطدم العينان الباردتان ببعضهما، عـين (طاهر) وعين (علي)، رفع (علي) يده الممسكة بالسكين لأعلى ثم هبط بها ليغرس السكين في رقبة (طاهر) .. دخلت السكين من شدة سرعتها حتى المقبض داخل رقبة (طاهر) ولكن (علي) لم يكتف بذلك وإنما جذب السكين لخارج الرقبة ليذبحه وهـو يدخل السكين ويخرجها كي يفصل رقبته، لوح (طاهر) كثيرًا بيده في الهواء وأخذ يحرك جسده ولكن السكين التي تـسير في رقبته تمنعه من التحرك، خرجت السكين من رقبته تاركه ايـاه يتحرك وصوت يشبه الصفير يخرج من حنجرته، توقف جسده فجأة ووقع من على الفراش .. سكنت حركته تمامًا لثـوان ثم عاد جسده يتحرك حركات تشنجية بسيطة توقفت بعد أقـل من دقيقة .

اتجه (علي) لباب الغرفة ليفتحه وهو ينظر للحراس الواقفين وبجانبهم (هادي) نظر له الجميع لحظة واحدة بعـدم فهـم ثم بسرعة أخرج اثنين من الحراس المسدسات وأطلقا النار بسرعة، كانا محترفان بحق وهما يطلقان النار على قدمه لأنهما لا يعلمان

بعد ما حدث، ولكن كما درسا فهما الآن يقيدان حركته كي يتأكدا مما يحدث .. دخلت رصاصة في فخذ (علي) فأصدر تأوه وتراجع بفعل دفعة الرصاصة لداخل الغرفة، جرى الحارسان للداخل بسرعة و(هادي) يتبعهما والشخص الثالث يخرج مسدسه هو أيضًا وينظر حوله، دخل الجميع الغرفة وتسمر الحارسان أمام جثة (طاهر) الملقاة، دخل الثالث الغرفة وهو يجري على جسد (طاهر) الملقى على الأرض يتفحصه .. كان (علي) ينهض من على الأرض وهو يستند إلى المنضدة ولكن الرجل الذي يتفحص جسد (طاهر) هتف بغضب وهو يوجه مسدسه ناحية (علي):

- " ياابن الكلب "

أطلق النار فاخترقت الرصاصة بطن (علي) ولكنه لم يسقط بل جرى عليه (هادي) يحاول وقف نزيف الدم الذي انفجر من أحشاءه، ثم جرى كل شيء أسرع من المتوقع .

صاح (هادي) في الحراس وهو يمسك السكين التي وقعت على الأرض ويغرسها في صدر أقرب الحراس إليه وفي نفس الوقت تخترق رصاصة من الحارس الآخر صدره لكنه لا يتأثر ويخرج السكين من صدر الحارس الأول ويحاول غرسها في صدر الحارس الثاني الذي أطلق عليه الرصاص، فتأتي رصاصة ثانية لتخترق صدره أيضًا ويعود إلى الوراء من قوة الرصاصة ليصطدم بجسد (علي) الذي مازال يقف .. عندما اصطدم

جسده بجسد (علي) الواقف أدار له وجهه بسرعة وهو يحتضنه ورصاصه أخرى تخترق ظهره وكلمه متحشرجه تخـــرج مـــن شفتيه لعلي:

- " اهرب "

فجأة جحظت عيناه عندما تلقى رصاصـــة أســـفل رقبتـــه وسقط على الأرض، وأمام أعين الباقيين جرى (علي) المصاب برصاصة في فخذه ورصاصة في بطنه وغادر الغرفـــة بمعجـــزة ورصاصتان تلاحقانه كادتا أن تصيباه، غادر الرجلان الغرفـــة وراءه وهو يجري أمامهما وهما يحاولان اللحاق بـــه أو تحديـــد مكانه بدقة وسط الظلام، كان يجري وهو لا يشعر بالألم، نعم كان لا يشعر بالألم ولكنه شعر بنوع من الانتشاء، نوع مـــن السعادة الغريبة، تنميل محبب في أطرافه، يجري وهـــو يفكـــر بسرعة .. لقد اختار وأنهى حياة المغتصب .. التنميل الجميـــل يزيد والنشوة تزيد أكثر، يكاد يسمع أصواتًا في أذنه يعرفها .

نعم نعم هي الأصوات الجميلة التي تقول (الله) .. إنها هـــي تعود لأذنه، ابتسم وهو يجري بين حارات المقـــابر في الظـــلام ويسمع صوت خطوات من يتبعونه تسرع وراءه، سمع صوت رصاصة ورأى ضوءاً يسير من جانبه الأيمن بسرعة، إنهـــا الأداة التي يصيبونه بها وقد أصابوا بها (هادي) ومات، هـــو يعـــرف

الموت حين يراه .. إذن سيكون مصيره كمصير (هـــادي) الآن عندما تصيبه الأداة التي يحملها الرجال، أم أنه أصيب بالفعـــل وسيموت الآن .. بقى أمامه القليل إذن لينفذ باقي ما اختاره، لو كان سيموت يجب أن يموت في مكان معين، يجب أن يعرف الجميع هذا المكان قبل أن يموت ، صوت الرصاصـــة يـــدوي ولكنه لم ير الضوء هذه المرة بل شعر بجسده ينتفض وجزء من ظهره يصيبه التنميل المحبب أيضًا ، (الله) (الله) (الله) الأصوات الجميلة تعلو في أذنه وهو يجري بين صفوف وشوارع المقـــابر وحارقها مقتربًا من هدفه .

ابتسم أكثر وهو يرى المقبرة من بعيد .. لقد حان الوقـــت، الصورة تهتز أمامه، الصوت يعلو أكثر .. صوت يدق بانتظـــام في أذنه مع كلمة (الله) .

اخترقت رصاصة أخرى جسده ولكنه كان قـــد اقتـــرب كفاية من المقبرة ورمى جسده عليها وهو يبتسم ويتشبث ببابها الحديدي الظاهر، تشبث جيدًا وهو يسمع الخطوات تقترب منه وهو نائم على وجهه يحتضن باب المقبرة، أطلق من حنجرتـــه صوتًا وأغمض عينيه والـــرجلان يقفـــان وراءه ثم يوجهـــان المسدسات باتجاه جسده .. انطلقت الرصاصات وهي تمـــزق جسد (علي) وتخترق لحمه وهو يتشبث بباب المقـــبرة، حـــتى انفجرت رأسه بعد أن اخترقتها ثلاثة رصاصـــات وســـكنت

حركته، انتهى الرجلان من اطلاق النار بعد أن تأكدا من موته ونظرا حولهما ثم جريا بسرعة من المكان .

***

جاء هذا القط من داخل المقابر، جاء بعد انتهاء إطلاق النار من داخل غرفة (هادي)، دخل من الباب وهو ينظر للجثث المكومة والحارس الذي يشهق وهو يعاني سكرات الموت، اتجه القط رأسًا إلى جثة (هادي) .. القط يمتلك مجموعة غرائز ومشاعر ولكنه لا يعلم لماذا أراد أن يلعب الآن داخل تلك الغرفة التي تمتلئ بالأموات؟؟؟؟؟ جثة (هادي) الملقاة على وجهها أخذ القط يخمشها بيده وكأنه يطمئن إلى مقاومة صاحبها .. بعد أكثر من مرة استخدم فيها القط مخالبه يخمش جسد (هادي) بحذر تأكد أن صاحب الجسد لن يمانع أن يلعب به قليلًا، مد مخالبه داخل ملابس (هادي) وكأنه يلعب حقًا معه ولكن مخالبه كانت تقصد جيب سروال (هادي) !!! دخلت المخالب داخل الجيب وخرجت ومعها خرجت العلبة الحمراء الصغيرة التي تحمل الدبل .

أخذ القط يلعب بها ثم قبض عليها بفمه وجرى لخارج الغرفة وصوت رصاص ينطلق من مكان ما خارج الغرفة .

***

الفصل السادس والعشرون

تنحنح الشيخ (حامد) بين الحارات المظلمة في أحد أحيــاء شبرا وهو يسير متجهًا إلى المسجد الذي يؤمه كي يرفــع آذان صلاة الفجر ثم يقيم الصلاة ويؤم المصلين، نظــر إلى (ســعد) الرجل العجوز الذي يقيم معه بالمترل بعد وفاة زوجته ويــسير معه أينما توجه ويعتني بالمسجد بين أوقات الصلاة، نظــر لــه وقال:

- " أنا شوفتك بتتكلم مع واحد امبارح بعد صلاة العشاء قبل ما أمشي، مين ده؟ "

رد (سعد):

- " ده راجل طيب جه الجامع امبارح الصبح وفضل قاعد فيه و "

لم يكمل كلماته لأنه توقف ليخرج مفتاح باب المــسجد لأنهما وصلا أمامه، فتح (سعد) الباب وأضاء مصابيح المسجد فوجد الاثنان رجلًا ينام على جنبه الأيمن .

- " إيه ده مين ده يا (سعد) "

قال (سعد) بلا مبالاه:

- " ما هو أنا مكملتش كلامي، ده هو الراجل اللي انـت شوفتني باتكلم معاه امبارح، الراجل ده فضل قاعد طول النهار يصلي ويعيط ويقرأ قرآن ويعيط ويدعي، بعد صلاة العشاء وبعد ما انت مشيت أنا كنت عايز أقفل الجامع، رحت ليه وقلتله أني هاقفل الجامع علشان يقوم يمشي، اترجاني وقعد يقول سيبني في بيت ربنا الليلة أنا عايز أبقى مع ربنا الليلة .. وعيط، بصراحة صعب عليا وسيبته وقفلت الجامع عليه "

- " شكله مجنون .. طب صحيه يا (سعد) علشان أنا هافتح الميكروفون علشان التواشيح اللي قبل الآذان، وكدة كده هايقوم من صوت الميكروفون"

مد (سعد) يده يلكز الرجل الراقد برفق ولكنه لم يتحرك، لكزه مرة ثانية بطريقة أعنف ولا استجابة؟!! مد يده الثانية وقلبه على ظهره ليستطيع إيقاظه فوجد جسده يستجيب بسرعة وينقلب على ظهره وفمه مفتوح مرسومًا عليه ابتسامة صغيرة وعينيه مفتوحة وتنظر باتجاه الأعلى، وقع (سعد) وهو يتراجع للخلف من هول المنظر وأخذ يردد الشهادتين والشيخ (حامد) يجري عليه ويتفحص الرجل الميت ثم يردد الشهادتين ويغلق عينيه ثم يجلس بجانبه يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض وهو يكاد يبكي من هول الموقف .. من هذا الرجل

الذي ظهر في المسجد أمس كما يقول (سعد)؟؟ وأخذ يـــصلي ويقرأ القرآن ويدعو الله؟ ولماذا أصر على المبيت في بيت الله؟

مد يده يبحث في ملابسه برفق حتى أخرج محفظته ومنـــها أخرج بطاقته وقرأ الاسم .. (محمد صلاح محمد النـــاجي)، قلب البطاقة ليرى عمله .. (ممرض) .

***

قام (محمد) بتعريفه على (سيد) بسرعة بأنـــه (هـــادي) حارس المقابر .. كان صوته خافتًا بالرغم من عـــدم وجـــود أشخاص حولهم لمئات الأمتار إلا أن المكان قد أضفى رهبـــة عليهم جميعًا .

***

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

– " انسى يا جدع وماتفكرش كـــتير في الحاجـــات دي خلي العايش عايش والميت ميت ومحدش بيشتكي لحد "

***

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة حتى أخرج (محمد) مبلغ من جيبه:

– " ألف جنيه يا عمنا، انا هأخـــد ٣٠٠ جنيـــه منـــهم و(سيد) ياخد ٢٠٠ وانت حلال عليك الباقي يا سيدي "

– " طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع يعني والعظم مكسر وألا إيه نظامه؟ "

***

– " دي الجثة المتقطعة "

لم يبد على (محمد) التأثر ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهم (هادي) بسرعة قبل أن تقع الجثة .

***

يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العـــاهرة القاتلـــة، ثم يعطيه لمرضه ليذهب به إلى هذا التربي، هناك ما يشبه العقد بين الممرض والتربي، عقد قديم جدًا، عقد مـــصالح لتوريـــد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجث كبار وكل شيء بحسابه .

***

استيقظ (خالد) من غيبوبته على صوت رصاص يصطدم بشيء معدني أعتقد هو أنه باب القبر، مرت دقائق وهو ينتظر في الظلام بدون أن يعرف ما يفعل؟ أصوات رصاص بجانب المقبرة بل وتصطدم بباب المقبرة؟ فكر قليلًا ثم قرر أن يكمل الزحف لأعلى درجات السلم بيده الوحيدة .. شعر بألم مرة أخرى في رأسه ثم وجد باب القبر يفتح فجأة والهواء يصطدم به مع دخول ذرات تراب في عينه التي يرى بها، مد أحدهم يده يقبض على معصم (خالد) ويسحبه لأعلى و هو يئن من الألم، خرج من القبر وهو ينظر حوله إلى الرجل الذي أخرجه، هذا الوجه ليس غريبًا على ذاكرته، ولكن الرؤية غير واضحة و ... إنه وجه جده المتوفي يبتسم له؟؟!!!

فجأة عاد الظلام و(خالد) يستيقظ من غيبوبته مرة ثانية وهو يطلق صرخة متحشرجة .. لقد كان يحلم بأنه خرج من القبر والذي أخرجه هو جده .

***

الفصل السابع والعشرون

رتبتي هي ملازم أول، اسمي (خالد محمد عبـــد الغفـــار) .. شرطي بدائرة (....)، سأحكي ما حدث .. عندما كنـــت أجلس داخل السيارة بجانب زميلي والأمـــين المرافـــق لنـــا في دوريتنا ليلًا بمنطقة (....) لأن هناك اشارة بلغتنا بأن هنـــاك مشاجرة تمت في تلك المنطقة وأنها ستشتعل مرة أخرى الليلـــة قبل الفجر .

كاد (عمر) زميلي الجالس على مقود السيارة يغط في النوم من التعب وأنا أجلس بجانبه أنظر إلى الطريق الخالي وأفكـــر في نقلي لتلك المنطقة الشعبية منذ شهور ومحاولتي رسم شخصيتي عند مجرمي المنطقة الذين يعرفون أسماء الضباط واحدًا واحـــدًا، والمشاجرات التي تمت ولم أستطع الفصل فيها بسبب هـــروب الأطراف المتشاجرة، نظرت في المرآة لأمين الشرطة المرافق لنـــا والذي أغمض عينيه ونام منذ ساعة ولكنه يستيقظ بين الحـــين والحين كي يعتدل وينظر لنا بشك إن كنت أنا وزميلي سنعنفه لو أكمل نوم أم نتركه، نظرت في ساعتي وفجأة سمعت صوت رصاصات قوية تطلق من مسافة بعيدة .. !!! استيقظ الأمـــين وانتبه زميلي وهو يدير السيارة ويقول شيئًا ما عن بدأ المشاجرة ولكن بالأسلحة النارية هذه المرة وهذا غريـــب علـــى تلـــك المنطقة.

كاد أن يتحرك بالسيارة ونحن نستمع لاطلاق الرصاص المتواصل من أكثر من مسدس .. قلت له أن الصوت ليس من هنا ولكن من مكان بعيد عن الشارع الذي من المفترض أن تحدث به المشاجرة، قال الأمين أن الرصاص يأتي من الشوارع القريبة من المقابر فنظرنا لبعضنا ثم قرر زميلي أن يذهب للشارع الذي ننتظر المشاجرة منه ثم نكمل طريقنا للمقابر حتى لا يكون في الموضوع خدعة، أمسكت اللاسلكي وأنا أبلغ إشارة سماع صوت إطلاق أعيرة نارية في منطقة دوريتنا وأطلب الدعم .. الرصاص يطلق كما هو ولكن أصبح بين الرصاصة والرصاصة فترة زمنية تعد بالثواني .

قاد (عمر) السيارة وهو يتجول في الشوارع التي خرج أهلها من منازلهم على صوت الرصاص والجميع يتسأل بدهشة، قاد السيارة إلى الشوارع الجانبية والأمين يدله على الطريق ليذهب إلى الشوارع المقابلة للمقابر .. وفجأة توقف صوت الرصاصات لدقيقة ثم دوت أكثر من ثماني رصاصات من مسدسين مختلفين في توقيت مقارب ثم توقف صوت الرصاص بعد ذلك، أصبحت على اتصال بضابط النبتشية في القسم وأنا أبلغه في اللاسلكي أننا نتجه إلى الشوارع المحيطة بالمقابر لأن صوت الرصاص يأتي منها .

الشوارع التي نقطعها بالسيارة استيقظ أهلـها وأضـيئت أضواء المنازل ورأينا بعضهم يسير باتجاه الشوارع التي نقطعهـا متجهين على ما أعتقد ناحية المقابر مثلما نفعل .. دوى صوت رصاصة منفردة، بعد عشر دقائق وجدنا تجمعًا حـول أحـد الشوارع يسد الشارع والأهالي يصيحون وبعـضهم يمـسك أسلحة بيضاء والبعض عصي غليظة ويلوحون بها، خرجنا مـن السيارة ونحن نخرج أسلحتنا ونصيح بالناس المتجمهرة متـوقين أن تحدث مشاجرة بيننا وبينهم ولكنهم هللوا عندما وجـدونا نتقدم وكأنهم كانوا ينتظروننا وأفسحوا لنا الطريق بينـهم !!! جرينا وسطهم نخترقهم محاولين الوصول إلى .. ما هذا؟ مجموعة من الرجال يضربون شيئًا ما على الأرض ويدوسونه بأحذيتهم وبعضهم يضربهم بالعصي؟ صحنا فيهم فلم يفسحوا لنا المجال .

اضطررت إلى شد أجزاء مسدسي الميري وأنا أحذر بصوت عال أنني سأطلق الرصاص إذا لم يبتعدوا عن ما يضربونه، انتبه الرجال وابتعد البعض وظهر على الأرض رجـلان مقطعـان الملابس يتلوى أحدهم من الألم والآخر سكنت حركته .

تكلم زميلي مع أحد الرجال بعنف وهو يسأله فرد عليـه الرجل:

– " احنا سمعنا صوت الرصاص جاي من المدافن اللي هنا "

وأشار بيده ناحية المقابر التي ابعتدت مائة متر عنا ثم أكمل:

- " جرينا على هنا لقينا الاتنين دول بيجروا وهـــايركبوا عربية واقفة هناك، وكانوا ماسكين مسدسات، جينــا نــتكلم معاهم راح واحد فيهم ضرب نار على عم (مــسعد) البقــال موته إبن الوسخة .. كانوا فاكرين إنهــم خوفونــا وركبــوا العربية، بس قبل ما يدوروها كسرنا عليهم الإزاز وخرجناهم بالعافية وواحد فيهم حاول يضرب نار تاني لكن مكــنش في مسدسه طلقات، مسكناهم وأدينا بنعجنهم أهو لغاية ما نعرف إيه حكايتهم "

كنت أسمع كلام الرجل وأنا أمسك الرجل الذي يتلوى من الآلم من ملابسه الممزقة وأرفعه ودمــاءه تغــرق ملابــسي .. حدثته بعنف عن ما يحدث حتى سمعنا صوت رجل يــصيح في الأهالي من داخل القبر:

- " قتلوا (هادي) يا رجالة، قتلوا (هادي) ولاد الكلب "

جرى الأهالي باتجاه القبر وأنا أسحب الرجل ورائي وزميلي يأمر الأمين بتقييد الرجل الآخر الذي لا يتحرك وحراسته حتى تأتي دورية الامدادت، توقفت عند المذبحة التي رأيتــها داخــل تلك الغرفة والأهالي يصيحون وأنا أمرهم بالابتعاد عن الجثــث لحين وصول المعمل الجنائي، نظرت هذه المرة بغضب للرجــل

الذي أمسك ملابسه وفعلت أغرب أمـــرًا جنونيًـــا يمكـــن أن أحاسب عليه .. قلت له وأنا أصرخ أن يتكلم بما حـــدث والا قتلته لم ينتبه لكلماتي وهو يغمض عينيه فقربت مسدسي مـــن أذنه وأطلقت رصاصة للأعلى مرت من جانب أذنه تمامًا وهـــو يمسك أذنه من صوت الرصاصة .

- " ها ياد هـــاتتكلم وألا الرصاصـــة الجايـــة تبقـــى في نافوخك".

وضعت ماسورة المسدس على صدغه وضغط بقـــوة وأنـــا أصيح فيه ولكنه قال بسرعة أنه سيتكلم .. قلت له أول سؤال خطر على بالي

- " انتوا اللي قتلتوا دول؟ "

- " أة "

- " ليه "

- " احنا يا باشا البودي جارد بتوع (طاهر) باشا، ولما لقينا واحد قتله وكان معاه سكينة ضربنا عليه النار قام التربي قتـــل واحد فينا فقتلناه . "

نظرت إلى الجثث .. جثة امرأة ملقاة على الفراش عاريـــة، جثة رجل عاري ملقى بجانب الفراش ورقبتـــه علـــى وشـــك

الانفصال عن بقية جسده، جثة شاب يرتدي بذلة وجثة ملقاة لشاب آخر، قارنت كلام الرجل مع عدد الجثث .. (طاهر) باشا قتل وحارس قتل والتربي قتل إذن أين قاتل (طاهر) باشا هذا، ومن هذه المرآة

- " فين اللي قتل (طاهر) بتاعكم ده "

- " قتلناه يا باشا "

- " وفين جثته يا روح أمك؟ "

- " مش هنا .. احنا جرينا وراه وسط الترب .. لغاية ماعرفنا نصطاده "

- " ومين الست دي ياد؟ "

لم يجب الرجل فكررت السؤال فقال بصوت خافض وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد:

- " دي كان (طاهر) باشا نايم معاها "

نظرت لها جيدًا .. لماذا هناك قماش أبيض تحتها؟

- " ومين قتلها دي يالا؟ "

قال لي بنفس الصوت الخافض:

- " دي ميتة من زمان يا باشا .. ميتة قبل ما (طاهر) باشا ينام معاها "

فتحت فمي مذهولًا !!!!!!!!

***

وصلنا لمكان جثة الذي قتل (طاهر)، وصلنا إليه بعد ربع ساعة أو أكثر والأهالي يستخدمون الكشافات أمامنا ويتفرقون محاولين تغطية أكبر مساحة من المقابر ليمكننا اكتشاف المكان الذي قتل عنده القاتل كما يقول الرجل الذي مازلت أقبض عليه، كانت شواهد المقابر تحيط بنا ونحن نقف أمام الجثة المقلوبة على وجهها .. تأملتها وتأملت مواضع الرصاص التي مزقت ملابس صاحب الجثة وكسرت جمجمته، اقتربت من الجثة التي صنعت حولها بركة من الدماء واقترب معي الأهالي و(عمر) يجلس على ركبته موجهًا كشاف أخذه من الأهالي إلى الجثة .. فجأة تراجع (عمر) للخلف وهو يقول:

- " فيه صوت جاي من تحت الأرض؟ "

أرهفنا سمعنا فسمعنا دقات مكتومة وصوت كأنه حيوان يعوي بصوت خفيض .

- " بسم الله الرحمن الرحيم، صوت من تحت الأرض "

قالها رجل يقف بجانبي فأمرته أن يخرس وأنا أرهف السمع أكثر والصوت يخرج بالفعل من تحت الأرض؟؟؟!!!!

قال أحد الأهالي بصوت عال:

- " دي جثة (علي الطيب) يا جماعة "

أمسك (عمر) بملابس الجثة وأزاحها قليلًا لليسار وسط اعتراض الأهالي وأصواقم ولكننا وجدنا باب حديدي تحت الجثة، إذن هذه مقبرة؟ والصوت يأتي من داخلها .. الدقات المكتومة تأتي من باب المقبرة، هناك من يدق من داخل المقبرة؟ تركت الرجل من يدي وسلمته إلى أقرب الأهالي لي وأنا أجري وأساعد (عمر) على ازاحه باقي الجثة ليظهر الباب الحديدي الغارق في الدماء كاملًا، له مقبض صغير حاولت جذبه ولكن قفل اكتشفت وجوده منعني من فتحه فأمرت الأهالي بالابتعاد وأنا أوجه مسدسي عند القفل ثم أطلقت رصاصة دمرت القفل وأمسكت أنا بفارغ الطلقة الملقى على الأرض لأضعه بجيبي بجانب الفارغ الذي التقطه من عند غرفة التربي كي أقدمهم عند التحقيق .

امتدت الأيادي تساعدنا على فتح الباب الحديدي حتى فتحناه ووجهنا الكشافات إلى داخل القبر .. ثم دوت صرخات الأهالي وبدأت حالات الإغماء .

هذا الذي وجدناه على سلم المقبرة لم يكن من الطبيعي أن تحتمل النظرة له لمدة طويلة، ذراعه اليمنى ممدودة أمامه

واليسرى مقطوعة، له عين يسرى مفقوعة منتفخة تخرج منـــها مادة متجمدة على العين، ملامح وجهه ليست واضحة بسبب دماء جافة وجلطات عند الصدغ يظهر منـــها لحـــم وجهـــه، وقطرات من الدم الطازج على وجهه واضح أن دم القتيل الذي كان ملقى على باب المقبرة تسرب إلى داخل المقبرة وســـقطت قطرات منه على هذا الشاب .

أما المرعب فكان شعر رأسه الذي كان بلون الثلج !!! شعر أبيض تمامًا يقف منتصبًا؟ نظرت له بفـــزع في البدايـــة أتـــبين تفاصيل هذا الشاب على ضوء الكشافات، ثم بدأت استنتج أن هذا الشاب دفن حيًا وظل داخل القبر حتى جئنا له .

مرت المفاجأة وقررت أن أمد يدي أمسك يد هذا الـــشاب الذي أغمض عينه اليمنى من الكشافات وهو يخرج أصوات من فمه وكأنه هو الذي صدم من مظهرنا .. أمسكت يده جيـــدًا وجذبته للأعلى وساعدني (عمر) وهو يمسك ببقيـــه جـــسده العاري ونحن نخرجه للأعلى، في تلك اللحظة شعرت بـــصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريـــد مساعدته بلا سبب؟؟؟

جسده مليء بالسحاجات والجروح والكـــدمات، أمـــرت الناس بأن يحضروا ماء بسرعة وأنا أراقب حركـــات الـــشاب

الذي يحاول فتح عينيه الوحيدة وينظر لنا .. خلع أحدهم جلبابه ووضعه على جسد الشاب ليداري عورته، أعتقد أنه لا يرى لأنه يحرك عينه حركه عصبية، يا الله هذا الشاب دفن في القبر بدون أن يعلم أحد به .. نظرت إلى القبر بسرعة وأنا أمر الأهالي بأن يترل أحدهم بكشاف بسرعة ليستكشف القبر من الداخل إن كان هناك أحياء أم لا، قلت الأمر حين جائتني زجاجة ماء من يد أحدهم ففتحتها ورششت الماء على يدي وأنا ألمس وجه الشاب وأقرب يدي من شفتاه التي امتصت اصبعي ولسانه يخرج من فمه لاهثًا، خرج الذي دخل ليستكشف القبر وقال أن القبر يحتوي على جثة داخل كفن وعظام كثيرة وبقايا جثة، كان يقول هذا وهو يسد أنفه بيديه، أعدت رش الماء على يدي ووضعتها على شفتيه حتى لاحظت أنه يركز عينه اليمنى على وجهي، إنه يراني الآن، مد يده اليمنى وأمسك بملابسي وجذبني نحوه فقربت أذني من فمه متوقعًا أن يتكلم ولكنه قال بصوت خافض:

- " شربني مية، ماتخافش هاقدر اشرب "

أمسكت غطاء الزجاجة وصببت به بعض الماء ثم جعلته يعتدل على يدي وصببت الماء داخل فمه فلاحظت أنه يحاول الابتسام لي فابتسمت أنا على الفور له وأنا أناوله مزيد من الماء ولكنه أخذ يسعل بقوة وجسده يهتز .. صوت آذان الفجر

يعلن في أقرب مسجد لنا فأجد أن ابتسامة الشاب تتسع ثم يمسك بملابسي مرة ثانية فأقرب أنا أذني على الفور لأسمع عبارات متقطعة:

- " اكتب .. اكتب كل كلمة هاقولها دلوقت .. أنا راجع من الموت .. علشان حاجة مهمة لازم أعملها "

اقشعر جسدي من عبارة عائد من الموت هذه، لماذا ربتت على رأسه وأنا أقول له بأني سأفعل، لا أعرف، لا أعلم حتى الآن لماذا نفذت ما قاله لي في تلك الليلة، لماذا أمرت من حولي بإحضار ورق وقلم بسرعة .. لماذا انتظرت معه لحين قدوم الاسعاف، لماذا عندما جاء الورق والقلم بعد ربع ساعة أمسكته وقربت أذني من فمه وهو يقول:

- " هاتلاقوا جوه التربة عظم لجثة (محمد رفاعي الحوت) انقتل من ست اشهر، قتله واحد اسمه (وليد) .. (محمد) كان عنده قهوه في الشرابية "

أخذ أنفاسه وأنا أقيد ما يقوله برعب و(عمر) يسند جسده

- " فيه جثة بنت تحت برضه اسمها (مريم سامح سليم) كانت عايشة في شبرا المظلات واختفت، خطفها واحد اسمه (محمد صابر محمد) بيشتغل مدرس ثانوي في الجيزة، باع جسمها لمدير مستشفى (جولدن بادي) اللي في مدينة نصر وهناك عملولها عمليات وأخدوا منها أعضاء من جسمها "

كيف يعرف هذا الشاب كل تلك المعلومات، وجدتني أسجل كل ما يقوله بدون مناقشة حتى عندما أملى علي اسم طبيب أمراض نساء وتوليد وقال أنه يجهض الحوامل وقال على عنوانه كتبت ذلك بسرعة .. وفي النهاية قال:

- " أنا اسمي (خالد) "

اسمه كاسمي !!!

- " أنا و(حاتم) كنا في الأتوبيس اللي عمل حادثة مع قطر اليومين اللي فاتو "

تذكرت الحادثة بسرعة لأنني شاهدت أحداثها على التلفاز ولكن (خالد) قال بعد أن طلب بعض المياة وأعطيته إياها

- " المستشفى خبت عدد الجثث الحقيقي اللي راحت في الحادثة ودفنت الجثث المشوهة في مقابر الصدقة، وأنا و(حاتم) الله يرحمه نقلونا هنا ودفعوا للتربي اللي اسمه (هادي) علشان يدفنا من غير تصريح "

ذهلت من كمية المعلومات التي قالها لي فقلت له بعدما فقت من ذهولي:

- " انت عرفت كل الحاجات دي ازاي "

وجه عينه الوحيده للقبر وابتسم وقال:

- " (حاتم) قاللي "

***

جائت سيارة الاسعاف والأهالي يدلونها على الطريق إلينـــا وهم يحملون المحفة وضباط الشرطة يقفون عند غرفة التربي كما علمت والوضع أصبح تحت السيطرة فعلًا، إلا أن (خالد) نظـــر فجأة بعينه الوحيدة ناحية الأهالي فنظرت مثله ولكني لم أفهـــم .. ركزت النظر فوجدت قط يقترب بحذر منا و(خالد) ينظـــر له هو؟؟؟ فجأة مد يده ناحيه القط فجرى القط ناحيته وأحـــد الأهالي يحاول ازاحته ولكن القط مصر على التقدم !!!! اقترب أكثر منا فوجدت (خالد) يبتسم للقط الذي بات على بعد متر واحد منا، هذا القط مفتوح الفم وهو ما لاحظته عندما اقترب من ضوء الكشاف، مفتوح الفم ويحمل داخله شـيئًا مـــا !! اقترب في النهاية من يد (خالد) الممدودة، (خالد) ممـــد علـــى الأرض ونصف جسده مغطى بالجلباب الذي أعطاه لنا أحـــد الأهالي وزميلي (عمر) يسنده من ظهره ليبقى ظهره مفـــرودًا معتدلًا وهو يمد يده ناحيه القط الذي توجه ناحية اليد ووضـــع فمه بها أو بالتحديد وضع ما بفمه بها، فقبض (خالـــد) علـــى الشيء جيدًا أما القط فنظر حوله للناس مفزوعًا وكأنه يفيق من غيبوبة ما ثم أطلق صوت مواء غاضب وهرب بـــسرعة وهـــو يتخبط في أرجل الناس؟؟

نظر لي (خالد) واستطاع ان يبتسم باجهاد وهنا وصـــلت محفة سيارة الاسعاف فمد (خالد) يده ناحيتي فاقتربـــت منـــه وأمسكت يده فقال لي بصوت هامس:

- " خليك معايا وماتسبنيش "

تبع قوله بأن وضع في يدي ما كان في يده فأخذتها ورجال الاسعاف يرفعونه برفق ويضعونه على المحفة وهو مازال يوجه عينه الوحيدة لي وكأنه يطلب مني أن لا أتخلى عنه .

***

الفصل الثامن والعشرون

لم أتركه وذهبت وراء سيارة الاسعاف بسيارة الدورية حتى وصلنا لمستشفى الساحل وحملوا (خالد) لقسم الطوارئ وأنـــا أتحرك بجانبه في المستشفى وهو يتجه لقسم الطوارئ ومحلـــول معلق بيده اليمنى وممرض يمسح بعض الدم من حـــول بعـــض أجزاء جسده العارية . وهو بين الحين والآخر ينظر لي ويغمض عينه براحة واطمئنان .

دخل لغرفة ودخل ورائه طبيبان ثم تبعهم بعض الممرضـــين وممرضة تحمل محاليل بيدها .. خرج علي أحد الطبيبان الـــذين كانا في الغرفة منذ قليل وهو يقول لي:

- " هو إيه حكايته؟ "

- " اندفن غلط من يومين بعد حادثة اتوبيس اســكندرية اللي فاتت وفتحنا التربة من ساعة لقيناه صاحي وبالشكل ده؟ طبعًا ايده مش هاينفع ترجع تاني "

- " مش هاينفع خلاص دي عدى عليها مدة كبيرة ثم انت ما لاحظتش إن فيه حروق عند مكان القطـــع كـــأن الجـــرح انكوى بالنار من الحادثة، هو ايده لقيتوها جنبه؟ "

تذكرت أننا لم ننتبه لذلك فأجبته أننا لم نبحث داخل القبر وانشغلنا بنقله للمستشفى، تركني بسرعة وهو يدخل للغرفـــة ولكنه قال قبل أن يعبر باب الغرفة:

- " مش هاينفع نديله بنج كلي لأن دكتور التخدير مـــش هنا وهو عنده هبوط واضح، على فكرة هو عمال يقول عـــايز يشوف الظابط .. أكيد يقصدك "

مرت نصف ساعة ووجدت الطبيب يخرج لي مرة أخـــرى وهو يقول بأن المريض سيدخل لجراحة في عينه اليسرى بسبب الشوائب التي تعلقت بها ولتنظيفها كي لا يتلوث جرحها وقال أن الجراحة ليست كبيرة ولن تأخذ الكثير وســيكون المخــدر موضعي لذلك لن يحتاجوا لدكتور التخدير، بعد ساعة ونصف وجدت الممرضات ينقلن (خالد) على المحفة قادمين من المصعد ووجهه مغطى بالضمادات ويرتدي ملابس المرضى وجـــسده مليء بلاصقات الجروح .. أدخلوه في إحدى عنـــابر قـــسم العظام في الطابق الثالث ودخلت أنا معه، أعطوه حقنة أمـــامي وعلقوا له المحاليل ثم تركوه فجلست بجانبه وعينه اليمنى تتحرك حوله لتستكشف المكان، يظهر الاجهاد واضحًا على ملامحـــه وعلى جسده ولكنه أصبح أحسن حالًا عن ما كان عند الفجر.

سألني عن الساعة فأجبته أنها الثامنة صباحًا .. سألني عـــن اسمي فأجبته أنني (خالد)، ابتسم كعادته معي وقولت أنا:

- " إيه حكايتك يا (خالد)؟ "

تكلم بصعوبة وهو يقاوم النوم:

- " (خالد)، أنا ممكن ما يكونش قدامي كتير، أنا قربت من الموت أوي وربنا أراد رجوعي علشان خاطر حاجات مهمة لازم أعملها زي مقولتلك"

أنا أصدق هذا الشخص، هذا الشخص يعلم الكثير، يتكلم بطريقة من اقترب من الموت فعلًا .. استمعت لبقية كلامه:

- " أنا قلتلك على أسامي ناس وعنوانيهم وجرايمهم، ودي وصية الناس اللي انقتلوا واندفنوا غدر في التربة اللي كنت فيها، دي أمانة أنا حملتهالك لازم ترجع الحقوق لأصحابها وتبلغ أهل اللي ماتوا بالمكان اللي اندفنوا فيه، وتاخدوا حقوقهم من اللي عملوا فيهم كده .. مش باقي غيري أنا و(حاتم) "

- " (حاتم) مين؟ "

- " كان معايا في الحادثة، ووصاني وصية وحيدة ليه، وصاني أوصل أمانة لواحد مهم عنده أول ما أخرج من القبر "

أخرجت من جيبي العلبة الحمراء التي أعطاني إياها (خالد) وأشرت لها إن كان يقصدها فحرك رأسه علامة الموافقة

- " أنا ما أعرفش أي تفاصيل عن أهل (حاتم)، ما أعرفش غير الشخص اللي أنا هاوصله الأمانة، علشان كده لازم أوصلهاله النهاردة "

- " انت ما ينفعش تتحرك من هنا لأن بعد ساعة بـــالكتير هاتكون النيابة هنا بتحقق معاك، قولي العنوان وأنـــا هاوصـــل الأمانة "

سعل (خالد) قليلًا ثم قال:

- " أرجوك لازم أوصل الأمانة دي دلوقـــت، مـــاينفعش أتأخر، دي أمانة وصهاني واحد ميت، وصية ميت "

فكرت في كلامه الغير منطقي، يمكنني أن أتهمـــه بـــالجنون والخبل وأنا مستريح الضمير ولكن مع ذلك لا يمكن أن أتجاهل كل ما يتكلم به، ثم لماذا أجد أنني مجبر على تصديق كلماتـــه؟ لماذا أشعر أن علي مساعدته؟

- " انت عايز تساعدني بس خايف "

قالها (خالد) فاندهشت كيف عرف هذا؟ فقلت:

- " وانت إيه اللي خلاك متأكد من كده؟ "

زادت ابتسامته وهو يقول:

- " (حاتم) أكد لي عليك "

- "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

- " مش وقته دلوقت المهم أنا عايز أخرج من هنـــا وأروح اسكندرية "

- " اسكندرية؟؟؟؟ تخرج ازاي بس؟ ثم انت واحد حقنـة .. وقت وباين عليك هاتنام "

نظر بعينه حوله ثم قال لي هامسًا:

- " ماتخافش عليا من الحقن أنا درست حاجات كـتير في العقاقير المنومة والمهدئة، كل اللي هاحتاجه منك تشتريلي مـن أي صيدلية دوا اسمه (هيدانثوتين) علشان أفوق شوية، وعـايز لبس ألبسه واحنا خارجين "

نسيت أنني ضابط شرطة ونسيت ما قـد يحـدث عنـدما أساعده ونسيت أنه ربما يهذي وسيطرت علي فكرة واحـدة هي مساعدته وتنفيذ طلباته .

***

- " أنا بأقدر أزرع الذكريات والأوامر في عقول الناس القريبين من جسمي ، أي حد قريب من جسمي أقدر ازرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قـدرت أعمـل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو أمر أو ذكرى مش حقيقية "

***

أمسكت يده جيدًا وجذبته للأعلى وساعدني (عمر) وهو يمسك ببقيه جسده العاري ونحن نخرجه للأعلـى، في تلـك

اللحظة شعرت بصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريد مساعدته بلا سبب؟؟؟

***

خرجت من المستشفى بسرعة وأنا اتجه إلى أقرب صيدلية وابتاع منها هذا العقار والذي جعل الصيدلي يصحح لي الاسم بعد أن نطقته له بطريقة خاطئة، ثم عرجت على محل (.......) الذي يفتح ٢٤ ساعة في اليوم ودخلت لأبتاع حذاء وشراب وقميص وسروال وملابس داخلية ..كنت أختار مقاسات تقريبية تصلح لجسد (خالد) الرفيع، عدت بعدها إلى المستشفى وأنا أحمل ما أحمله في حقيبة كبيرة حتى أن عامل الأمن لم يوقفني بسبب ملابسي الميري ونظرتي الحادة، صعدت لخالد وطلب هو أمام الجميع أن أسنده ليذهب إلى دورة المياة ففهمت ما يقصد .. استند علي حتى دخلنا دورة المياة وساعدته على ارتداء الملابس كاملة، ثم خرجت من دورة المياة وخرج هو معي نسير بطريقة طبيعية يتسند علي وكأنه يغادر المستشفى وأنا أرافقه للخارج و لم يمنعنا أحد .

***

- " فيه احتمال كبير أحد جزا لما يعرفوا اللي عملته ده "

قلت العبارة لخالد الجالس بجانبي في السيارة فسمعته يضحك بصوت مكتوم مرهق ثم سعل بسبب الضحك وقال:

- " أنا أسف بس أنا محتاجك أوي "

- " انت متأكد من العنوان .. متأكد إنه جنب خالد بن الوليد؟ "

- " أة "

فجأة قال لي (خالد):

- " انت مش نفسك تعرف إيه اللي بيخليك تساعدني؟ "

- "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

- " فاكر لما خرجتني من التربة؟ مش حسيت إنك عايز تساعدني من غير سبب "

- " طبعًا فاكر "

نظرت له بحدة وأنا أحاول أن استشف ما يقصده فأكمل قائلًا

- " دلوقت أنا هاحكيلك على كل حاجة وعليك إنك تصدق كل حاجة وتفهمها "

اقتربنا من الإسكندرية والساعة قاربت على الثانية عشر ظهرًا وهاتفي مغلق واللاسلكي الخاص بالسيارة أيضًا .. ما أفعله هو الجنون بعينه .

***

الفصل التاسع والعشرون

حالة (داليا) ساءت بعد أن امتنعت عن الحديث ورفضت النوم، وشقيقتها (دعاء) حالتها ليست أفضل بعد أن ظلت جالسة في الصالة تنظر للساعة وتضع رأسها على يدها، (دعاء) تجلس في الصالة تنظر أمامها شاردة أما (داليا) فوجدتها على فراشها تجلس مفتوحة العينين تنظر للسقف ولا تريد الكلام، الساعة الآن تخطت الثانية عشر ظهرًا وهذا كثير .. أكثر من المحتمل، كيف لأحد أن يتوقع ما يدور بعقل (دعاء) .. هل تتوقع أنها تسترجع الآن أحداث رواية (نصف ميت)، الكاتب الشاب (حازم) الذي يموت ويدفن ويترك زوجته (داليا) ميراث كبير ورثه منذ أيام و لم يطلعها عليه وروايته الأخيرة المسماه (نصف ميت) والتي يترك فيها لزوجته دلائل وألغاز عليها أن تنتبه لها، (حازم) الذي يعاني من الصرع وتتحرك من حوله الأشياء، (حازم) الذي يدفن في مقابر عائلته يبدأ بارسال الرسائل المبهمة لدينا والتي تكتشف أن تلك الرسائل تتشابه بل وتتطابق في بعض الحالات مع الرسائل الموجودة في روايته .

- دمية على شكل عروس تنزف دمًا وترسم كلمة اعتاد زوجها أن يكتبها دائمًا، كانت تلك الكلمة في الحقيقة هي استغاثة لداليا لعلها تنتبه أن زوجها يعذب، و(داليا) ظهر لها

نفس الشكل تقريبًا ولكنها لم تفهم في البداية لأنها لم تتـــذكر تلك التفصيلة في الرواية الأصلية، إذن (حاتم) يرسل لهـــا أنـــه يعذب .

- وجه ضبابي لشخص يظهر لها في المـــرآة ومكتـــوب في الرواية أن عليها أن تحفظ هذا الوجة لأنه وجه النصف ميـــت، أما (دينا) فرأت في الصور التي التقطتها (دعاء) لها هذا الوجـــه الضبابي الدخاني إذن هذا هو وجه النصف ميت؟ هـــل هـــذه مصادفة؟

- ثلاث دقات متفرقة على ثلاثة مراحل تسمعها (دينا) من على باب الشقة وعندما يفتح شقيقها الباب لا يجـــد الطـــارق وذلك يتوافق مع الرواية التي تقول أن الثلاثة دقات هما الرمـــز الذي سيقوم به النصف ميت عند الحضور، و(داليا) تعرضـــت لنفس الموضوع .

- (حازم) الذي في الرواية يمتلك قدرة نفسية تمكنـــه مـــن زراعة ذكريات مزيفة في العقول القريبة منه جـــسديًا لفتـــرة معينة.

- تصحو (دينا) لتجد دماء على صدرها وتعرف أن الدماء ترمز بصفة ما إلى النصف ميت،و(داليا) استيقظت لتجد الدماء حول عينيها اليسرى .

انقطعت (دعاء) عن التفكير وهي تسمع جرس الباب يضرب، يالنهول لقد حان الموعد .. حان الموعد كما كان في الرواية ، الموعد الذي يأتي فيه النصف ميت والمرافق، لقد انتهت جميع الدلائل والرموز، جرت على الباب تفتحه بدون وعي ففزعت من وجه (خالد) المغطى بالضمامات وشعره الأبيض الغريب وبجانبه الشاب الذي يرتدي ملابس ضابط، يده اليسرى غير موجوده تراجعت للوراء فتقدم (خالد) لداخل الشقة وهو يستند على الضابط .

- " (داليا) هنا؟ "

- " انتوا مين؟ "

تكلم (خالد):

- " من طرف (حاتم) "

صوت خطوات (داليا) تأتي من غرفتها وهي تنظر لخالد والضابط، كانت الهالات السوداء تحت عينيها واضحة وشعرها عقصته للأعلى وهي مرتدية ملابس المنزل .. جلست على مقعد الصالة وهي تقول بصوت مرهق:

- " أنا (داليا) كنت مستنياكم "

(خالد) اتجه للمقعد المقابل لها وهو يجلس عليه بمساعدة الضابط .. جلس الاثنان أمام بعضهما البعض و(خالد) يستخدم عينه الوحيده في التحديق بداليا التي لم يظهر على

ملامحها الدهشة من مظهره، أما عقل (دعاء) فراجع تفاصيل الرواية الغريبة .. (دينا) تكتشف من خلال مذكرات (حازم) أنه يستطيع إضافة أوامر لعقول من يقترب منه ويزرع أحاسيس وذكريات كثيرة في العقول ويبني على أساسها حياة كاملة لمن يزرع عنده الذكريات

(حازم) الذي يستطيع زرع الذكريات يختار عامل المقابر ليزرع في عقله حكاية وهمية يعيش عامل المقابر بها ليخبره (حازم) من خلالها عن الطريقة التي قتل بها .. (حازم) في الرواية قتل عن طريق السم من شقيق زوجته، اختار الكاتب عامل المقابر لأنه مريضًا بسرطان الرئة وكان من السهل زرع ذكريات زائفة في عقله لأنه قريب جدًّا منه وفي نفس الوقت قريب من الموت أي بين الحياة والموت، يمكنه أن يتصل به الكاتب عقليًا ليوهمه بكل شيء ليوصل المعلومات إلى رأسه .

- " انت النصف ميت "

قالتها (داليا) واجمة فأشار لها (خالد) بدون أن يتكلم برأسه علامة الموافقة .

ثم رفع يدة اليمنى ودق بها على مسند مقعده الخشبي ثلاثة دقات متفرقة أعيدت ثلاث مرات كما أخبره (حاتم)، شهقت (دعاء) وهي تضع يدها على فمها من الرعب .

- " وانت المرافق اللي بتحميه وتوصله؟ "

قالتها (داليا) وهي تنظر للضابط الذي نظر لها هو الآخـــر بدون أن يتكلم .. (دعاء) تتذكر عندما استغل (حازم) صديق عامل المقابر القريب من القبر في زرع فكرة تنفيذ أوامر عامـــل القبر ـ لأن صديق عامل المقابر كان قريب من قبر (حازم) أي قريب جسديًا منه فيمكنه زراعة الأفكار والأحاسيس ـ كـــي يحميه من شقيق زوجته، ليصل بالدليل إلى الزوجة لأن عامـــل المقابر في آخر مراحل سرطان الرئة، صديق العامل سماه (حازم) باسم (المرافق)، ووصل النصف ميت إلى (دينا) هو والمرافـــق يحمل الدليل أنه من طرف زوجها وهو في يتألم من الـــسرطان ويبصق الدماء ويوشك على الموت، تذكرت الزوجة الـــدماء على صدرها التي تعني أن النصف ميت يحمل في صدره علامة، العلامة هي إصابة النصف ميت بسرطان الرئة .

تأملت (داليا) وجه (خالد) قليلًا .. إنه هو نفـــس الوجـــه الدخاني الضبابي الذي ظهر لها في الصورة مـــع اخـــتلاف أن الوجه الذي أمامها على وجهه وعينيه اليسرى ضمادة كبيرة .. عينه اليسرى المصابة .. لقد وجدت على عينيها بقعة دماء إذن فتلك هي العلامة التي يتميز بها النصف ميت، فجأة مد (خالد) يده اليمنى وهو ينتزع الضمادة البيضاء بصعوبة لتظهر ضـــمادة جروح تحتها تخفي عينيه .. أمسك باللاصق بقوة وهو ينتزعـــه

وصوت خواره من الألم يخرج عاليًا و(دعاء) تبتعــد للــوراء و(خالد) يكمل ما يفعله وهو ينتزع لاصق الجروح وصوت ألمه يعلو حتى انتزعه من على عينيه ليسيل خط من الدماء من عينيه اليسرى المغلقة، نظر لداليا طويلًا وهي تنظر له بلا خوف حتى قال لها وهو يلهث من التعب .

- " دلوقت أنا هاقول اللي (حاتم) قالهولي "

ظلت (داليا) صامتة فقال (خالد):

- " (حاتم) بيقولك: إنك وحشتيه أوي .. وإنه فاكر أول يوم شافك فيه في المكتبة، وكان بيبصلك كل شــوية زي مــا كنتي بتبصيله، كنتي جميلة أوي "

انحدرت دمعتان من وجه (داليا) الجامد فأكمــل (خالــد) وصوته يتهدج:

- " بيقول إن رواية (نصف ميت) فيها كلام عن المزيــف، المزيف اللي بيزيف الذكريات هو (حاتم) نفسه .. وبيقولك إنه بيعتذرلك علشان كان نفسه يكون معاكي دلوقت ويــوريكي المفاجأة اللي قالك عليها "

مد (خالد) يده اليمنى في جيبه ليخرج العلبــة الحمــراء ثم يبسط يده لداليا لتأخذها منه وتتأملها .

- " طلب مني أني اديكي الدبل اللي في العلبة واللي قــاللي أقولك عليها إن دي الدليل .. وإنه معاكي طول الوقت طــول حياتك ومستنيكي عشان تبقوا مع بعض "

ابتسمت (داليا) وهي تنظر للعلبة المغلقة التي غطتها الدماء وطبقت على نفسها .. فتحتها فوجدت دبلتان تغرقهما الدماء، ابتسمت واغرقت عيناها بالدموع ثم تحول الابتسام لفرحة على وجهها وهي تنظر للدبل ثم تلمسها باصبعيها .. أغلقت العلبة وضمتها لصدرها بفرحة وهي تنظر إلى (خالد) الجالس ودموعها تغرق ملابسها وهي مازلت تبتسم

- " شكرًا "

كانت عينا (داليا) تنظران لعين (خالد) ولكن النظرة طالت والابتسامة ظلت والدموع بدأت تتوقف !!!

نادت عليها (دعاء) فلم تجب وظلت تنظر لخالد الجالس أمامها، جرت نحوها (دعاء) لتضع يدها على كتفها ولكن رأسها مال على كتفيها قبل أن تصل إليها شقيقتها .. لقد ماتت (داليا)

صرخت (دعاء) وهي تحتضن شقيقتها وتبكي ..

***

الفصل الثلاثون

النهاية

مر أسبوع واليوم هو الثلاثاء ليلًا، داخل نفس المقابر الـتي حدثت بها الأحداث السابقة ، وعند القبر الذي دفن به (حاتم) و النصف ميت يقف (خالد) يستند على عكازه بيده الـيمنى ويرتدي قميصًا أبيض اللون وكم القميص الأيسر موضوع داخل جيب سرواله الجينز وهناك ضمادة على عينه اليسرى وبعض بلاسترات الجروح على رقبته وعلى يده اليمنى، وبجانبه يقف (خالد) الضابط يرتدي ملابس ملكية (ملابس عادية) .

- " على فكرة فيه واحد زارني في المستشفى من يومين وقال لي إنه كان الناشر اللي كان هاينشر رواية (نصف ميت) لحاتم الله يرحمه وإنه عايز يتكلم معايا أول ما أخرج من المستشفى علشان يعرف مني حبة حاجات عن اللي حصل معايا أنا و(حاتم) "

قال (خالد) العبارة السابقة وهو ينظر إلى بوابة القبر المغلقة التي خرج منها حيًا منذ اسبوع .. كان ينظر إلى الدماء المتجمدة على باب القبر الحديدي وهو يتذكر لحظة خروجه من هذا القبر الموحش .

نظر (خالد) الضابط له وقال:

- " أنا مش عارف انت مصمم ليه على إنك تيجي هنا النهاردة بليل كده وتزور التربة بعد ما عرفت إنها بقت فاضية خلاص بعد ما الحادثة دي بقت قضية كبيرة واتسجن فيها ناس ووصلت لمجلس الشعب .. دلوقت انت واقف قدام مقبرة فاضية، حاول تنسى اللي حصل فيها "

- " التربة دي كانت تربتي، كانت المكان اللي اندفنت فيه وربنا نجاني تاني، برغم أني باترعب منها لكن بأحن ليها ساعات "

- " بتحن؟ "

- " بأحس إن التجربة اللي حصلت دي ماخرجتش منها بدراع مقطوع وشعر أبيض بس، حسيت إني خرجت منها بحياة تانية خالص كأن فيه واحد كان جوه القبر مات وواحد تاني اللي طلع من القبر "

ابتسم فجأة (خالد) فنظر له (خالد) الضابط بدهشة فأكمل الأول قائلًا:

- " تعرف ان اسمي مشتق من الخلود ، يعني اسمي معناه اني مش هاموت .. "

لم يبتسم (خالد) وظل محدقًا في القبر أمامه لدقيقــة ثم أدار الاثنان وجهيهما وغادرا المقبرة وهم يسيران بين صفوف المقابر حتى وصلا إلى غرفة عامل المقابر التي كان يسكنها (هــادي) فوجدا عندها رجلًا في العقد الخامس من العمر يرتدي جلبابًــا أبيض هرع ناحيتهما وهو يجري مستفسرًا عن دخولهم المقــابر في هذا الوقت .

طمأنه (خالد) الضابط وهو يخرج بطاقته الشخصية له قائلًا له أنه يعلم بأمر القضية المثارة عن تلك المقابر وأنــه أشــرف بنفسه على القبض على الجناة ليلة الحادث منذ اسبوع. هــش وبش الرجل وهو يحلف بالطلاق أن يتنــاولوا الــشاي معــه ولكنهم اعتذروا .

- " اوعوا تكونوا خايفيين تخشوا الأودة من جوه علــشان الناس انقتلوا فيها ، دي كلها اشاعات "

رد عليه (خالد) الضابط يستفسر عن تلــك الاشــاعات فأخبره التربي الجديد بأن

- " اللي انقتلوا روحهم بتتمشى وسط الترب بليل ، بــس ما تصدقوش الكلام ده ، دا حتى فيه نــاس بتحلــف إن روح (علي الطيب) موجودة بليل في المقابر ، وكمان بيقولــوا انــه بيتكلم "

- " (علي) ده اللي قتل الراجل اللي بينام مع الميتيين "

- " أيوه هو يا باشا ، الله يكحم الراجل الدون ده مطـــرح ما راح ويرحم (علي) اللي طلع واد جدع بجد وكشف ســـر الجثث اللي كانت بتتباع من الترب والنجاسة اللـــي كانـــت بتحصل، الناس كلها مابقتش ليها سيرة غير (هـــادي) اللـــي بيقولوا إنه روحه بتمشي بليل في الترب حاسة بالذنب "

فجأة رفع (خالد) رأسه أمامه ونظر يمينًا ويسارًا وهو يحاول أن يحدد مصدر هذا الصوت .. صوت يسمعه كأنـــه صـــوت رجال يتكلمون بصوت خافض ، صوت خفيف كلماتهم هـــو ما يصله؟ نظر للتربي والضابط صديقه فوجد أنهما لم يلحظا أي أصوات من خلال انشغالهم بالحديث عن ما حدث .

- " خليك انت هنا يا (خالد) أنا داخل أقرأ الفاتحة مـــرة تانية وجاي تاني "

نظر له (خالد) والتربي بدهشة واستفسر (خالد) عن السبب وحاول التربي أن يثنيه عن الدخول ليلًا مرة أخرى بين صفوف المقابر في هذا الوقت ، ولكن الأصوات في أذن (خالد) جعلته يصمم على أن يدخل وحيدًا ، حتى أن التربي كاد أن يمنعه بيده ولكن (خالد) أوقف التربي وهو ينظر إلى (خالد) ويبتسم لـــه بأن يدخل المقابر ليقرأ الفاتحة كما يريد .

كان رد فعل غريب من الضابط وهو يسمح لخالد بأن يدخل لداخل المقابر ليلًا بهذه الحالة ولكن (خالد) لم يكذب خبرًا واستند على عكازه وهو يدخل بين صفوف المقابر .

يتبع الصوت بأذنه ويحاول أن يسير في الشارع الذي تحيط به المقابر على جانبيه ليصل لمصدر الصوت .. عكازه يستند عليه ويسير ببطء وهو ينظر بعينه الوحيدة يمينًا ويسارًا محاولًا تحديد الصوت حتى وصل لتقاطع فدخل يسارًا في منطقة قبور مظلمة عن باقي المناطق بسبب الأشجار الكثيفة التي تحجب ضوء القمر ولكنها تظهر جزءًا بسيطًا من شواهد القبور، هناك رجل يسير بخطوات هادئة من بعيد في إتجاهه؟!! سار (خالد) هو الآخر باتجاه الرجل الذي اقترب أكثر وهو يسير غير عابيء بخالد وكأنه يقصد اتجاه ما، عند نقطة في وسط شواهد القبور تقابل الاثنان في الطريق و(خالد) يسير باتجاه والرجل يسير باتجاه، وفي تلك اللحظة وعلى الضوء المتسرب من القمر حدد (خالد) هيئة الرجل، كان أسمر الوجه بشدة كأنه سواد خاص في وجهه ومن بطنه تنزف دماء وتغرق قميص يرتديه!!! هذا الرجل تخطى (خالد) ولكنه وهو يتخطاه نظر في عينيه بعينيه البيضاء وسط وجهه الأسود طويلًا، وعندما تخطاه ظل ينظر لخالد لحظات قبل أن يدير وجهه ويسير بين الشواهد مكملًا طريقه في الظلام .. لم يشعر (خالد) بالخوف على قدر شعوره

بالدهشة من الصوت الذي يعلو، إذن فهو يسير في الاتجاه الصحيح أكمل (خالد) طريقه يتتبع الصوت الذي علا أكثر وهو يخطو في شارع جانبي على اليمين بين مجموعة مقابر أخرى حتى وجد منطقة حشائش ، الصوت يأتي من هنا، لقد وجد الصوت من أين يأتي بالتحديد، إن الصوت يأتي من ذلك المكان .. اقترب من المكان أكثر والدهشة تملؤه، لماذا يرى هذا الضوء الأبيض داخل المقابر؟!!!!

لماذا يسمع الأصوات بوضوح الآن .. إنه نوع من الانشاد الديني؟؟ وتتخلله أصوات جميلة تقول (الله)؟؟؟ اقترب من المنطقة أكثر ، إنه حائط علقت عليه رخامة كتب عليها:

(مدافن عائلة أبو العنين ١٩١١)

اقترب أكثر حتى توقف مستندًا بعكازه يشاهد ما يحدث بعين متسعة من الدهشة .. كائنات بيضاء تقف وأمامها شيء أبيض والأصوات تزداد بطريقة منغمة وفجأة تحولت الأجساد البيضاء إلى أجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء ، والذي يقف أمامهم تحول لرجل ضخم مليح الوجة ذو وجه أبيض يشع نورًا على نور بياضه ويرتدي جلباب خلاف الباقين .. يرفع يده أمامه ويقول (الله) فيردد الجمع وراءه الكلمة بتنغيمه !!!!! استمر ذلك للحظات حتى وجد الرجل يقول بصوت عذب يا

حي يا قيوم والجمع يرد الله ، الجمع يعطون ظهورهم له وهـــم يتمايلون لليمين واليسار ويرددون بصوت جميـــل الله وكأنهـــا تخرج من أعماق صدورهم ، فجأة توقف أحد رجال الجمـــع الذين يتمايلون ونظر خلفه لخالد .

لقد كان هو (علي الطيب) ينظر لخالد ويبتسم له .. وبرغم أن (خالد) لم يعرفه ولكنه ابتسم له أيضًا، دامـــت الابتـــسامة لحظات وتحركت شفاه (علي) الذي يشع وجهه بياضًا لتـــردد مع الباقيين الله وينظر أمامه ويتمايل معهم .

***

تمت بحمد الله

حسن الجندي

إصدارات أخرى للكاتب

مخطوطة بن إسحاق

(مدينة الموتى)

اجتمع الساحر بالأربعة فقراء ثم جعلهم يحفظون هذه الكلمات:

سمامها طولام فقدشبينا يوهانيط سمسمائيل يصيفيدش إحــرق كل من عصى أمرك بحق إصطفار و بيوم عمياخ وبحياة هليع بحــق إصطفار وبيوم عمياخ وبحياة هليع يا من تسمعون في وادي القرنيم بحق سيدكم وبحق مقبلكم فكوا قيد بن ذاعات في عاهاط د سماعل حتى إذا حضرتم أحرقم الجبار بحق وصيل مشموهوه .

فقال (يوسف):

- "ويبدو أنه قد جرت أقدامنا في مسالة أقوى منا بمراحــل ، وأعتقد صدقاً ان تلك المخطوطة هي مفتاح لعــالم الجــن ، أو إذا أردنا التحديد هي مفتاح لبوابات معينة في عالم الجن لم نكون فكرة كاملة عنها"

لكن فجأة شعر (صابر) بيد الرجل اليسرى تطوق فمه وتسحب رأسه للخلف بشدة فحاول أن يتملص وهو يطلق أنيناً ويهز جسده محاولاً المقاومة ولكن الرجل قرب فمه من أذنه اليسرى وقال بخفوت :

- " علي أن أعترف أنني فقدت شهيتي للطعام ولا أرغب بتذوقك ولذلك سأكتفي بشيء بسيط هذه الليلة .. أما بالنسبة لسؤالك عن شخصيتي .."

توقف (صابر) عن الحركة والتملص وهو يستمع

- " أنا من أتيت من أعماق عقلي .. أنا الرغبة مجسدة ، أنا من أردت أن أكونه وأخاف أن أكونه .. أنا المسخ الذي عاد لكم"

فجأة شعر (صابر) بمحقن يخترق عنقه وسائلاً ما يدخل لجسده عن طريق أوردته ، ثم شعر بارتخاء في عضلاته والرجل يكمل كلماته قائلاً :

- " أنا (آدم) "

***

لقد فهم ، شرايين يده قطعت وسيموت في خلال دقائق على الأكثر، أخرج من فمه صوتاً كالخوار مرة أخرى وهو يشعر هذه

المرة بوعيه يتسرب منه ، هل سيموت الآن ؟ جاءت في رأسه فكرة أسهل لينفذ بها ما يريد ، أخذ يسحب السجادة بيده اليسرى كي يصل لنهايتها وبالفعل وصلت ليديه بداية السجادة التي رفع بدايتها من على الأرض ليتحسس البلاط البارد بيده اليسرى .

غاب دقيقة عن الوعي ولكنه أفاق مرة أخرى وهو يرتعش من فكرة أن يموت هكذا ، مد يده اليسرى ناحية يده اليمنى التي تنزف وبلل إصبعه ثم وضع الإصبع على البلاط وكتب بخط مرتعش

(ادم عاد)

تحت الطبع

مخطوطة بن إسحاق

(المرتد)

((قال الدكتور (حسام) بنفاذ صبر لمساعدة:

- " اذهب لترى ماذا يحدث في المولدات "

مياااو

نظر الجميع بدهشة لمصدر الصوت ليروا قطاً أسود اللـــون يقف متحفزاً أمام الباب وهو ينظر لهم .. هنا شهق (خالد) وهو يتراجع للخلف وهو يقول:

- " مستحيل .. نفس القط .!! "

ابتسم القط مرة أخرى كاشفاً عن أسنانه وهو ينظر للواقفين ، هنا انطفأت الأضواء في الغرفة وسمع الجميع صوت زئير شديد ثم أحسوا بالمنضدة التي ترقد عليها الجثة تتحرك من موضعها

شعر (خالد) بصوت يحدثه في أذنه مباشرة كأنه يخبره بـــسر، يقول الصوت بخفوت:

- " سأستعير الجثث لأيام يا صديقي "

وعادت الإضاءة مرة ثانية

ولكن لا أثر للقط أو للجثة أو للتقارير التي كانت بجوار منضدة التشريح ..!!!!))

***

ماريـــــا

(قصة الصوفي والراهبة)

((قلب (محمد) المجلدين بين يديه يتأملهما، كانا عبارة عن مجلدان كبيران ثقيلان مغلفان بجلد أسود ومنقوش عليه رسم لمفتاح الحياة الرمز الشهير عند القدماء المصريين والذي يشبه رمز الصليب، رفع (محمد) عينيه عن المجلدات مندهشاً بعدما وجد مفتاح الحياة على المجلدان فقال له (راغب):

– " لا تسألني عن سبب وضع رمز مفتاح الحياة على المخطوطات المسيحية لأنني لن أجيبك، أنت تمسك بالمخطوطات الناقصة من المجموعة التي يسميها العلماء مخطوطات نجع حمادي، وما تمتلكه الآن قنبلة لو انفجرت ستهدم الكثير والكثير، أرجوك عدني أن لا تنتشر تلك المخطوطات في حياتي، لا أريد أن يقتصوا من عائلتي، ولا أريد أن أرى ما بني في آلاف السنين يهدم أمامي وأكون أنا السبب "

- " أعدك يا (راغب) "

- " لو سألني أحدهم عن المخطوطات سأقول أنها سرقت "

- " لا يا صديقي بل قل للقس ما رأيت من مظهري وأذكر له ملابسي ومسبحتي وكلماتي وحديثي وقل له أنني أجبرتك وهددتك بقتل أطفالك وأنني كنت سأقتلهم أمام عينيك، وأذكر له ما رأيت من تغير وجهي "

- " لن يصدقني فهذا غير معقول "

ابتسم (محمد) بخبث وقال:

- " قل للقس أن من زارني وهددني قال أن اسمه (محمد عبد العال الغول)، وأنصحك أن تنظر خلفك الآن "

نظر (راغب) وراءه فجأة فلم يجد شيئاً فعاد لينظر لمحمد ليسأله ولكنه لم يجده أمامه؟؟!!!! لقد اختفى بلا صوت !!))

***

التعويذة

- " ماما ماما قومي يا ماما فيه أصوات وحشة "

قالت (سميرة) الطفلة ذات الثمانية أعوام العبارة السابقة وهي تهز والدتها لتصحو فاستيقظت الأم بنصف عين وهي تسأل عن ما يحدث، استيقظ زوجها وهو ينهض مفزوعاً ليسأل الطفلة

لكنه سكت لحظات هو والأم ينصتان لصوت ما كي يتأكدان مما يسمعا، صوت بكاء واضح ونحيب قريب من منزلهـم ، غـادر الرجل الفراش بسرعة وهو يمسك بساعته الموضـوعة بجانـب الفراش .. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، توجـه للـشرفة لينظر يميناً ثم يساراً وفجأة تجمدت عينيه على تلك الفتاة التي تأتي من ناحية المترل المجاور البعيد ، استغرقت نظرته ثوان وهو يرى بوابة المترل المهجور مفتوحة وفتاة ترتدي حجاباً وتغطي وجهها تسير في الشارع وهي تبكي وتتخبط وتهتز كالسكارى !!!! هذا هو البيت المهجور الذي تدور حوله الشائعات ، ما الذي جعـل فتاة تأتي من اتجاهه وتبكي بهذا الشكل ، دقق النظر جيداً يحاول أن يخترق الظلام الذي يحيط بالفتاة ، ملابس الفتاة مليئة بالدماء ويديها أيضاً !!!!!!

***

ملاك جهنم

((التقط (حامد) أنفاسه أخيراً وحبات العرق تقطر من جبينه لتختلط بالدماء وتسقط على الأرض مصطدمة بجثة (رامي) التي امتلئت عن أخرها بالجروح والخـدوش والكـسور .. ابتـسم (حامد) ناظراً لخدامه من الجان الذين يدورون بسرعة حول الجثة ، أخيراً استطاع أن يقتل (ملاك جهنم) .. خصم ليس بالهين هو،

بالفعل كل الأساطير التي رويت عنه حقيقية وخاصة بعد انتهاء الصراع بينه وبين الصفير الآن

تحرك ببطء وهو يئن ويدور حول جثة (رامي) يتأملها .. ذراعه التي أصابها كسر من المرفق فطويت بالعكس ، الدماء التي تسيل من صدره بغزارة ، ذلك الفك المكسور الذي فتح لأخره ويميل لليسار قليلاً باتجاه الكسر ، هذا الجرح الكبير في جبهته والذي سالت منه كمية كبيرة من الدماء أغرقت وجهه وأخفت ملامحه .. حتى قدماه لم تسلم من الكسور فطويت القدم اليمنى تحت جسده في وضع يظهر ذلك الكسر العنيف الذي أصابها ، زادت ابتسامة (حامد) وهو يقول :

- " رأيك إيه دلوقت يا صاحبي؟ الشيطان كان عنده حق لما وهمك إن القوانين الالهية مابتمشيش عليك ؟ مابتردش ليه ؟ "

اتسعت فجأة عين (حامد) وتراجع للخلف بسرعة وهو يسمع صوت طقطقة عنيفة تصدر من الجثة ، صوت يشبه تحطم العظام ، ولكن المصيبة أنه ليس تحطماً للعظام !!!!! انطلقت صرخة من فم (حامد) وهو يرى مرفق الجثة يصدر طقطقة ويتحرك تلقائياً وهو يأخذ وضعه الطبيعي وكأنه يلتئم ، قدمه هي الأخرى تصدر نفس الطقطقة وتعود لوضعها الطبيعي وكأنها بلا كسور .. الجروح في وجه الجثة تغلق وكأنها خدعة في فيلم رعب ، جرح صدره يغلق والدماء تقف منه ، تراجع (حامد) للوراء

وهو يهز رأسه غير مصدق وجسد (رامي) تنتهي منه الجـــروح وصوت عظامه يصدر الطقطقة والعظام تعود لوضعها مرة أخرى ... وفي النهاية خرج صوت عنيف من فكه المكسور وهو يعود لطبيعته ، عند ذلك الحد كان (حامد) قد التصق بالحـــائط مـــن الرعب وعينيه تنظر بذهول لرامي الذي قام مـــن علـــى الأرض بهدوء وهو يتنفس بعمق وهو مازال مغمض العينين :

– " أسف أني اتأخرت في الرد علـــى أســئلتك ، بالنـــسبة للإجابة على سؤالك .. أيوة حقيقي القوانين الالهية مابتمـــشيش عليا لأن قوانين ربك مش هاتمنعني "

قال (رامي) تلك العبارة وهو يقترب من موضـــع (حامـــد) الذي ظل يحتمي بالجدار في رعب و(رامي) يقترب أكثر وهـــو مغمض العينين وصوت الصفير يدوي مرة أخرى بعنف ليعلن عن نهاية (حامد) ، فجأة اختفى (رامي) من أمام عين (حامد) ليظهر أمامه فجأة ويمسك بتلابيبه مقرباً عينيه المغلقة من عينه .. مرت ثوان على هذا الوضع حتى فتح (رامي) عينيه ليظهر في موضعهما بياض تام ويقول وهو يبتسم :

– " لو سمحت .. بلغ سلامي لحبايبي اللي بعتهم لجهـــنم ، وقولهم لو طلع فيه جهنم بجد فهنتقابل في الأخر كلنا ويتجمـــع الحبايب، ولو مفيش جهنم يبقى ادعولي بقى في المكان اللي انتوا فيه دلوقت "

قال تلك العبارة وهو يبتسم وحدقتا عينيه البيضاء تضيق أكثر بينما أخذ (حامد) في الصراخ وصوت الصغير يعلو أكثر وأكثر وخدام الجان يـ ....))

***